

54

كتابي



فلورنس باركلي

المسبعة

الجزء الثاني

Looloo

www.dvd4arab.com



المؤسسة العربية للصناعة

طبعة و توزيع
www.dvd4arab.com

محمود



المسبحة

(الجزء الثاني)



Looloo

www.dvdarab.com

ملخص ما جاء بالجزء الأول

كانت النبيلة « جين شامبيون » قبله شباب المجتمع اللندنى الراقى ، لا لحسبها ولأنها أخت دوقه ميلدرم « ولا لجمالها ، فانها كانت ذات ملامح عادية ، خالية من أى جمال صارخ ، وإن كانت مشوقة القوام ، ملففة الجيد .. وإنما كان الشباب يعجب برقة أخلاقها ، ولطف سجاياها ، ومرح روحها ، وذكائها الفائق .. وكانت الفتاة تدرك هذا الواقع — الذى كان جديرا بأن يحزن نفس أمة فتاة أخرى — وترتضيه. لذلك كانت دهشتها بالغة ، عندما عرض عليها « جارث دالمين » — الفنان ، الذى أوتى ثروة ومواهب وجمالا — الزواج. فقد سمعها « جارث » وهى تغنى أغنية « المسبعة » ، فإذا به ينفذ خلال مظهرها الخارجى إلى أعماق نفسها وروحها ، ويدرك أنها جوهرة لا مثيل لها ، ويلبس فيها كل ما كان ينشده.

وتفكر « جين » طويلا ، فلا تملك إلا أن تعترف بأن « جارث » كان يصنفها سنا ، وكان باهر الجمال ، ذائع الصيت ، واسع الثراء ، تتهافت عليه أجمل حسان المجتمع الراقى .. وكان فوق ذلك مشقوقا بالجمال ، يسمى دائما إلى أن يحيط نفسه بكل جليل . فتخال أن زواجا يجمعهما لن يكون موفقا قط ، وأن طول المعاشرة لن يلبث أن يفتح عينى

« جارث » على دمايتها .. لذلك ترفض يده ، ولا تجد علة تبديها له ، سوى صغر سنه ، وأنه فى نظرها .. « مجرد غلام » !

وتشتد بها الحسرة وتباريح الحب ، فلا تلبث أن تقوم برحلة حول العالم .. وفى مصر ، ترى النيل يجرى بين الصحراء والخصب ، فترى أن من الممكن أن تعيش مع « جارث » على هذا النسق .. افتتار إلى الجبال — فى التركيب البدنى — يقابله غنى عاطفى ، وعقلى ، وروحى .. وتقرر أن تكتب له ، ولكنها تفاجأ بنبا فقدها البصائر نهائيا ، كسرع إلى لندن .. والآن ، تابع أحداث هذه القصة المشوقة ..

عشرة ، كما اعتقد أنه كثيرا ما يشعر بأنه في التاسعة من عمره !

— وبعد ؟

— منذ ذلك ظلت له أنني لا أستطيع أن أتزوج مجرد غلام !

— وهل انصاع وقبل هذا ؟

— لقد لاح — في بادئ الأمر — أنه صحق .. ثم قال ان من الطبيعي ألا أستطيع الزواج منه ما كنت أراه بهذا الوصف .. وقال انها المرة الأولى التي فكر فيها في شخصه بالنسبة لهذا الأمر .. ثم أضف أنه يحس رأسه أمام قرارى . وسار مغفرا الكنيسة « فلم تعلق بعد ذلك !

فاجابها الطبيب : « يدهشنى أنه لم يكشف ما انطوى عليه قرارك يا جين .. فانت لم تتصوى الكذب حتى يتوقع منك أن تكذبى — وانت على مقبة الهيكل — على الرجل الذى احبته بكل قواك ! » .. وهنا كسا وجه جين ابحار قائم ، وقالت : « آواه يا دريك .. لم يكن ما ذكرت كذبا يمينى الكلمة .. بل انها كانت أكثوبة بغيضة من النوع الذى « بعضه مسدق » ، والذى يصنفه تينسون بأنه : « مسالة تشق مغالبتها ! » . فأكمل الطبيب الأبيات الشعرية :

« الأكثوبة التى هي كذب محض .. يمكن صدها ومغالبتها مباشرة .

الجزء الثانى

فاسترد الدكتور حديثه — في الحال — وانحنى إلى الامام ، واخذ يديها الممتودتين في يديه ، وقال : « ساجدنى » إذا كنت قد أخذت الأمر بشيء من الهزل والخفة .. ان كل ما لدى من فكر واعتناء طوع امرك . ولكن دعينى الآن أوجه إليك بعض الاسئلة : كيف قدر لك أن توفعى إلى إقناع « دالين » بأن امرا كهذا كان مقبلة كؤودا امام زواجكما ؟ » .

— اننى لم ابد هذا كسبب يبرر رغبى .

— إذن لما هو السبب الذى بنيت عليه رفضك الزواج منه !

— سألته عن عمره !

— جين ! .. وانت واقفة بجواره امام الهيكل ، حيث جاء ليتلقى الرد منك !

— نعم . لقد تجلت بشامة ذلك ، عندما ظلمت الأمر على وجوهه بعد ذلك . ولكنه أجدى !

— لست أشك في أنه قد أجدى .. وبعد ؟

— أخبرنى أن عمره سبعة وعشرون عاما .. فقلت له اننى في الثلاثين من عمري ، وأظهر كما لو كنت في الخامسة والثلاثين ، وأحس في نفسى بأننى في الأربعين .. كما ظلت له بأنه قد يكون في السابعة والعشرين ، ولكنه يظهر كما لو كان في التسعة

« أيا الأكلوبة التي بعضها صدق ، فمسألة تشق مغالبتها ! » .

وقالت جين : « نعم .. ولذلك فإنه لم يقو على مغالبتها لأن بعضها صدق .. فهو يصغرني بثلاث سنوات ، وهذا الفارق في العمر ، يضاعفه الفارق في الطباع والمزاج .. وكان شبابه المرح النضر » هو الذي جعلني أخاف تضوحي ورساتي .. كان بعضها صدقا يا دريك « ولكن الشطر الأكبر كان كذبا .. وزادها كذبا أن دعوته « مجرد غلام » ، وهو الرجل الذي شمرت برجولته الكاملة « وأنه سيد سيطر على ، في الليلة السابقة .. ولم يقو على مغالبتها كذلك ، لأنه أخذ على غرة . فقد كان طيلة الوقت بعيدا عن الشعور بنفسه ، بقدر ما كنت أنا أعاني كهدا من الشعور بنفسى .. كان كل تفكيره قاصرا على ، في حين كان تفكرى منصبا عليه وعلى نفسى ! » .

نقال الطبيب : « لقد استحققت كل غصة مما عانيت منذ تلك اللحظة ! » . فاحتج جين رأسها ، وقالت : « أعرف ذلك » .

— لقد خدعت نفسك ، ولم تكونى صادقة مع حبيبك ، فسلبت كلا منكما الآخر وغششته . أو لا ترين الآن خطاك ؟ .. لو أنك أخذت الأمر على أبسط احتمالاته ، لتبينت أن دالمين — وهو العابد للجمال — قد انتخم من جمال الوجوه ، حتى تفرزت نفسه .. كان كسبى صانع الطوى ، انذى يباح له كل ما يشتهى من الكمك والطوى — عندما يلتحق

بالعمل — فياكل في الأسبوع الأول كثيرا جدا « إلى حد أنه يشمر بعد ذلك بالتفرز من كل حلو ، ولا يقبل سوى الخبز والزبد .. لقد كنت لدال الخبز والزبد ، وأرجو أن تستأهينى إذا كان هذا التشبيه لا يرضيك !

فابتسخت جين وقالت : « بل إن التشبيه يعجبني » . بينما استعرد الطبيب قائلا : « بل أنك كنت أكثر من ذلك بكثير يا فتاتى العزيزة .. كنت في نظره مثلا أعلى للمرأة ، وقد آمن إيمانا عميقا بقوة شخصيتك ، وحنانك ، وكياستك ، وظرفك ، وصدقك .. وإذا بك تحطمين هذا المثل الأعلى ، وتهدمين ذلك الإيمان .. إن طبيعته الخيالية ، الفاتنة ، المتوثبة — بكل ما فيها من إمكانيات عاطلة ، ومن إيمان وإخلاص ووله — قد وجدت في حبك مرما وملاذا أميناً ، فإذا بك — في اثنتى عشرة ساعة — تلقيين بكل ذلك في قاع اليم .. لقد كان ما فعلته جريمة ، يا جين .. وقد تجلى ما للرجل العزيز من قوة رائعة ، في المسلك الذى سلّكه عقب ذلك « فان نجاحه في منه لم يقف عند حد ، بل أنه — على العكس — بلغ حد الإعجاز ، ولم يجرفه اليأس إلى زواج جنونى فاشل ، ليهزأ بذلك من آلامه .. ولا إلى الزواج من أخرى مجردة من الجمال ، إمعانا في الكيد لك ! .. كان في مقدوره أن يفعل الأمرين — أقصد أيا منهما — وعندما أتمثل الشاب المسكين — الذى كنت بجانيه بالأمس — يصارع دياجير الظلام في شجاعة نادرة ، ويطلب رأسه على الوسادة ليقول ، وقد أشرق وجهه النحيل بنور الأمل : « وحيث تكون أنت مرثى هنا لن يكون شاة

مرض .. كلما فكرت في أنه قد تعرض لكل ذلك من جرائمك أنت يا جين .. تمنيت لو أنك كنت رجلا لالعب ظهرك بالمسيط !.

وبسّطت جين كتفها ، ورفعت رأسها بكثير مما عرفت عنها - من قبل - من شمم ، وقالت : « بل أنك جلفتي نملا يا فتاى ، بما لا تقوى سوى الكلمات - الصادرة عن حق صادق - أن تأتيه ، وها أنذى أحسن براحة من جراء هذا الألم .. والآن ، يحسن بى أن أخبرك بأننى - بينما كنت فوق قمة الهرم الأكبر - رايت المسألة فجأة ، من زاوية أخرى . أنك تفكر - ولا ريب - ذلك المنظر الذى تطل عليه من فوق قمة الهرم ، والخط الحاد الذى يقسمه ، فمن ناحية النهر : الخضرة والمشب والثمار كأبدع هدية محدودة .. ومن الناحية الأخرى : بيضاء شاسعة لا تفرك العين مداها .. حرية ذهبية طليقة .. ممتدة حتى الأفق .. فلا تبتك ، ولا أمل في خضرة ، وأنتا جندب ، واقفار ، ووحدة .. ووحشة .. لقد شمرت لدى رؤيتها بأن هذه الحال صورة كاملة لحياتى التى أحيها الآن ، فان حب « جارث » - إذ يتدفق فيها كالنهر - يستطيع أن يحيها « نعيما » هنا .. كان كتيلا بأن يحد من حريتى ، ولكنه كان - في الوقت ذاته - معنى نهاية وحدتى .. لا سيما وأن حرية الفرد في أن يحيى لنفسه فقط ، تتحول مع الزمن إلى عبودية ملة ! .. وتحققت - عند ذلك - بأننى قضيت عليه - هو الآخر - بهذه الحياة المجذبة القاسية . وهبطت فاستشرت أبا الهول المعجوز . ولاح لى أن تلكا العيين الساجبتين ، الحكيمتين « المتعلمتين إلى عالم

الغيب ، تقولان : « أنا يمشى حقا ، أولئك الذين يحيون ! » . وفي تلك الليلة فقدت العزم على إلقاء رحلتى إلى أعالي النيل ، وعلى العودة نورا إلى بلادى . فاستدمنى « جارث » وأعترف له بكل شيء ، وأسأله أن يدفعنا نبدا - نحن الاثنين - من جديد ، من حيث انتهينا منذ ثلاث سنوات مضت - في ضوء القمر - في شرفة قصر (شستون) .. ولم ينقض على هذا التقييم عشر دقائق ، حتى فوجئت بسباع الخبر المفجع !.

وعند ذلك ظل الطبيب عينيهِ بيده « وقال بصوت منخفض : « ان عجالات الزمن صير دائما إلى الألم ، ولكنها لا تعود مطلعا إلى الوراء ! » . فصرخت جين : « آواه يا دريك .. أنها تعود في بعض الحالات ، وأنت وفلور تطلبان ذلك » . فابتسم الطبيب بأسى وقال لها في رقة وحنان : « أعرف أن هنالك استثناء واحدا لكل قاعدة ! » .. ثم أضاف مبرما : « على أنه مما يساعد على اصلاح الأمر - بلا مراء - ما كان من اتجاه تفكيرك ، إذ كنت قد اعترفت بخطئك - قبل أن تعلنى بعمى دالين - وعقدت العزم على أن تركضى إليه ! » .

فأجابته جين : « لست موافقة تماما من اننى كنت مخطئة ، ولكننى كنت قد اتفقت تماما بأننى لم أجد استطيع العيش بدونه دقيقة واحدة ، ولذلك عولت على المجازفة . أبا الآن ، فإن الحادث الذى جرى لفتاى المسكين ، قد محا كل شك أو حجة إلى تساؤل .. وهذا مما ييسر الأمور نعيما بخصص بتلك الناحية بالذات ! » . فمدق الطبيب في حين ورفع حاجبيه نجاة ، وسأله : « ييسر الأمور ! »

وإذ بدا على « جين » أنها كانت مرتاحة إلى ذلك التعبير . فلم تحاول أن تزيده إيضاحا ، نهض الطبيب عن مقعده وأخذ يحرك نار المدفأة . وظل في موقفه لحظات ، مستغرقا في تفكير عميق . حتى إذا عاد إلى مقعده « كان صوته هادئا جدا ، وإن بدت لهجته متحفزة بدرجة جعلت لها « جين » ، غشعرت بأن حديثهما قد بلغ مرحلة حاسمة .. وقال لها الطبيب : « والآن يا عزيزتى جسائيت ، لعلك تنبئينى بما انتصويت عمله » . فاجابته جين : « عمله ؟! .. وهل هذا موضوع تساؤل ؟ .. سأذهب توا إلى جارث » ، وأنها أريد منك أن تبصرنى بخير الوسائل لاتبائه بحضورى ، وبما إذا كان من المأمون أن يتعرض للانفعال الذى يثيره وصولى ! .. ثم أننى لا أريد أن اتعرض لأن يحجزنى الأطباء والمرضات عنه ، فإن مكائى إلى جواره ، ولست ابتغى في الحياة خيرا من أن أكون بجانبه دائما ، ولكن المولكين بغرف المرضى يكونون — عادة — ذوى عقول جامدة ، ولن تكون المضايقة محتلة في مثل هذه الظروف .. أن برقية منك كافية لتمهيد الموقف » .

وقال الطبيب في ثان : « أجل .. حقا ، أن برقية منى تفتح لك طريقا إلى غراش جارث دالين ، ولا شك . ولسكن » ماذا يكون بعد وصولك إلى هناك ؟ » . فارتسمت على شففى « جين » ابتسامة رقيقة ، حنون ، لمحها الطبيب فأشاح براسه توا . فما كان له — ولا لآى رجل — أن يرى هذه الابتسامة .. وكانت العينان اللتان يحق لهما رؤيتها قد فقدتا الإبصار إلى الأبد !

— ماذا بعد ذلك يا دريك ؟ .. أن الحب خير من يعرف ماذا يكون بعد ذلك . فسوف تنهار كل الحواجز ، وسأبقى وجارث معا !

ولدى سماع ذلك « التقت أطراف أصابع الطبيب ببعضهما ببعض » وسكت لحظة .. وحينما تكلم ، كانت لهجته مستدلة : مترففة . فقال : « آه يا جين ، هذه هى وجهة نظر المرأة . وهى بلا ريب أبسط وجهات النظر ، وقد تكون أفضلها .. ولكنك ستواجهين عند غراش جارث وجهة نظر الرجل ، ولن أكون أهلا للثقة التى تضعينها في شخصى إذا لم أصارحك بهذه الحقيقة الآن .. فإن تصرفك المخطئ منذ ثلاث سنوات ، يفعك الآن — من وجهة نظر الرجل — في مركز يكاد يكون متعذر العلاج .. فإذا انت ذهبت الآن إلى جارث تهيئه حبك — وهو الكنز الثمين الذى سالك إياه منذ ثلاث سنوات — وفشل في الظفر به — فمن الطبيعى أنه سيأخذ هذا الحب على أنه في جوهره عطف ، وليس جارث دالين بالرجل الذى يتقبل العطف والشفقة حيث أراد أن يظهر بالحب ففشل ! .. كما أنه لن يسمح لأية امرأة — لا سيما تلك التى كانت مثله الأعلى في المرأة — أن تربط نفسها إلى عماء ، ما لم يستوثق من أن هذا الارتباط مبعث سعادة عميقة .. فكيف تنتظرين أن يتبل هذا الاعتقاد ، أمام الواقع الذى يتصلق أنك رفضته وأقصيته ، عندما كان أسمى ما يشتبهى قلب المرأة ؟! .. أما إذا شرحت له سبب الرغضى — وهو ما لا شك في أنك تتنبون عمله — فسيكون رده الوحيد : « شكرا لك على السلام »

عندها كنت ممتعا ببصري .. وها انتدى ثابتي وأنا أعمى ، ولم اعد املك أن اثبت لك وفائى .. ما من خير في وضع تلبية الحاجة والضرورة « ولن اشعر بأننى حائز لثقتك ، لأنك لم تات إلا حين اعجزني حادث عن القدرة على إثبات ما كنت تخشين وقومه ، او عن إثبات اننى فوق مستوى ارتيلك .. ! هذا هو الموقف - يا بنيتى العزيزة - من وجهة نظر الرجل . من وجهة نظر جارث - ولا ريب - أكثر مما هى من وجهة نظرى او نظر أى شخص آخر ، فأننى أوقن أن « جارث » أشد منى اعتزازا برجولته . ولو أننى كنت مكانه في الكنيسة - يوم رفضت قبوله - وكنت أرغب فيك بقدر ما كان هو راغبا ، لركعت عند قدميك مستعطفا ، وأعدا بأن أكون أكبر سنا مما تعتقدين .. أما جارث دالين فقد أوتى إرادة حديدية يمكنه من أن يستدير وينصرف - دون أى احتجاج - حين رأى المرأة التى كانت طوع بنانه في الليلة السابقة ، ترفضه - في الصباح التالي - متعللة بعدم لياقته .. إننى أخشى ألا يكون ثمة نزاع في وجهة النظر التى سستخذها في الموقف الحالى ! » .

وتفتت قلب الطبيب لما رآه من امتناع وجه جين ، وهى تقول : « ولكن يا دريك .. انه يجب .. » .

ولمجرد انه « يجب » - يا بنيتى العزيزة - فانه لن يقبل ، فيما يتعلق بك ، إلا الحد الأقصى !

— أواه يا فتى ! .. ساعدنى ! .. افتح لى منفذا .. !
تبئنى بما أستطيع أن أفعل !

وتجلى القنوط في عينيها ، هبكت الطبيب يفكر - في صمت - طويلا ، ثم قال أخيرا : « لست أرى سوى مخرج واحد من هذا المازق .. إذا امكن إقناع جارث بطريقة ما ، بأن وجهة نظرك في ذلك الوقت كانت مستساغة - دون أن يعرف أنها كانت السبب الفعلى لرفضك - وتسنى له أن يعبر عما يخالج ضميره في وضوح - لى مثلا - بحيث يصل حديثه إلى مسميك - دون أن يكون مقصودا أن يصل إلى مسميك - فقد يجعلك هذا في موقف أفضل من ناحيتك . ولكن هذا عسير التنفيذ .. لو أنك استطعت أن تكونى على اتصال مباشر بمقله ، وأن تكونى بجانبه دائما دون أن يراك - آه ، يا صديقى المسكين ، فان هذا ميسور الآن ! - انها أقصد أن تكونى بجانبه دون أن يظن إلى شخصك .. فإذا امكن مثلا أن تتخذى شخصية الممرضة المرافقة التى سأبعت بها إليه ، وتنفدى إلى عقله وتفكيره بهذا الصدد ، وبذلك يحس - عندما يحين الوقت لتكشفى له عن نفسك وتعترفى له - بأنه قد شرح موقفه إياك ، ويكون بذلك قد اخترق دياجير الظلمة التى اكتنفته بهذا الصدد ! » .

وقفزت جين عن مقعدها قائلة : « لقد وجدتها يا دريك .. ابعت بى في مكان الممرضة المرافقة التى اخترتها له ، ولن تخطر له شخصيتى ، ولو في المنام . فلقد انقضت ثلاث سنوات منذ سمع صوتى لأول مرة ، كما انه يعتقد اننى ما ازال في مصر ، إذ جاء في عهود الاجتماعيات - في كل الصحف - من أسابيع مضت ، اننى سأقضى الشتاء بين مصر وسوريا ، وأننى سأبقى

خارج الديار حتى شهر مايو ، وليس هناك من يعرف اننى قد عدت . ثم انك خير من يحكم على ما تلقيت من مران وتجارب فى التمريض ، وقد كان عملنا - أثناء الحرب - يتناول العقل والروح ، بقدر ما تناول الجراحة . وعلى أية حال ، فلأمر لا يتطلب كل هذا ! .. آواه يا ديكى ، ان يوسعك ان ترشحنى دون ما خوف ، وما أزال احتفظ بـزى الممرضات لوقت الحاجة ، واستطيع ان أتاهب فى أربع وعشرين ساعة ... وسأذهب إليه على اننى الممرضة « فلانة » .. ولو أدى بى الأمر إلى تناول طعملى فى المطبخ ! » .

فأجابها الطبيب فى هدوء : « ولكن يا بنيتى العزيزة ، ليس بوسعك ان تذهبي باسم الممرضة « فلانة » ، مع الأسف . ولن تستطيعي ان تذهبي إلا على انك الممرضة « روزمارى جراى » . إذ اننى اتفقت معها فى هذا الصباح ، وأرسلت بالبريد تقريراً مفصلاً واضحاً عنها للدكتور ماكينزى ، الذى سيطلب خطابى لمريضنا العزيز . وأنا لم أعتد ان أسحب حالة من ممرضة لأعطيها إلى أخرى ، إلا إذا ثبت عجزها او أخطأت فى أعمالها . وأيسر على الممرضة « روزمارى جراى » ان تطير فى الجو ، من ان تقوم بتقصير أو خطأ . ثم انها لن تضطر إلى ان تتناول طعمائها فى المطبخ ، إذ انها من اصل طبيب ، وسوف تعامل على هذا المستوى . وكفى يسعدنى حقاً لو تيسر لك ان تحلى محلها ، لولا ان شكاً يساورنى فى إمكانك القيام بهذا الدور والاستمرار فيه . كما ان لدى أمرا أريد ان أحدثك به .. لقد سألتنى « دالين » - قبل ان أتركه - عن أخبارك ، وقد تعدد أن يورد

اسمك بين الدوقة وفلاور ، ولكنه لم يقو على كبح الصرة التى كسدت وجنتيه النحيلتين ، وشدد قبضته على غطاء فراشه حتى يتمكن من السيطرة على صوته لينطلق عادياً ثابتاً . وقد استفسر عن مكان وجودك ، فأجبت به باننى أعتقد انك فى مصر ، فى حين اننى كنت أتوقع عودتك إلى الوطن . وذكرت له اننى سمعت بانك تعتزمين العودة إلى القدس لقضاء عيد الفصح ، وأنفرضت على هذا الأساس ان تعودى إلى الوطن فى نهاية شهر أبريل ، أو أوائل مايو .. ثم استفسر عن صحتك ، فأجبت بانك لست من المولعات بتحرير الخطابات ، ولكننى فهمت من البرقيات والبلاغات التى أرسلتها - من وقت لآخر - بانك فى خير حال « وانك تقضين وقتاً طيباً . ثم تطوعت بذكر اننى انا الذى دفعتك للسفر إلى الخارج ، لأنك كنت على شفا الاتيهار التام ، فبددت من يده حركة سريعة ، وكأنها أراد ان يصنعلى مقابل هذا التعبير . ثم قال : « على شفا الانهيار التام ؟ .. هى ! » فى لهجة طافحة بالازدراء لى والآرائى ، ثم سارع إلى توجيه أسئلة دقيقة عن « فلاور » . وكان قد استفسر عن الدوقة بكل الأسئلة التى كان يقصد توجيهها عنك . وبعد ان استوثق من أن « فلاور » مقيمة فى دارنا بلندن ، وأنها فى صحة جيدة ، وأبلغته ما حملتنى من ود وعطف ، رجائى أنلقى نظرة على الخطابات المكسدة - والتى ظلت مقفلة فى انتظار إبلاله ليقوى على الانصات لفجواها - وأن أخبره إذا عثرت بينها على خطاب بخط شخص اعرفه . يا للسكين « كأنها كان العالم بأسره قد كتب مجدياً عطفه . وذكرت له حوالى اثنى عشر اسبوعاً ، بينها خط فلور

من الأسرة المالكة . وهنا سألتني عما إذا كانت ثمة خطابات من الخارج، فإذا هناك خطابان أو ثلاثة، عرفت أصحابها فأخبرته باسمائهم . ولكنه لم يطق استماع أى منها .. حتى الخطاب الملكى ظل مغلقة ، وأن طلب أن يمسكه بيده ، وراح يتحسس التاج القرمزى الصغير . ثم سألتني عما إذا كان هناك أى خطاب من الدوقة . وكان ثمة خطاب منها ، فرغب في أن يسمعه ، ومن ثم فضضته وتلوثه عليه .. وكان مثالا لما هو معروف عن الدوقة ، بليتها بالمعطف الكريم ، النابع من القلب ، وإن صيغ في لباقة . وفي منتصف الخطاب جاء ما يأتى : « لسوف تستاء جين . وسأكتب لأخبرها ، بمجرد أن ترسل لى عنوانها، فليست أدرى في أى قطر من المعمورة توجد ابنة أختى العزيزة ، في الوقت الحاضر . وقد كانت تبدو — في آخر رسالة تلقيتها منها — أنها تسير قدما نحو الزواج من يابانى صغير الحجم ، والاستقرار في اليابان . وهى فكرة لا بأس بها ، ليست كذلك يا عزيزى دال ؟ .. وإن كنت لا أدرى كيف يتسنى العثور في بلاد الأتزام هذه على بيت ، أو زوج ، أو ذلك الشيء الذى يركبونه ، أو أى شيء من المائة بحيث يحتل عزيزتنا جين ، إذا كانت اليابان كلها على نسق جذرائها الورقية المعروغة ! » .. ولقد سارعت بالتجاوز عن تلاوة كل هذه الفقرات الخاصة بزواجك من اليابانى ، حتى إذا أنهيت قراءة خطاب الدوقة ، سألتني جازم في صراحة عما إذا كان هناك خطاب منك ، فأجيبته بالنفى ، وبأن من غير المحتمل أن الخبر قد بلغك ، إلا لسارعت — بمجرد وصوله إليك . ومن ثم غائى آمل أن تكتبى إليه

يا عزيزتى .. وسوف تصدر التعليمات إلى المرضة « روزمارى جراى » بأن تقرأ عليه الخطابات جميعا ! .. فأجابته جين بصوت متهدج : « أواه يا دريك ، لست احتل الانتظار .. يجب أن أذهب إليه ! » .. وهنا أنبعث جرس « التليفون » فوق مكتب الطبيب ، محدثا رنينا حادا طويلا ، فاسرع الطبيب وتناول المسماع : « آلو .. نعم أنا الدكتور براند ، من المختكم ؟ .. أهذه أنت يا سيدتى الرئيسة ؟ .. » .. وهنا بدأ على « جين » الأسف لأن الرئيسة لم تلمح الابتسامة الساحرة التى ارتسمت على وجه الطبيب ، بينما استطرد يقول : « نعم ؟ .. أى اسم تذكرين ؟ .. بلا شك . هذا الصباح نهائيا .. حالة هامة جدا . يجب أن تأتى وتقابلنى الليلة .. ماذا ؟ خطأ في السجل ؟ .. آه ، فهمت .. إلى أين ذهبت ؟ .. لست أسمع ، أفكرها حرفا حرفا .. استراليا أوه ، هذا مكان لا سبيل إلى استخدامهما منه .. آه ، لقد سمعت بانها تلقت أمرا بالذهاب إلى هناك .. لا بأس يا سيدتى الرئيسة ، لا سبيل إلى لومك أنت .. شكرا ، لا أظن ذلك .. لدى مرشحة أخرى .. نعم . نعم . لا شك في إمكانها القيام بذلك .. وسأخاطرك إذا كنت في حاجة إليها .. استودعك الله ، وأشكرك كثيرا ! » ..

وترك الطبيب بمسمع التليفون ، والتفت إلى جين — وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة بطيئة، يشوبها شيء من الشك — وقال : « جانيت ، أنتى لا تؤمن بالحظ .. غير أننى أؤمن بتدبيرات السماء ، التى تتم خططها أو تنسجها .. سندهبين إلى جارت ! » ..

الفصل السادس عشر

ما أن تبالكت جين عواطفها ٥ حتى قال لها الطبيب :
« والآن ، لنبحث الطرق والوسائل .. عليك ان تسافري
بقطار البريد الليلي من (ايستون) بعد باكر ، فهل تستطيعين
التأهب في هذا الميعاد ؟ » . نهفت قائلة : « اننى على تمام
الاهبة ، منذ الآن ! » .

— يجب ان تذهبي على أنك الممرضة « روزمارى جراى » !
وخالّت جين : « انا لا احب ذلك ، بل افضل اسما مستعاراً
.. فهب ان « روزمارى جراى » الحقيقية ظهرت ، او ظهر
من يعرفها » .. فرد الطبيب قائلاً : « انها الآن في منتصف
طريقها إلى استراليا — يا غنائى العزيزة — ولن تلتقى انت
هناك بأحد سوى خدام الدار ، والطبيب . على ان أى زائر
يغد على هناك قد يعرفك ، ولا بد لنا من ان نتأهب لمثل هذه
الأخطار . ومع ذلك فعند قيام بعض الصعاب ، تستطيعين
ان تقدمى رسالة — سآزودك بها — لايضاح الموقف ، وتبين
أنك راغبة في سد الثغرة التى تركها رحيل الممرضة « روزمارى
جراى » ، وقد قبلت رجائى بأن نتحلّى اسم الممرضة ، لتفادى
اية ايضاحات للبريخ ، قد يترتب عليها ضرر في هذه المرحلة
بالذات . وبوسعى ان اقرر هذا صادقاً ، فهذه هى الحقيقة .
ومن ثم فعليك ان نتحلّى هذه الشخصية يا جين ، وأن تبدلى
أقصى الجهد في أداء دورك ما استطعت . واسحى لى بأن

أفكرك بأننى قد وصفتك في خطابى للدكتور ماكينزى : جميلة ،
رقيقة ، دقيقة الحجم ، ظريفة ، مهذبة ، وأكثر مقدرة مما تبدى ! » .

— ولكن يا ديكى .. لسوف يتحقق — لأول وهلة — من
اننى لست الممرضة التى وصفتها له في خطابك ..

— ليس الامر بالدرجة التى تتصورين يا عزيزتى .. تذكرى
أننا نعمل مع رجل اسكتلندى ، وقد جبل الاسكتلندى على
الا يدرك الأمور « لأول وهلة » ، فان عقول « الكلت » —
اهل الشمال — بطيئة وإن كانت تسير بخطى وثيقة .. ولسوف
يوقن — عندما يتأملك برهة — من اننى قليل الدراية بوصف
النساء ، وبأن الممرضة جراى امرأة ابداع مما ذكرت في خطابى
.. ولكنه سيكون قد رسم لداكين صورة لك مستوحاة مما
جاء في رسالتى . وهذا هو المهم في الامر . وعلينا ان نلقى
اعتمادنا على العناية الالهية في ألا يسارع « روبى الكهمل »
— أقصد الدكتور ماكينزى — إلى محاولة تعديل الصورة التى
رسبها لمرضىه . فحاولى ان تصديه عن مثل هذا الحديث
.. وإذا لاح ان الطبيب في ريمه من أمرك « فانتحى به جانباً
واطلعيه على رسالتى ، وأخبريه بالحقيقة كاملة ، ولو اننى
أشك في ان الامر سيميل إلى هذا الحد . أما مع المريض ،
فعليك ان تتذكرى ما للأعمى من سمع مرهف للغاية .. فلتكن
خطواتك ناعمة خفيفة ، ولا تتيجى له فرصة ليحدث مبلغ
طولك . وتذكرى دائماً ان ما يعرفه عن طولك يجعل من المتوذر
عليك الوصول إلى رف الكتب — في عزلة طولها حتى إلى شامئى
أقدام — دون الاستعانة بسلم أو جريد . وتنبأ ببدء المريض

في النهوض والسير ، حاولي ألا تمكثيه من أن يفتسن إلى أن ممرضته أطول منه بقليل . ولن يكون ذلك بالأمر العسير . فان من الأفكار الراسخة في رأسه ، أن أية امرأة لن تمسه في مهاد . كما أن خادمه الخاص هو الذي سيقوده دائما . . ولست أتصور يا جين أن أى شخص وضع يده في يدك مرة يخطئ في التعرف عليها بعد ذلك ، ولهذا انصحك - من البداية - بأن تتجنبى مصافحته . على أن هذه الاحتياطات تكون إزاء العقبة الكبرى . . صوتك . فهل تظنين لحظة أنه لن يتعرف عليه . » .

فاجابته جين : « سأقبض على الثور من قرنيه ، في هذه الحال . . وعليك أن تسامدنى . فاشرح الأمر لى منذ الآن ، كما لو أنك كنت تخاطب الممرضة « روزمارى جراى » حقا . وكما لو أنها كانت قد أوتيت صوتا يشبه صوتى ! » وابتمس الطبيب قائلا : « يا عزيزتى الممرضة روزمارى . . لا يدهشك البتة أن يلاحظ مريضنا شجها كبيرا بين صوتك وصوت صديقة لى وله ، فقد لمست بنفسى هذا التشابه الشديد ! » . وقالت جين تمثل دورها : « أحقا يا سيدى ؟ . . وهل لى أن أعرف الشخص الذى يشابه صوته صوتى إلى هذا الحد . » .

وأجاب الطبيب بالابتسامة العذبة التى اعتاد أن يتحدث بها إلى ممرضاته : « انها النبيلة جين شامبيون . . هل تمرغينها . » . فاجابته جين : « قليلا ، وكما أأمل أن ازداد معرفة بها على مر السنين ! » . . وضحكا معا ، ثم قالت جين :

« أشكرك يا ديكى . اننى أعلم الآن كيف أحدث مريضى . . » . « ولكن أى شقاء هذا ! . . كيف أقوى على أن اخذع جارث بهذه الصورة ؟ . . جارث صاحب البصيرة الحادة الثاقبة ، التى تلمح كل شيء ! . . هل سأجد من الشجاعة ما يمكننى من الاستمرار في ذلك ؟ » . فرد الطبيب قائلا : « إذا كنت تقدرين قيمة السعادة الدائمة لك وله ، فما من شك في أنك فاعلة ، يا عزيزتى . أما الآن فسأمر بالعربة لتقلك سريعا إلى ميدان (بورتلاند) ، والا تأخرت عن موعد العشاء ، وهو أمر تستطيع الدوقة أن تغفره . - كما هو معروف - ولو بالنسبة لمسافر ماد ثوا من سباحة طويلة حول العالم . وإذا أخذت بنصيحتي ، فعليك ألا تطلعى ممتلك الكريمة « العاقلة » ، على جليلة الأمر - على أن تحذرن من القصة البيانات المتعلقة بضوء القمر - واستشيريهما في خطتنا هذه . فان رأيها الأريب ، أئمن من أن يقدر ، وستسرين - فيما بعد - بمعونتها ! » .



ونهما ، فوقفنا متواجهين على بساط المدفأة ، ثم قالت جين ، وقد جاشت عواطفنا : « بديع جدا . . لقد كنت كريما وصديق الود ، يا فتاى » وسأظل لك شاكرا « مها يحدث ! » . فاجابها الطبيب : « مه ! . . لا داعى إلى الشكر ، فاننى قد سددت ديننا طال أجله . ولن أجسد غدا دقيقة واحدة من الفراغ . وأخشى أن يكون الأمر كذلك بعد باكر . . ولكن يمكننا أن نتناول طعام العشاء معا بمحطة (أبستون) في الساعة السابعة مساء ، ثم أودعك عند سفرك ، فان تطارك يتحرك في

الساعة الثالثة ، ويصل إلى محطة (أبردن) بعد الساعة السابعة من الصباح التالي . ومن هنا ستقلك العربية توا إلى جلينيش « غتلقينه في موعد الفطور . ولسوف تسرين بالوصول في ضياء الصباح الباكر ، فيعاتتك هواء البحيرات ، ويبعث فيك شعورا بديها .

« أشكرك يا ستوارت ، دع العربية تنتظر ، فان الانسة شامبيون متأهبة !.. اهلا يا غلاور !.. انظري إلى غوق يا جين ، ان غلاور وديكى وبلوسوم يطلون من فوق حاجز السلم ، ويبحثون إليك بغضب من القيات . . أجل ، ان النهر الذي ذكرته يخلق « جنة » حقيقية ، فلينعم الله عليك بمثلها . والآن ، اجلسي وأسدلي النقال على وجهك . . آه « تذكرت انك لا تضعين نقابا ، لمالك من عاقلة !.. لو اقتدت بك كل النساء لحمل الفقر على أطباء العيون . . لماذا ؟.. لانك تركزين بصرك على الأهداف . . ولكن ، اضطجعي في مقعدك إذ يجب الا يراك أحد « إذا شئت ان يعتقد الناس انك ما زلت في القاهرة « ترتقبين استئناف رحلتك إلى أعالي النيل . . ثم ادخل الطبيب رأسه خلال نافذة العربية ، وقال لها : « تفكري الا تأخذي سوى متاع خفيف ، من النسوع البسيط الذي تسميه المرضات : « صندوقي » ، وضعي عليه حرقى « ر . ج » بوضوح ! » .

فهمت جين قائلة : « أشكرك يا صديقي ، فانت تفكر في كل شيء ، .. فأجابه الطبيب : « اننى أفكر فيك » .. وقدر لجين ان تحس براحة فائقة - في خلال الأيام العصيبة التي تلت ذلك - كلما ذكرت هذه الكلمات الأخيرة ، الهائلة !

الفصل السابع عشر

وصلت الممرضة « روزمارى جراى » إلى قصر جلينيش فيما أن هبطت و « صندوقها » على رصيف المحطة الفرعية الصغيرة ، حتى شعرت كما لو أنها قد هبطت من السحاب ، مخلفة عالمها وشخصيتها « في أحد الكواكب الممعة في البعد . . ووجدت سيارة في انتظارها - خارج المحطة - فخالجها الخوف لحظة من أن تلقى من السائق تحية تتم عن أنه عرفها . ولكنه ظل جامدا صارما كأنه قطعة من قطع السيارة ، فلم يعمرها من الاهتمام أكثر مما أمار متاعها . فقد كانت هي « الممرضة » ، وكان متاعها « الصندوق » .. أسنان من الاسماء العامة . . ومسميان عليه أن ينقلها إلى (جلينيش) طبقا للأوامر التي صدرت إليه . . وعلى هذا ظل يحرق إلى الأمام « وقد بدا المنظر الجانبى لوجهه - تحت حافة قلنسوته - أشبه بأبى الهول ، بينما كان الحمال الواجم يسامد « جين » ومتاعها على الاستقرار في السيارة . وعندما منحت الحمال ثلاثة بنسات - حرصا على الظهور بما يلائم متاعها - حرك السائق قدمه وبده في نقة صائقة ، وكأنه آلة من الآلات « فاندفعت بها السيارة إلى خارج البلدة ، وانطلقت في الطريق المؤدى إلى التلال .

وأخذت السيارة تتسلق الصخور الرمادية والأعشاب البرية العبية ، وقطعت أميالا من أرض « كان ترى فيها سوى العرك » والسما ، والعزلة « مما زاد من « حيرة » بانها قد

هبطت من عالم إلى آخر .. كما أن اتفه المصادفات كاختفاء التحية الحافلة بالاحترام ، المألوفة من خادم كسائق السيارة — بعثت في نفسها اطمئنانا إلى النجاح والأمان في دورها الجديد .. وكانت قد سمعت الكثير عن قصر « جارت » القديم في اسكتلندا ، وهو ميراث انحدر إليه من أسرة امه .. غير أنها لم تتوقع يوما مثل هذه المناظر الطبيعية الرائعة والفخابة التي اتسمت بها قواصر القصر وأقواسه ومداخله وعندما انحصرت السيارة في أعلى السطح ، ولاحت أبراج القصر الرمادية ، وغابات الصنوبر الممتدة خلفه ، خيل لجين أنها تسمع صوت جارت الغنى حين كانتا تحت شجرة الأرز في (أوفردين) وهو يقول لها في لهجة مرحة طروب : « كم أود أن تشاهدي قصر (جلينبير) ! فسوف يروق لك المنظر الذي تطل عليه الشرفة ، وغابات الصنوبر ، وبرك المياه » .. ثم لقد أعلن — بعد ذلك — ضاحكا عن رغبته في إقامة « حفلة ممتازة » ، تتولى الدوقة رعايتها ، وقد وعدته جين بالاشتراك فيها .. وها هو ذا الآن صاحب القصر البديع طريح الفراش ، أعشى ، لا حول له ولا قوة ، بينما تلج هي خلال الأبواب الخارجية الفخمة لقصر (جلينبير) ، في شخصية لا يعرفها هو ، ولا يتعرف عليها أحد ، منتحلة صفة ممرضة وسكرتيرة . كانت جين قد قالت له في (أوفردين) : « أجل ، أدعنا وسترى ما يحدث ! » - وهذا هو ما حدث الآن ، فما الذي سيحدث بعد ذلك ؟

وأمام عتبة القصر كان « سمسون » — مندوب جارت — في انتظارها « فاحسنت بانها — للمرة الثانية — قد اجتازت

بسلام خطرا كانت تخشاه ، إذ أن سمسون كان قد التحق بخدمة « جارت » في خلال السنوات الثلاث الأخيرة ، ومن ثم فانه لم يعرف حقيقة شخصيتها حين رآها .. وأخذت « جين » تجيل نظرها في البهو القديم ، في ذلك القراخى المألوف من اعتادت أن تنزل للمرة الأولى ضيفة على دور اصطفاؤها في الريف . ملاحظة الدفء الكبيرة العجيبة ، وقرون الوعل المعلقة وظلالها ممتدة إلى أعلى الجدران . ثم عادت إلى نفسها ، وفطنت إلى أن « سمسون » — الذي كان قد صعد نصف درجات السلم العريض المصنوع من خشب البلوط — وقف في انتظار أن تسرع الممرضة وراءه ، ففعلت « و إذا بها تجد في انتظارها — في أعلى السلم — العجوز مارجرى ..

ومرغتها جين لأول وهلة ، وما كانت في حاجة إلى أن ترى النديل ، والرولة الحريرية السوداء ، وأشرطة الخزاي ، حتى تدرك أنها مربية « جارت » الاسكتلندية العجوز ، ومديرة داره وصديقه .. إذ كانت نظرة واحدة على الوجه الوردى الحنون ، الرصين ، المفضن — وهي مجموعة جميلة من الظاهر التي تنم عن الصحة وتقدم العمر — كافية لكي تعرفها جين . وما كانت لتخطيء العينين الحادثتين اللتين تفتقران المحجب وتنفذان إلى الأعماق .. وقادت العجوز جين إلى الحجرة التي أعدت لها ، وهي تتكلم طيلة الوقت « في محاولة رقيقة لتسرية الارتباك عنها » وللتعبير عن ترحيبها الحار بمقدمها ، في وقار لطيف ، دون أن تنسى سحابة الكبد التي كانت تخيم على القصر ، والتي أوجبت حضور « جين » ، كانت تناديها بالممرضة

« جرائ » في آخر كل عبارة من حديثها ، ولكنها استكتندية تلوك وتدير حرف « الراء » ، مما فتن جين ، فناقت إلى أن تقول . « يا لك من عجوز عزيزة ! كم أنا سعيدة وساشعر بمتعة الإقامة في هذه الدار معك ! » . ولكنها تذكرت أن أية إشارة تدل على رفع الكلفة ، قد تقبل من النبيلة « جين شهابيون » ولكنها تعد من الممرضة « روزماري » نقصا في الذوق وعدم مراعاة للأصول . ولذا تبعتها - في انصياح - إلى الحجرة البديعة التي أعدت لها . وأعجبت بالستائر الملونة ، وأجابت عن الأسئلة التي وجهت إليها عن رحلتها الليلية ، وأقرت بأنها تسر إذا استطاعت تناول افطارها ، وتسر أكثر لو استطاعت أن تحظى بحمام ممتع ! .. حتى إذا اتبت الحمام والفطور ، وقفت بجانب نافذة حجرتها تتبلى بدائع الطبيعة ، في انتظار وصول طبيب القرية « ليدعوها إلى حجرة جارت ..



وكانت قد ارتدت أحسن ما لديها من ملابس الممرضات : ثوبا أزرق ، وياقه وكمين من النيل ، ومرولة بيضاء ذات شريطين فوق الكتفين وجبين واسعين .. كما وضعت فوق رأسها ثلثسوة مناسبة ، كانت قد حصلت عليها من أحد المعاهد التي تدرب فيها . ولم تكن تعتزم أن تستمر في ارتدائها فيما بعد ، ولكنها - في ذلك الصباح بالذات - لم تغفل صغيرة ولا كبيرة مما يبعث أثرا طيبا في نفس الدكتور ماكينزى عن مظهرها المهني الكامل . واستشعرت واجفة بأن ملابسها

المتناهي في البساطة - أنها كان يساعد على اظهار طولها ، بالرغم من حداثيتها ذوى الكميين القصيرين والتعلين المطاطين اللذين لا يسمح لهما وقع .

ولم يسمح سوى أن تأمل أن يصح رأى دريك فيما سيكون من مسلك الدكتور ماكينزى معها !

ولاحت لها عن بعد كبير - وعلى شريط الطريق الأبيض الذي كان يصعد متعرجا من الوادي - مركبة خفيفة مرتفعة « دوكر » ، تقب بسرعة ، وكان بها رجل جلس خلفه سائس ، فايقنت من أن الساعة قد أظفت .. وجفت على ركبتها - أمام النافذة - وراحت تدعو الله أن يهبها القوة والحكمة والشجاعة . ولم تعد تتبين شيئا البتة ، فقد أجهدت عقلها في التفكير الطويل المضنى المستمر ، حتى تحولت كل الرؤى العقلية إلى مناظر مهتزة مطبوسة .. وخبت في مخيلتها كل المعالم ، حتى وجه جارت الحبيب ، مع ما بذلت من جهد جنوني لتستحضره على لوحة عقلها .. ولم يبق جليا واضحا أمامها سوى الواقع الذي كان أمامها ، وهو أنها لن تلبث - بعد دقائق معدودة - أن تغاد إلى الحجرة التي يرقد فيها غناها « فترى الوجه الذي لم تره منذ أن كانا واقفين على عتبة الهيكل .. ذلك الوجه الذي غاضت منه - رويدا - الثقة المغتبطة ، ليحل محلها جزع ، وقنوط بارد .. وتذكرت إذ ذاك الدعاء الحبيب : « وامسح بالزيت وجوهنا الملوثة وأنرها بعظمة مجدك ! ..

أنها لن تلبث أن ترى ذلك الوجه العتيق

وجهها - إذ فقد بصره - وإنما سيهل التفرير به فيمتد
بأنها شخص آخر !

ودارت المركبة مع آخر انحناء في الطريق ■ ثم اختلى عن
بصرها في طريقه إلى مدخل القصر . . واذ ذاك نهضت «جين» ،
ووقفت في الانتظار وقد زكرت فجأة جملتين من حديثها مع دريك
إذ قالت له : ■ هل سيكون لدى الشجاعة الكافية للقيام
بذلك ■ . فأجابها دريك في لهفة : « إذا كنت تقدرين جيداً
سعادته وسعادتك ، فيجب أن تتذرعى بالشجاعة ! » .

وسمعت طريقة على الباب ، فتقدمت إليه وفتحت ، وإذا
بسمسون واقفاً عند المدخل ليقول : « ان الدكتور ماكينزى في
المكتبة أيتها الممرضة ، ويود أن يراك ■ . فأجابته الممرضة
روزمارى جراى : ■ إذن ، فتركهم وارشدنى إلى المكتبة
يا سيد سمسون ! » .

الفصل الثامن عشر

فوق سجادة من جلد السدب ، وقف الدكتور روبرت
ماكينزى وظهره متجه إلى نار المدفأة ، وكان يعرف بين
أصدقائه باسم الدكتور « روب » أو « روبى الكهل » ، فيما
لدرجة الود والالفة . وكان أول ما انطبع في ذهن « جين »
من صورته شكل رجل قصير القامة ، ضخم الجسم ، يرتدى
صدرية من جلد كلب البحر - أكل الزمان عليها وشرب -
ومعطفاً خفيفاً فضفاضاً . . رجل له حركات نابوليونية ■
وساقان نحيلتان طويلتان منفرجتان ، وذراعان معقودتان على
صدره ، وكتفان معقودتان إلى أعلى ، تقضيان بالناظر إلى أن
يتوقع أن يصعد بصره إلى وجه عاجى اللون ، وأنف رومانى ،
وفك ينم عن جلد ، وشفتين رقيقتين مضبوطتين في حزم
وقوة . ولكن عيني « جين » شهدتا - بدلاً من كل ذلك - وجهاً
أحمر قد زركشمه النمش ، وأنفاً اقنى معقوفاً إلى أعلى ،
وذقناً أحمر مكثزاً ، وشاربين بلون الرمال ، متدليين إلى
أسفل . ولم يكن بين قسَمات وجهه ما يجذب النظر سوى
عينين حادتين زرقاوين ■ إذا حدقتا متفرستين في شخص ،
أوشكتا أن تختفيا تحت أدغال حاجبين من شعر أحمر ، فلا
يبقى منهما سوى نقطتين صغيرتين من نور عيروزى .

ولم يعض على جين في محضره إلا دقيقتان ، حتى أيقنت
بأنه لا يعود يشعر بجسده إذا ما شغل عقله ، مما يدفع بالجسم
إلى حركات لا إرادية عجيبة ، جعلت أصدقائه يتحدرون

ثائلين : « أن روبي يمشي عددا كبيرا من أقلام الكتابة ، بينما يفكر الدكتور ماكينزي في أنجع الوصفات لعلاج مرضاه ! » .. وكانت عيناها منصرفتتين — عند دخول « جين » — إلى خطاب منشور امامه — ادركت لتوها أنه خطاب دريك — غلم ينظر اليها فوراً .. حتى إذا التفت أخيراً « لمحت — بما لا يقبل الشك — دهشة هزته . وفتح فيه ليتكلم » فلم تمالك جين أن تذكرت شكل إحدى أسماك الزيتة في (أوفردين) ، عندما كانت تصعد إلى سطح الماء كلها ألقت اليها الدوقة بغضات الخبز ! .. ثم أطبق فيه ثانية ، وعاد إلى تلاوة خطاب دريك ، وإذ ذاك شعرت « جين » كما لو أنها كانت لقمة — بل جهلا — يعانى الطبيب الامرين لأزدراده !

وانتظرت في صمت واحترام « بينما كانت كلمات دريك نور بذهنها الموجس الحائر ، متهديء من ثائرتها : « أن المعتل الاسكتلندي يعمل وثيذا ، ولكن خطواته أكيدة . ولسوف يوقن الدكتور ماكينزي من اننى لا أجيد وصف النساء » .. وأخيراً ، التفت اليها الرجل القصير ، وهو واقف على بساط المدفأة ، وعاد يحدق في « جين » . ووا أسفاه ! .. لكم كان مضطرا إلى أن يرفع عينيه عالياً ، لطولها ! .. ثم قال : « المرضة .. ؟ » .. وبدا متسانلاً « بينما خطر لجين أن عينيه الغامضتين كانتا أشبه بشظايا من الخبز الأزرق المشتم ، على كوم من الدريس .. وبادرت قائلة في استخفاء واحترام : « روزماري جرائ » .. وخيل إليها أن الدوقة كانت خليقة بأن تطرق الأرض بمصاها — لو أنها كانا يقومان بتجربة تمليحة اللحم في (أوفردين) .. وأن تستحثهما على أن يسرعا في الكلام



وقف الدكتور (روبرت ماكينزي) وظهروه متجه إلى نار المدفأة ..

وقال الدكتور روبرت ماكينزى : « آه ، غيمت ! » .. ثم حدق في جانب من البساط ، في ركن قصى من الحجرة .. وما لبث أن سار إلى ذلك الركن ، والتقط قشة من مكنسة وجاء بها إلى موقفه أمام المدفأة ، فآخذ يفحصها بدقة وعناية ، ثم وضع جزءا منها بين أسنانه « وراح يقضمها .. وسألت جين نفسها عما ينبغي أن تفعله إزاء اجتماع كهذا ، وإزاء طبيب لا يجلس ولا يدعو الممرضة إلى أن تجلس .. وتمتد لو أنها كانت قد اهتمت برأى دريك في ذلك الأمر ، ولكنه ما كان يملك أن يشير عليها برأى ، لأنه اعتاد أن يكون أول ما يفعل مع أية ممرضة « هو أن يقول : « يا عزيزتى الممرضة فلانة .. تفضلى بالجلوس ، فإن من كان عملهم يستلزم منهم الوقوف » يجب أن ينتهزوا كل الفرص للجلوس والراحة ! » .

غير أن الرجل البدين القصير - الواقف على بساط المدفأة - لم يكن دريك ، ولذا ظلت « جين » واقفة بانتباه « ونظرها متجه إلى القشة وهى تهتز وتتكسر وينقص طولها بوضعة نبوذة ، حتى إذا تلاشت ، عاد الطبيب إلى الحديث ، قائلا : « إذن فقد جئت ، أيتها الممرضة جراى ؟! » .. فقالت جين لنفسها : « إن عقل الاسكتلندى يعمل وثيدا ، حقا ! » .. ولكن سرها أن اشتبت من لهجته أنه رضى عنها .. لقد صدق دريك ! .. قد ارتاحت « جين » لأنها لن تضطر إلى مكاشفة هذا الرجل الصامت بأمر الخدعة التى ستمارس مع جارث .. ثم أجابته : « نعم يا سيدى ، لقد وصلت » . وأعقب ذلك صمت آخر ، ظهرت خلاله قطعة أخرى من قش المكنسة ثم

اختفت ، قبل أن يعود الدكتور ماكينزى إلى الكلام قائلا : « اننى مسرور لو صولك يا ممرضة جراى ! » . فاجابته جين برصانة : « وأنا مسرورة لأننى قد وصلت يا سيدى » .. وخيل لها بأنها ستسمع صوت الدوقة وهى تصيح مازحة : « ها .. ها ! » من جانب المسرح ، لأن التمثيلية الهزلية كانت تسير بنجاح !



وفجأة ، غطنت إلى أن عقل الدكتور ماكينزى قد انصرف - في الدقائق الأخيرة - إلى شيء آخر ، وكأنها لم تكن كافية لأن تملأ تفكيره .. وفى اللحظة التالية ، تحول إليها ، فإذا بحدقتين من الفيروز تومضان تحت حاجبين كثيفين « وتستعرضانها بسرعة وتالق الأنوار الكاشفة .. ثم بدأ الدكتور ماكينزى يتكلم بسرعة مدهشة ، وهو يلوك حرف الرء ويديره على لسانه : « أهم يا آنسة جراى أنك قادمة لتعالجى عقل المريض قبل جسمه ، ولست بحاجة إلى أى إيضاح ، فقد تلقيت الإيضاح من السيد « دريك براند » ، الذى أوحى بممرضة لللازمة المريض ، وتعاهد بك .. ولقد وافقت تمام الموافقة على توصيته ، واسمح لى بأن أقول بأننى شديد الإعجاب بجوهرها ! » .

وأومات جين برأسها ، وهى تصور لنفسها ما كان خنيقا بن يتتاب الدوقة من توقه .. ياله من شخص لا يطاق ! .. لقد وجدت جين فرصة كى تفكر في ذلك ، بينما سار الطبيب إلى غطاء المائدة وانحنى فوقه فاحضها بفتة غريبة من الخبر .

وجد بجوارها بقعة من شحم الشمع ، أزالها بأظافر إيمانه ، وحملها بعناية إلى المدفأة « فالتقى بها فوق الفحم المحترق .. وأخذ يلاحظها باهتمام بالغ ، وهي تذب ، ثم تشتعل وتتوهج . وعلى حين غرة ، قفز إلى حيث وقفت جين ، وغاجها وهي ترتقبه مخيفة ، وأختمت حديثه قائلاً بهدوء : « ومن ثم فاعتقد أنه لم يبق لي ما يقال عن العلاج سوى القليل ، يا آنسة جراي . فلا بد أنك تلقيت تعليقات دقيقة من السير دريك شخصياً . أن أهم ما علينا الآن هو أن نساعد المريض على أن يهتم بما حوله من دنيا ، فإن أعظم أغراء يخشى منه على من يفقدون البصر فجأة ، هو أن يعتادوا أن يعيشوا بكل كياناتهم في عالم خاص .. عالم من الذكريات ، والتكهنات ، والتصورات الوهمية .. العالم الوحيد الذي يستطيعون أن يروه ، في الواقع ! » .

فهدرت من جين حركة تقدير واهتمام ، إذ وجدت أخيراً ما يمكنها أن تتعلمه وثمينه من هذا الإسكتلندي القصير ، العجيب الأطوار .. بدلاً من أن يوجه اهتمامه إلى جبع الفضائل عن البساطة ، ومحو بقع الشحم عن مفروش المائدة . فقال له : نعم .. أرجو أن تزيدني معرفة ! « - فاستقر الدكتور ماكينزي قائلاً : هذه هي مشكلتنا الحالية مع السيد دالمين ، إذ لا يبدو أن ثمة احتمالاً أن تثير اهتمامه بالعالم المحيط به . فهو يرفض مقابلة الزائرين « ولا يريد أن تتلى عليه خطباته ، إن الساعات لتضى دون أن ينبس بكلمة واحدة .. وما لم تسمعيه يقول شيئاً لي أو لتابعه ، فلا بد أن تحسبي أنك رزئت ببريض فقد القدرة على النطق « كما فقد نعمة البصر .. فإذا أبدى

رغبة في أن يكلمني على أفراد ، عندما تكون معه ، فلا تبارحي الحجرة بل انتقلي إلى جوار المدفأة ، وابتقي هناك ، لأنني أريد أن تسمعي الحديث ، حتى إذا أراد أن ينهض ويبدل أي جهده كانت لديه القدرة التامة على ذلك . فإن أهم ناحية من واجبك يا ممرضة جراي « هي معاونته يوماً بعد يوم على استئناف الحياة .. صحيح أنها حياة رجل فقد بصره ، ولكن ثمة ما يدعو إلى أن تكون حياة بلا حركة . والآن وقد انتهى كل خطر من حدوث التهابات في الجروح ، فله أن ينهض من فراشه ، وأن يتحرك ، وأن يتعلم كيف يهتدى إلى طريقه بالصوت والنفس .. لقد كان فنانياً في مهنته ، ولن يرسم بعد الآن قط ، ولكن هناك مواهب أخرى قد تخلق لفطرتك الفنانة منافذ مقبولة » .

ثم توقفت فجأة ، وقد لمع بقعة أخرى من الشحم ، فمسار إلى المائدة ، ولكنه قفز ملتفتاً إلى جين - في اللحظة التالية - سرعة البرق ، وتساءل : « أتمكن يجيد العزف ؟ » . ولكن جين كانت قد أخذت حذرهما من أية مباغتة ، ولو كانت عارضة ، فقالت : « أن السير دريك لم يذكر لي يا دكتور ماكينزي ما إذا كان السيد دالمين مولعاً بالموسيقى أو لم يكن » . فاستأنف الطبيب الضئيل الجسم حركاته النابوليونية ، وقد وقف في منتصف سجادة المدفأة ، وقال : « حسناً ، فلتكن مهمتك أن تتبين ذلك .. وبهذه المناسبة أيتها الممرضة ، هل تجددين العزف ؟ » . فقالت جين : « قليلاً » .. فقال الدكتور روب : « آه ، وهل تستطيع أن نقول بأنك تفنين قليلاً ؟ » . فأومأت إيجاباً .

— في هذه الحال يا سيدتي العزيزة ، أترك لك أوامر ومرحبة
بالا تغنى قليلا ، ولا تعزفي قليلا للسيد دالمين .. فلاننا نحن
المبصرين لا نكاد نطيق ما يعرضه علينا « الذين يجيدون العزف
قليلا » من عزفهم . وما يعيننا على الاحتمال إلا أننا نستطيع
أن نتلفت حولنا ، وأن نفكر في أمور أخرى .. أما الأعمى الذي
يملك روحاً غنية مرهقة ، فإن هذه التجربة قد تنتهى به إلى
الجنون . فيجب الانجاز .. واني لشديد الأسف للظهوري
بهذا المظهر الجاف « غير أن صالح المريض يجب أن يكون مقدما
على كل اعتبار آخر .

وأتسمت جين ، وقد بدأت تشعر ببيل إلى الدكتور روب ،
وقالت : « سأكون شديدة الحرص على تنفيذ ذلك . فلن
اعزف ولن أغنى للسيد دالمين ! » . فقال الدكتور ماكينزى :
« والآن ، لأبين لك ما يحق لك بالتاكيد أن تفعله تدريجا ..
قوديه إلى البيانو ، واجلسه هناك على مقعد يشمر فيه بأمان
وطمأنينة « وليس من مقاعد المعارف الصغيرة المتارجحة .
وضعى علامة على المفاتيح التي يستطيع أن يوقع بها طبقة
« دو » الوسطى ، ثم دعيه يفرج عن روحه الحبيسة ، ويرسم
صورا بالصوت . ولسوف ترين أن هذا سرعان ما سيسعده
لساعات طويلة .. وإذا كان موسيقيا بارعا ، كما يتبين من هذا
البيانو الكبير ، فإنه سيبدأ هذه الهواية لقوره « قبل أن يضطر
إلى أن يحل هم تعلم طريقة «برايل» أو غيرها من أساليب
تعليم العميان .. ولكن عليك أن تستبطي طريقة سهلة لإرشاده
.. حفرة صغيرة في الإطار الخشبي الذي يقع تحت المفاتيح .

يمكن بها من العزف مباشرة — دون تردد أو مضايقة — على
طريقة « دو » الوسطى .. ولا داعى — بعد ذلك — لبقاى
النغمات ، فهذا غاية ما سيتطلبه من إصبار ، إذا ما جلس إلى
البيانو ! .. ها ، ها ، ها ! هذا درس لا بأس به من اسكتلندي ..
اليس كذلك يا ممرضة جراى ؟ » .

لم تقو جين على الضحك ، وأن خيل إليها — على هائش
ذهنها — انها تسمع ضحكات وتصفيقا من « الدوقة » .. فما
كان الأمر دعابة بالنسبة لجين ، إذ تصورت « جيارث »
الحبيب الأعمى « جالسا إلى البيانو ، ورأسه الغالى الجميل
منحن على مفاتيح البيانو ، وأصابه تحسس باحث عن تلك
الحفرة الصغيرة التى ستحدثها له تحت « دو » الوسطى ..
واشمازت من ذلك الفرد الذى يتفكه بعمى جيارث .. ورن
على هامش ذهنها صوت « تومى » — البهلاء — وهو يلاحق
الدوقة مصفقا بجناحيه ، متراقصا فوق أرجوحته ، صارخا ،
« أركله بعيدا ! أقفل فيه ! » .

وعلى غرة ، قال لها الدكتور ماكينزى : « اما ما يتلو ذلك
اهمية — يا ممرضة جراى — فهو أن أقدمك إلى المريض ! » .
وعقد ذلك أحسنت « جين » بالدم ينضب تدريجا من وجهها ،
ليجتمع في قلبها محدثا وجيبا عفيفا . ولكنها تماكنت جاثما ،
وانتظرت في صمت . بينما دق الدكتور ماكينزى الجرس ،
حتى إذا حضر « سمسون » ، قال له : « أحضر قنينة من
« الشيرى » ، وقدحا ، وقطعتين من السكوت ! » . فأسرع
سمسون ليلبى طلبه ، بينما قالت جين في نفسها : « يا له من

حيوان صغير ! .. ألم تتذكر هذا إلا في الساعة الحادية عشرة ؟ » .

ووقف الدكتور « روب » في انتظار عودة سمسون ، وهو يشد شاربيه الأيمن ويقضمهما - في غيظ - وهو يسدد النظر خلال النافذة ، إلى الخارج . وما لبث أن عاد سمسون فوضع صحيفة على المائدة « ثم خرج في هدوء ، وأغلق الباب خلفه . فعلا الدكتور « روب » القدح بالشيرى ، وسحب مقعدا إلى جوار المنضدة ، قائلا : « والآن أيتها الممرضة ، اجلسي واشربى هذه الكاس ، وتناولى معها قطعة من البسكويت ! » . فقالت جين معذرة : « ولكننى - في الواقع - يا دكتور .. » فاجابها الدكتور روب : « لا شك عندى أنك .. لا سيما في الساعة الحادية عشرة صباحا . ولكنك ستفعلين ذلك اليوم ، فلا تضيعى الوقت في الجدل .. لقد قضيت في السفر ليلة طويلة ، وستصعدين الآن إلى الطابق الأعلى لتشهدى منظرنا من اقصى المناظر على الاعصاب والحواس .

وقد قضيت معى وقتا طويلا في حديث برهق ، تحديق السماء لانتهائه . ولكنك ستحمدينها في حرارة اشد ، حين تشربين قدح الشيرى ، فقد مضى عليك ثلاث وعشرون دقيقة ونصف الدقيقة وأنت واقفة أمامى ، إذ أن من عادتى أن أتكلم

واقفا ، وأفضل دائما أن يظل السامعون وقوفا ، ولا يستطيع أن يحدث الناس وهم يضطجعون حولى . على أنك ستصعدين في خطى أكثر ثباتا - أيتها الممرضة روزمارى جراى - إذا جلست إلى هذه المنضدة خمس دقائق ! » .

واطاعت جين ، متأثرة ، وهى في حُجل من نفسها ، فقد اكتشفت أخيرا أن تحت هذه الصدرية العتيقة - المصنوعة من جلد كلب البحر - قلبا رقيقا مدركا للأمور ، وذكاء وتفهما للناس ، برغم المظهر المثير للاعصاب ، الداعى للاستعجاب . وبينما كانت تشرب « الشيرى » وتاكل البسكويت ، عكف الدكتور « روب » على عملية جديدة - في الناحية الأخرى من الحجرة - هى تلميع زجاج النافذة بمنديله الحريري ، وهو يغمغم طول الوقت بصوت قريب يشسبه طنين النحلة فوق الزجاج . وبدا كما لو كان قد نسى وجودها . ولكنها لم تكد تضع القدح على المنضدة ، حتى استدار لها ، واجتاز الحجرة حتى وصل إليها ، ووضع يده فوق كتفها قائلا : « والآن أيتها الممرضة ، انبعينى إلى فوق .. وأحرصى - في البداية - على أن تكونى قليلة الكلام قدر المستطاع . وأذكرى أن كل صوت جديد يتسلل إلى الاعناق الساكنة في ذلك الظلام الدامس . يسبب للمريض عذابا من جراء الإثارة والاضطراب . انتهى ظيلا ، واخفضى صوتك .. والله القدر الذى يجرى في قلبى » .

وقد بدا على الرجل - ذى القوائم الضئيل العجيب - اعتزاز بمعرفته وقوته ، وهو يتقدم « جين » صاعدا درجات السلم . وبينما كانت تتبعه ، أيقنت تهايا من أن روحها تسقط إلى روحه ، وأحست بقوة ترفعها وتعينها . ومع أن الجيلة التى اختتم بها حديثه كانت من التعبيرات القديمة ، إلا أنها - كدعاء - انعمت نفسها .. « والله القدير يهلك حصافة وحكمة ! » .. هكذا قال ، وهو لا يدرك مدى حاجتها الشديدة إلى هذه الكلمات ! .. ورن فى مسمعها - فى تلك اللحظة - صوت آخر ، تردد بين سراديب الذاكرة مع نغم الأرق ، فخفض عنها اضطرابها : « وحيث تكون مرشدنا .. فلن يكون ثمة مرض » ! .. وبخطى ثابتة - ولكنها غير مسموعة الوقع - سارت جين خلف الدكتور ماكينزى إلى الحجرة التى كان يرقد فيها جارث . « أعسى ، مشوها ، لا حول له ولا قوة ! »

الفصل التاسع عشر

رأس أسود الشعر ، فوق الوسادة ! .. هذا كل ما رآته جين - فى بادئ الأمر - تحت ضوء الشمس الساطع . . . والسبب ما كانت جين تتوقع أن ترى المريض فى حجرة مظلمة ، مغلقة النوافذ . وفاتها أن الظلمة والضياء كانا سواء لدى المريض المسكين فلم تكن ثمة حاجة إلى حجب نور الشمس عن عينيه بما فيه من شفاء ، وتطهير ، وتقوية . وكان قد طلب نقل سريريه إلى ركن من الحجرة بعيد عن الباب والمدفأة والتوافذ . . . ويلاصق جانبه الأيسر الجدار ، حتى يسهل عليه أن يتلمس الحائط بيده ، وأن يلوذ به ، ويطنئن إلى أنه بمنأى عن الأعين المتطفلة التى لم يكن يراها ! .. وعلى هذا الوضيم كان راقدا . فلم يلتفت نحو جين والدكتور ماكينزى حين دخلا .

لا شئ سوى الرأس الأسود العزیز ، فوق الوسادة ! .. هذا كل ما رآته « جين » فى بادئ الأمر . . . ثم تحركت ذراعها اليمنى فى كم ثوب النوم من الحرير الأزرق ، وامتدت خلفه قليلا وهو راقد على جانبه الأيسر ، واستلقت اليد التحيلة البيضاء فوق غطاء الفراش فى عجز واسترخاء . . . فمعدت جين يديها خلفها ، وقد خالجه حافز قوى كان يدفعها إلى أن تسقط على ركبتيها بجوار غرائبه وتتناول بده الضعيفة الهزيلة بين يديها ، وتغمرها بالقبلات . آه ، من المؤكد - والمؤكد جدا - أن يتحرك الرأس الأسود - إذ ذاك - نحوها ، وبذلك من أن يلوذ الوجه - الذى فقد أبصاره - بالجدار الأصم ، فانه

سيخفى في الحنان الفياض بين ذراعيها . غير أن صوت « دريك » المتذمر في أفنيها ، في رصانة وحزم : « إذا كنت تقدرين قيمة سعادتك الدائمة وسعادته . . ! » . لذلك سارعت إلى عقد يديها خلفها .

واقترب الدكتور ماكينزي من فراش المريض ، ووضع يده على كتف جارت ، وأخذ بكلمه في بطء وهدوء لم تكن حين تتصور أن يصدرها عن الرجل الذي هزها بأسئلته وتعليقاته وأوامره ، خلال نصف الساعة الأخيرة : « سعدت صباحا يا سيد دالين ، لقد أبلغني « سمسون » أنك نعمت بليلة رائعة ، هي خير لياليك حتى الآن ، وهذا أمر طيب ! . . لا بد أنك ارتحت إذ تخلعت من « جونسون » مع أنه كان كءا ، وعدت إلى رعاية تابعك الخاص . فإن الممرضين المحترفين لا يقنعون بعمل ما ، وإنما يسمعون دائما إلى أن يعملوا ما يزيد على الكفاية . وكثيرا ما تكون هذه المغالاة مدعاة لضجر المريض ! . . على أنني أتيت لك اليوم بشخص على أتم أهبة للقيام بكل ما تحتاج إليه ، ولن يضايقك إطلاقا بالسمي إلى عمل شيء يتجاوز رفبتك . . أنها الممرضة « روزماري جراي » التي اختارها لك « السير دريك براند » ، وأعتقد أنها على استعداد لأن تكون مرافقة ، وسكرتيرة ، وقارئة ، وكل ما تحتاج إليه بل أنها ستكون - في الواقع - عيني جديدتين لك - يا سيد دالين - وعقل راجح ، وقلب نقوى رقيق عطوف ، يوجه ذلك العقل ويسيطر عليه . لقد وصلت الممرضة « روزماري جراي » هذا الصباح يا سيد دالين ! » .

ولم يجب دالين ، ولكن يده امتدت إلى الحائط تتجسس وتتثبت به . ثم تراخت وسقطت عنه . وشمرت « جين » بأنيا لا تقوى على أن تكون الممرضة « روزماري جراي » ولم تعد تنوق إلى شيء اللهم إلا تجنب أن يتضايق المريض بالحديث عن المرأة . . الممرضة . ولاح لها كل شيء - في تلك اللحظة - كأنه لا يتعلق بشخصها أو به ! . . وعاد الدكتور ماكينزي إلى الحديث قائلا : « الممرضة روزماري جراي موجودة في الحجرة الآن » يا سيد دالين . « فاذا شهامة « جارت » القريزية تصارع الظلام . ولم يحرك رأسه ، غير أن يده اليمنى ارتفعت مشيرة بتحية خفيفة ، وقال بصوت خافت ، كأنها كان ينبعث من بعيد : « كيف حالك ؟ . . أعتقد بأن مقدمك كان كرما بالفا منك . أرجو أن تكوني قد نعمت برحلة مريحة ! . . وتحركت شفتا جين » ولكن الصوت أبى أن ينبعث « فسارع الدكتور « روب » بالإجابة « دون أن ينظر إليها : « لقد نعمت الأنسة جراي برحلة مريحة جدا ، وإنها تبدو نشيطة منشرحة في هذا الصباح » وكأنها قضت الليلة في فراشها . وها أنذا أراها شابة هادئة ، ودبعة ! » . فقال جارت والتعب يثقل صوته : « أرجو أن توفر لها مدبرة الدار كل ما يلزم لراحتها ، فتكرم بأن تأمر بذلك ! » .

وأدار ظهره وازداد اقترابا من الحائط ، وكان هذا إيذانا يلزم بانتهاء الحديث . فراح الدكتور « روب » بعض شاربيه ، وهو يحلق صامتا في الكتفة المكسرة . ثم استدار إلى « جين » وقال : « تعال » .

المرضة جرائ . . أريد أن أريك مقعدا خاصا « حصلنا عليه للسيد دالين ، وسيحظى فيه براحة تامة ، حين يشعر برغبة في الجلوس . . انظري ، هذا مستند متحرك لإراحة الرأس — عند اللزوم — وهذه السنادات المعديدة يمكن إدارتها في أى وضع بمجرد اللمس . افنى أراه بديعا ، وقد وافق عليه السير دريك . . هل رأيت مثله من قبل يا آنسة جرائ ؟ » . فاجابته جين : « عندنا مثله في المستشفى ، ولكنه لم يستكمل كل هذه المعدات » .

وفي سكون الحجرة المليئة بأشعة الشمس ، انبعث من الفرائش صوت مفاجيء جعلها ينفلان . . صوت أشبه بصرخة تائه في هاوية من الظلام ، ولكنه كان ينطوى على رجاء متلف : « من هنا في الحجرة » . . وكان وجه جارث دالين لا يزال متجها إلى الحائط ، ولكنه رفع جسمه متكئا على مرفقه الأيسر ، في حركة من يرهف السمع . فاجابه الدكتور ما كينزى : « ما من أحد بالحجرة — يا سيد دالين — سوى أنا والمرضة جرائ . » فاجابه جارث بحدّة : « بل أن هناك شخصا آخر في الحجرة ، فكيف تجرؤ على أن تكذب على ؟ . . من كان يتكلم ؟ » . وإذ ذاك اقتربت « جين » من فرائشه بسرعة ، ويدها ترتعشان ، وقالت له بصوت سيطرت عليه تهايا : « لقد كنت أنا المتكلمة يا سيدى . . أنا الممرضة روزمارى جرائ . . واعتقد أنني أعرف السبب الذى من أجله أدهشك صوتى ، فقد انسذرنى الدكتور براند بذلك ، وقال أن ليس لى أن أدهش إذا أنت شمعت بشيء عجيب بين صوتى وصوت صديق لك وله . . وقال أنه كثيرا ما لاحظ ذلك ! » .

وبقى جارث جامدا في عماء ، يصغى ويفكر . وأخيرا سألها بتؤدة : « أقال لك صوت من » . « فاجابته : « نعم يا سيدى ، لقد سألته فاجابنى بأنه صوت الآنسة شامبيون ! » . وسقط رأس « جارث » على الوسادة — ثم قال — دون أن يسدير وجهه ، بصوت كانت جين تدرك أنه بمثابة ابتسامة أوشميت على الوجه الحبيب المتوارى : « يجب أن تصغى عنى يا آنسة جرائ ، لما انتابنى من دهشة ، ولانفعالى السخيف الذى لا يفتقر . . ولكذك — ولا بد تعلمين — بأن العمى تجربة لا تزال جديدة على ، وكل صوت جديد ينفذ خلال الستار الاسود لهذا الليل الدائم يؤدى إلى تأثير يفوق كل ما يتصوره المتكلم . أن الشبه بين صوتك وصوت السيدة التى ذكرها السير دريك شديد جدا ، حتى اننى لا اكاد أصدق انها ليست بالحجرة ، برغم على بأنها — فى هذه اللحظة — فى مصر) . فضلا عن أن وجودها فى هذه الحجرة » من أبعد الأمور فى الدنيا احتمالا . ومن ثم فانتى مدين لك وللدكتور ماكينزى باعذار متواضع لانفعالى وعدم تصديقى ! » . . ثم مد يده اليمنى إلى « جين » وابهامه إلى أعلى - فعمدت « جين » يديها المرتعشتين خلفها . وانبعث صوت الدكتور ماكينزى الخشن ، وهو ما يزال فى النافذة - « والآن ابتها الممرضة ، تفضلى فإن لدى بعض التفصيلات التى أود أن أشرحها لك هنا ! »

وأخذا يتحدثان برهة دون أن يجدا مقاطعة من جارث ، وأخيرا ، أودف الدكتور « روب » فاش « فاش » تدحان

الوقت لذهابى » . فأجابته جارت : « أريد أن أحدثك على انفراد ليضع دقائقى يا دكتور » . وقالت جين : « سأنتظرك فى الطابق الأسفل يا دكتور ماكينزى » . وتحركت متجهة إلى الباب ، وإذا بنظرة أمرة من الدكتور « روب » ، فتوقفت ، ثم تحولت - فى صمت - إلى المدفأة . ولم تكن لتدرك فى هذه اللحظة دافعا لهذا التحايل « بل أنه أغضبها . ولكن ناهليون منغلقة المستنقعات ، ذا الجسم الضئيل ، والوجه المكسو بالنش ، لم يكن بالرجل الذى يسهل مصيانه .. وسار هو نحو الباب وفتحه ، ثم أغلقه ، وعاد إلى جانب الفراش فسحب مقعدا ، وجلس وهو يقول : « وبعد ، يا سيد دالين ؟ » . فاعتدل جارت جالسا فى غراشة ، وواجهه فى لهفة .. وإذا ذاك رأت جين وجهه لأول مرة ، بينما شرع يقول : « حدثنى عن هذه الممرضة يا دكتور .. صفها لى ! » .

وكان القوتر فى صوته وحركته بالغا ، وقد عقد يديه أمامه ، وكأنه يستجدى الإبصار خلال عيني شخص آخر . وظهر وجهه النحيل الأبيض مثقلا بالمذاب « وعليه أمارات اللهفة والجهود ، وقال : « صفها لى - يا دكتور - هذه الممرضة روزمارى جراى ، كما تدعوها ! » . فأجابته الدكتور « روب » فى حزم : « ولكنه ليس اسما مقتحلا من ابتكارى يا سيدى العزيز .. انه اسم الشسابية ، وإنه لاسم بديع .. روزمارى زهرة الذكريات .. أليس هذا من أقوال شكسبير ؟ » . فأنح عليه عليه جارت - للمرة الثالثة - قائلا : « صفها لى ! » .

ونظر الدكتور ماكينزى إليها ، ولكنها كانت قد أدارت ظهرها لتخفى الدموع التى انهمرت على وجنتيها .. أواد ، ياجارت ! ..

يا جارت الجيل ذا العينين البراقنتين ! .. وأخرج الدكتور ماكينزى خطاب الدكتور دريك من جيبه وتأمله ، ثم قال فى بطن : « حسنا ، إنها حسناء رقيقة ، صغيرة الحجم .. وهى من النساء الرشيقات اللاتي تحب دائها وجودهن بجوارك « لو قدر لك أن تراها » . فسأله جارت : « أهى قمحية اللون ، أم شقراء ؟ » . فنظر الطبيب إلى ما كان يوسع بصره أن يعمل إليه من وجنات جين « وإلى اليدين السمراوين المستكبتين برف المدفأة ، وقال فى غير تردد : « شقراء ! » . وجفلت « جين » ، ونظرت حولها ، وهى تعجب مما دفع هذا الرجل الصغير إلى الكذب ، من تلقاء نفسه !

وهنا عاد الصوت الخافت ، المثقل بالتعب ، سائلا : « وشعرها ؟ » . فأجابته الدكتور « روب » فى كذب متعمد : « أما شعرها فهو ممدس كله تحت قلنسوتها الصغيرة ، ولولا ذلك لأمكننى أن أجزم فى وصفه بأنه من ذلك النوع المتهدل الهش الحريرى الملمس « الذى يكمل آخر معالم الجمال للمرأة الرقيقة الحسنة . فاستلقى جارت على وسادته لاهثا وضغط يديه على عينيه غير البصريتين ، ثم قال : « أئنى أعلم قدر ما اكذبك إياه من متاعب يا دكتور ، ولا بد أنك ترانى اليوم أحرق .. ولكن « إذا كنت لا تريد أن أفقد عقلى مع بصرى ، غاصرف هذه الفتاة من هنا .. لا تدعها تلج حجرتى مرة أخرى ! » .

وإذا ذاك أجابه الدكتور ماكينزى فى ثؤدة وصبر : « والآن يا سيد دالين ، دعنا نفكر فى الأمر : ولتفهم فى اعتبارنا أنك

لا تملك أى اعتراض على هذه الشابة ، سوى تشابه عارض بين صوتها وصوت إحدى صديقاتك ، التى توجد الآن فى بلاد نائية . . ألم تكن تلك السيدة شخصا مرغوبا فيه ؟ » .
فأرسل جارث فجأة ضحكة مريرة ، كادت أن تكون زفرة منتحبة ، وقال : « آواه . . بل كنت شخصا مرغوبا فيه جدا » . فأعاد الدكتور روب تربيده الشطرة الشمرية : « روزمارى زهرة الذكريات ! » . ثم أرفف : « إذن فلماذا لا تقوم الممرضة روزمارى جراى باسترواح الذكريات المنعشة . . ثم أن صوتها يبدو لى نسويا ، عذبا ، رقيقا . وهو شئ ، يحمد فى هذه الأيام التى يتكلم فيها كثير من النساء بأصوات ترهب الغربان ، أو كأنها أجبار تطرق أثناء من الصفيح » .
وقال جارث فى اعياء : « ولكن ، ألا تفهم يا دكتور أن مجرد الذكرى والشابه هما اللذان لا أقوى على احتمالهما وأنا أسمى ؟ . . ليس لدى أى اعتراض على صوتها ، والله أعلم ! . . ولكننى أؤكد لك أننى حين سمعت صوتها لأول وهلة » اعتقدت أنها . . أنها كانت هى . . الأخرى . . وقد جاءت لى . . هنا . . و . . ! » . وسكت فجأة ، فأخذ الدكتور « روب » يجادلها قائلا : « السيدة المرغوبة . . آه ، حسنا يا سيد دالين . . أن السير دربك يقول أن خير ما يحدث الآن ، هو : أن تسدو منك رغبة إلى استقبال الزائرين . . ويخيل إلى بان كثيرا من أصدقائك على استعداد ، بل تهلكهم ليفة بالغة ، للحضور من أقصى جهة كانت ، لكى يمدوا لك يد المعونة أو يبعثوا غبك الابتهاج . فلم لا تسمح لى باستدعاء تلك السيدة ؟ أنتى لا أشك مطلقا فى أنها ستحضر ، حتى إذا جاءت بنفسها .

وجلست إلى جانبك ، وتحدثت إليك ، غلن يعود صوت الممرضة يزعجك ! » . واستوى جارث جالسا - من جديد - وعلى وجهه أمارات الاعتراض الشديد . . والتفتت إليه جين - من مكانها على بساط المدفأة - وراحت ترقبه .

وقال جارث : « كلا يا دكتور . . يا إلهى ، كلا ! . . انها آخر شخص - فى العالم بأسره - أقبل دخوله إلى هذه الحجرة ! » . فأنحنى الدكتور ماكينزى ليفحص بعناية بقعة دبقية على غطاء القرائش ، ثم سأل بصوت منخفض : « ولماذا ؟ » . فأجابه جارث : « لأن تلك السيدة المرغوبة - كما تدعوها بحق - لها قلب نبيل كريم » قد يفيض اشفاقا لعمامى ، ولست أقبل الاشفاق منها ، لأنه سيكون آخر قشة فوق صليبى الثقيل - فى استطاعتى يا دكتور أن أحمل صليبى ، وآمل أن أستطيع - على مر الزمن - أن أحمله فى رجولة - حتى يأمرنى خالتي بأن أنزله عن كاهلى . . اما هذه القشة الأخيرة - أعنى إشفافها - فإنها كفيلة بأن تقسم ظهري ، فأنتردى فى الظلام ، ولا تقوم لى - بعد ذلك - قائمة ! » . فقال الدكتور روب بلطف : « آه » فهبت يا فتاى المسكين ! . . إذن فتلك السيدة المرغوبة يجب ألا تحضر إلى هنا ؟ » . ولأذ بالصمت بضع دقائق ، ثم دفع مقعده إلى الوراء « ووقف قائلا : « وعلى كل حال ، فسوف أركن إليك - يا سيد دالين - فى أن تكون لين المعركة مع الممرضة « روزمارى جراى » ، ولا تجعل ميمتها شاقة جدا . فليست أجرو على أعادتها من حيث أتت ، إذ اختارها لك الدكتور براند . . ثم تهور الخبرة القاسية التى تصيبها فى ميمتها . . فكر فى ذلك يا رجل . . كيف

تطرد بإشارة عابرة ، ولما تقضى أكثر من خمس دقائق فى حجرة مريضها ، لأن .. بالله .. لأن صوننا أثار جنونه ؟! .. يا للطفلة المسكينة ! .. ياله من سبب يثبت فى التقرير الذى نرفعه عنها ! .. تصور موقفها أمام رئيسيتها ! .. اليس فى مقدورك أن تكون كريما ، وأن تتخلى عن الأنانية ، بحيث تواجه أية تجربة قد تلقاها من جراء هذه المصادفة القافية ؟! .. وتردد جارث ، ثم قال أخيرا : « هل تقسم يا دكتور ماكينزى بأن الوصف الذى ذكرته لى ، لهذه الشابة » كان دقيقا فى جميع تفاصيله ؟ » . فرد الدكتور « روب » بأن ردد آية من الكتاب المقدس : « لا تحلف باسم الرب إلهك ! » . وادف قائلا : « لقد كانت لى أم نقيية يا فتى . ثم أن بوسعى أن اتصرف خيرا من ذلك ، فأطلعك على سر .. لقد كنت أقرا عليك الوصف من خطاب السير ديك براند ، فأننا لمست خيرا بالنساء ، إذ اعتدت أن اعتبر الكلاب والخيل أقل خداما وأرقى معاشر من النساء . وعلى ذلك ، فأننا لا أطعن كثيرا إلى نظرى الشخصى ، ولذا فضلت أن أعطيك وصف السير دريك بنصه .. ولسوف تجده خير من يحكم على النساء ! .. أرايت اللبدي براند ؟ » . فقال « جارث » فى حنين ، وقد علت وجنته النحيلتين حمرة خفيفة : « أجل رايتهما .. بل أننى رسمت صورتها .. يالها من صورة ! .. كانت تقف بجوار منضدة ، وأشعة الشمس تكسو شعرها ، وهى تشق القرجس الذهبى فى إناء فينيسى أثرى .. أرايت تلك اللوحة يا دكتور ، فى المعرض الحديث ، منذ عامين ؟ » . فأجابه الدكتور « روب » : كلا ، فما وجدت نفسى مرة بين المتفرجين فى المعارض قديمها

أو حديثها ، غير أننى (ثم ألقى نظرة استفسار على جين ، غاومات إليه بالموافقة) قد علمت من المهرضة جراى أنها رأت الصورة ! » .

وهتف « جارث » مغتبطا : « أحمقا ؟! .. ان المرء لا يفكر فى وجود علاقة بين الممرضات ومعارض الصور ، عادة ! » . فأجابه الدكتور روب : « لمست أدري لذلك سببا ، إذ لا بد لهن من ارتياد أى مكان للترفيه عن أنفسهن .. أنهن لا يستطعن أن يلبقن أنوفهن بنوافذ المحاوئيت طول فصول السنة ، فلماذا لا يذهبن إلى معارض الصور للقاء نظرة على صورك ؟! .. ثم ان الآنسة روزمارى شابة » ومن طراز ممتاز » ويؤكد لى السير دريك أنها سيدة راقية .. من حيث الأصل — وأسمه الاطلاع ، ذكية .. وعليه يا بنى » لماذا تراك صانعا ؟ » . غصمت جارث مفكرا « بينما أشتاح « جين » بوجهها ، وقبضت يديها على رف المدفأة ، وقد وجدت نفسها معلقة فى ميزان القدر ، فى تلك الدقيقة الصاهقة !



وأخيرا ، تكلم جارث فى تودة وتردد : « ليتنى أقوى على أن أفصل بين الصوت والـ .. والشخصية الأخرى . ولو أننى استطعت أن أتأكد تماما من أنها — برغم التشابه غير العادى فى الصوت — ليست .. » وتوقف قليلا ، فوجف قلب جين .. ترى هل سيعقب ذلك بوصف لها ؟! .. ولكنه أردف قائلا : « لا تشبه فى شئ الوجه والقوام المنظرين فى ذاكرتى مرتبطين بهذا الصوت » . فأجابه الدكتور « روب » : « أرى أن

الفوم البنية اللون ، وربطة العنق البرتقالية اللون ..
يا للسماء ! .. ما أعظمها من نعمة أن نحفظ بذكرى الألوان
ونناسقها ! .. تصور حال أولئك الذين ولدوا مكفوفين
البصر ! .. تكرم غسل الأنسة جراى أن تخرج للتريض في غابة
المنوبر ، أو برك المياه .. أو أن تستخدم السيارة ، أو أن
تخذ إلى الراحة ، أو أن تعمل أى شئ يروق لها .. أبلغها
بان تعتبر نفسها في دارها ! ولكنها يجب ألا تحضر إلى هنا
— بابة حال من الأحوال — قبل أن يعلن سمسون أننى متاهب
لمقابلتها ! .. فرد الدكتور « روب » : « وقد صار صوته أجش
نجاة : » بكنتك ان تطمن إلى ان الممرضة جراى تكتم كل سر .
أما عن مبارحتك الفرائس يا بنى ، فيجب ألا تتعجل كثيرا فلن
تجد كثير قوة ، ولو أنه من واجبي أن أبلغك أنه لم يعد هناك
ما يستدعى بقاءك في الفرائس ! إذا كانت لديك رغبة في
التنزهى » .

واختتم جارث الحديث قائلا ، وهو يتحسس بد الطبيب :
« مع السلامة يا دكتور ! » ثم أردف قائلا : « لكم يؤلمنى أننى
لن أقوى على أن أقدم لرسم السيدة ماكنزى ! » . فاجابه
الدكتور « روب » بكل رقة : « لو أمكنك ذلك ، لرسمتها بشعر
أشعث ، وأربعة مخالب ، وألطف عيين كهرمانيين في العالم
.. وخلال هاتين العينين يطل أوقى القلوب — التى خلقها الله
— وأشدها حبا وأمانة . قهى لم تتخل يوما — طيلة السنين
التي عاشت فيها كل منا صاحبه — عن استقبالي بترحاب ، ولم
تعارضنى قط » ولا عملت على أن تكون لها الكلمة الأخيرة .
ولا أزعجتني بطلب ثمن قبعة ! .. بلأنا من امرأة .. حسنا ،

بوسعنا أن ندبر هذا .. غان هؤلاء الممرضات يعلن ان لا بد
من ادخال السرور على مرضاهن . فلندع الشابة الممرضة
إلى هنا ، ولتأمرها بأن تجثو بجوار فراشك .. باركك الله !
.. انها لن تتردد — من أجل — في أن تقوم بأى دور ! ولك ان
تبر بيدك على وجهها وشعرها ! وحول خصرها الفحيل ،
لتأكد باللمس أية فتاة صغيرة القد ، رشيقة هى .. في ردانها
الأزرق ومرولتها البيضاء ! » .

فانفجر جارث ضاحكا ، وقد رن في صوته نغم لم يصدر عنه
من أمد طويل . وقال : « انه أبعد الاقتراحات عن العقل ..
يا للسماء ! مالى قد جعلت من نفسى حمارا ! .. لقد يدأت أفكر
في أننى قد أسرفت في الاتهام بالتشابه ، ولن البث ان أنساه
بعد يوم أو يومين . والإن ، اسمع يا دكتور ! .. إذا كانت
قد أعجبت حقاً بلك اللوحة .. ولكن ، إلى أين أنت ذاهب ؟ ..
فأجابه الدكتور روب : « انها كنت أحرك مقعدا إلى جوار
الدفأة ! واستبحت لنفسى جرعة ماء . ان سمعك يزداد
أرهاقا بدرجة غير عادية ، في الواقع ! .. ها انذا محض إليك .
فهاذا كنت تقول عن اللوحة ! » .

— أردت ان أقول ان الممرضة .. إذا كانت تهتم حقاً
بالصورة التى رسمتها لليدى براند ، فلدى في الرسم لوحات
قد يههما أن تراها . ولو أنها أحضرتها إلى هنا ، ووصفتها لى ،
لاستطعت أن أشرح لها كل لوحة .. ولكن يا دكتور .. أننى
لا أستطيع أن تروح الشابات الأيتيمات ويغدون إلى حجرتى
وأنا راقد في فراشى ، فلماذا لا أنهض وأخبر ذلك المقعد الذى
أحضرته لى .. اطلب من سمسون أن يعد لى سترة حجرة

أستودعك الله يا بنى ، وليباركك الاله القدير ! .. أوصيك بأن تحترس لنفسك جيدا ، ولا يدهشك ان أعود إليك في رجوعى من جولتى ، لأستوثق من رايتك عن هذا المقعد ! » .

وفتح الدكتور ماكينزى الباب ، فتسللت « جين » إلى الخارج قبله ، ثم تبعها وهو يشير لها بأن تسبقه إلى الطابق الأسفل . وفى المكتبة تحولت جين ووقفت أمامه ، فأجلسها فى مقعد بكل هدوء ، ووقف أمامها والدمع بترقرق فى عينيه الزرقاوين اللامعتين تحت حاجبيه الكثيفين « ثم قال لها : « لكم اشعر - يا عزيزتى - بأننى على شيء من الغياء والخيل : ناغرى لى - ما كان فى حسابى أن اضحك فى مثل هذا المازق .. وقد أدركت تماما بأنك كنت تشعرين - أثناء ترده - بأن مستقبلك فى مهنتك معلق فى كفة القدر .. اتنى أرى فى عينيك أثر البكاء ، ولكن لا تدعى الألم بتملك من قلبك ، لأن مريضنا قد أثار كل هذا من أجل تشابه صوتك بصوت الآتسة شامبيون .. فسينسى الأمر كله بعد يوم أو يومين ، وستصبحين فى نظره أعظم قيمة من عشر آنسات شامبيون . تأملى ما أحدثته به من تغير فى هذه الفترة القصيرة ، فما هو ذا يرغب فى النعوض من غراشه ليشرح لك صوره ! .. لا تخشى شيئا ، فلسوف تريحين جولتك ، وسيكون فى مقدورى أن أبعث لسر دريك بتقرير وافٍ أبين فيه النجاح العظيم الذى يتم على يديك .. أما الآن ، فلا بد لى من أن أتفرد بوصيفة لأعطيه كل التعليقات .. وأنصحك أن تذهبنى لتستروحي النسيم عند البركة ، حتى تستردى شهيتك للفداء ، على أن ترتدى ملابس أثقل مما عليك

الآن ، فليست لديك الآن أية مهمة من أعمال التمريض .. أما وقد أشعرتنى بكفافتك فى النظافة والعناية ، فعليك فى الوقت ذاته أن ترتدى ملابس مريحة داغثة ، لتحريك من لسعات استعائنا الشمالية .. هل أحضرت معك ملابس أثقل من هذه؟ .

فاجابته جين : « ان قواطين نقابتنا تحتم علينا أن نرتدى هذا الزى » ولكن معى معطف من الصوف الرمادى .

— حسنا .. ارتدى المعطف الصوفى الرمادى ، وسأعود بعد ساعتين لأرتب ما أحدثه به تبوضه من فراشه ، وما آداه من حركة .. ولن استبقيك أكثر مما استبقيتك !

وقالت جين بكل هدوء : « هل لى أن أسالك - يا دكتور ماكينزى - عما دعاك إلى أن تصفى له بأننى شقراء ، كما وصفت شعرى الثقيل المجدع بأنه شعر هس متهدل حبرى الملبس » . وكان الدكتور « روب » قد هم بدق الجرس ، فلما سمع سؤالا رد يده ، ثم دار نحوها ، والتفت عينا جين الثابتتين بعينييه الفيروزيتين المغممتين بالذكاء ، ثم قال : « لك كل الحق فى هذا السؤال أينما المهرضة روزمارى جراى ، وإن أدهشنى ان ترى ذلك ضروريا .. فقد اتضح لى تماما بأن ثمة أسبابا خاصة قد دفعت السير دريك لأن يرسم صورة خيالية عنك للمريض » وأكبر القطن أنها صورة لمثل أعلى يهم المريض .. ولما كان الوصف يخطف عن الواقع ، لذلك استنتجت أنه لايسد - لكى تكتمل الصورة - من أن تكون النقطتان اللتان قد تركتا كى أرسهما - مع الأسف - مغابرتين لما رأيته أمامى ، شأنهما شأن بقية الصورة ، إذا كنت

تسمحين .. ! » . ثم دق الجرس بشدة . فالتحت عليه جين قائلة : « ولكن ، لماذا خاطرت باقتراح أن يتحسس وجهي ؟ » . فصاح الدكتور روب غاضبا : « لأنني أعلم أنه رجل ذو أخلاق عالية .. أواه ! تعال يا سمسون ! .. أدخل يا صاح ، واغلق الباب . واحمد الله ممى لأنه قد جعل منك وبني رجلا ولينا نساء ! » .



وبعد ربع ساعة ، شاهدته « جين » وهو يسرع بعربته الخفيفة (الدوكار) « فالتحت لنفسها : « لقد كان دريك على صواب ، ولكن .. ياله من مزيج عجيب من الذكاء والجمود ، وما أعجب أثر هذا المزيج في تدعيم خططنا ! » .

وبينما كانت ترقب العربة الخفيفة ، وهى تتطلق عبر المستنقع بأقصى سرعة ، لم يتسن لها أن تسمع ما كان الدكتور « روب » يديم به لنفسه - وهو يشد العنان ويهله لمهوه القوى - وألا لتولاهما العجب .. فقد كان من خصاله أن يحدث نفسه ويناقش ما مر به من أحداث ، بصوت نصف مسموح ، وهو يسرع - في عربته - مقتحلا بين مريض وآخر . كان جانبها طبيعته المزدوجة يتطارحان ما جرى ، فيما بينهما . وقد بدا حديثهما - في هذه المرة - كما يلي : قال الدكتور « روب » مخاطبا الدكتور ماكينزى : « والآن ، ما الذى أتى بالنبيلة جين إلى هنا ؟ » . فأجابته الدكتور ماكينزى : « ليسحتنى الله إذا كنت أدري ! » . ورد الدكتور روب : « يجب ألا تحلف أو تلعن يا بنى .. فلقد كانت أمك امرأة نقية ! » .

الفصل العشرون

خطاب من النبيلة جين شامبيون إلى السير دريك براند .

« قصر جاينيش - شمال بريطانيا .. »

« عزيزى دريك : أن برقياتى وبطاقتى لم تكن لتنبئك باكثير من وصولى .. وأرى - بعد انقضاء أسبوعين هنا - أن الوقت قد حان لأن أرفع إليك تقريرا . على أنك جدير بأن تتذكر أنني كاتبة ضعيفة . فقد اعتدت - منذ الطفولة - أن أجد من العسير أن أكتب شيئا بعد العبارة المألوفة : « أمل أن تكون في أحسن صحة » . وها أنذى أحاول كتابة خطاب تقريرى ، يجهد جبار ، ومع كل ، فكم أتمنى لو تسنى لى أن أستعير - ولو لمرة واحدة - قلم كاتب مدرب ، لأشئ لا أمك سوى أن أدرك أنني اجتاز تجارب ليست مما يكثُر حدوثها لكثير من النساء !

« ان الممرضة « روزمارى جراى » تسير في عملها بنجاح باهر ، وقد أوشكت أن تجعل مريضها غير قادر على أن يستغنى عنها ، فهو يتجه إليها بثقة كاملة ، تملأ قلبها يزهو بهنى ! .. أما « جين » المسكينة فلم تعمل أكثر من أن سمعت بأذنيها من شغفيتها ، انها آخر مخلوق - في الدنيا بأسرها - يرجو أن يقترب منه وهو أمى .. وحينها قيل له أن من المحتمل أن تأتى لزيارته ، فأجاب صائحا : « أواه ، يا إلهى .. كلا ! » . وتحول وجهه إلى صورة لا تشوب بالجزء

الجامح . ومن ثم فان جين تطلقى - يا فتاى - نصيبها من شرب السياط .. وكما يحدث حين يصدر قاض حريص مفكر حكمه بالجلد ثلاثين جلدة على ثلاث مرات ، فى كل مرة عشر لسعات ، أصبحت جين تطلقى عقابها على دفعات ، لا تتجاوز كل منها ما تقوى هى على احتماله ، وإن كان هذا كافيا لأن يغمر قلبها بأقسى الآلام ، ويبقى روحها فى رعب مستمر . وقد ثبت أنك - يا طبيبى العزيز الماهر - كنت على صواب فى تشخيصك كنه الحالة وإحاسيس المريض .. فهو يقول ان اشفاقها هو القشة الأخيرة فوق صليبه الثقيل . وهذا تعبير صحيح ، لأن اشفاقها عليه من قش فعلا .. انها اشفاقها الوحيد هو الاشفاق على نفسها وقد وقعت فى حبال هفوتها هى .. ولكن كيف السبيل إلى اقناعه بأن يتبين هذا ؟ .. هذه هى المعضلة !

« هل تذكر كيف كان بنو إسرائيل محصورين بين الجبل والبحر الأحمر ؟ .. لقد كنت أعلم ان (الجبل) تعنى « الأبراج » ، ولكننى لم افقه الفقرة قط ، حتى وقعت بنفسى عند ذلك الأسفين الضيق من الصحراء .. البحر الأحمر أهملنى وإلى يسارى ، وسلسلة « جبل عتاقة » الصخرية إلى يسارى ، تتعالى نحو السماء ، كأنها طبقات حصن متبع .. وإذا المخرج والمداخل الوحيد - خلفها - هو الطريق الذى سلكه بنو إسرائيل من مصر ، والذى كانت عربات وفرسان فرعون تجلجل فوقه ، وهى تبهمهم فى مطاردة حامية . هكذا - يا فتاى - ما تزال جين المسكينة تطأ بقدميها رقعة الصحراء التى تضيق يوميا

عن استيعاب يأسها .. أما الجبل ، فهو اليقين الثابت فى ذهنه ، بأن حبها لن يكون سوى اشفاق ! .. وأما البحر الأحمر فهو الاعتراف الذى يتحتم عليها أن تخوضه ، حتى تتجنب تسلق الجبل .. وقد يفرق حبه فى المياه الباردة ، وهى تجره خلفها « لأن أمواج الشك وعدم الاطمئنان تندفع فوق هامته .. أمواج الشك الذى غمد المقدرة على ازاحته عنه .. وعدم الاطمئنان الذى لا يؤمل يوما فى أن يتأكد من انه كان خطأ وزيفا .. وفى اعقاب كل ذلك تندفع جحافل فرعون فى سرعة فائقة .. انها الأقدار تجرى بسرعة على عجالات الظروف ! وبين أية لحظة وأخرى ، قد يقع حدث يسفر عن كشف وإلهام . وإذ ذاك ، سيصمد هو متسلقا صخور الجبل ، بيدى مزلزلتين ، وقدمين داميتين . أما هى - جين المسكينة - فستبقى تتخبط فى أعماق البحر الأحمر ..

أواه ! من لها بموسى مبعوث برسالة من السماء ، فيهد لها عصاه السحرية . - عصا المحب الذى يستشف بواطن الأمور ، ويشق طريقا وسط الأهوال ، حتى يتقدر لها أن يبلغا معا أرض الميعاد ! فيا صديقى العزيز الحكيم ، هل تجسروا على القيام بدور موسى ؟

« ولكن - كائى بنفسى اكتب صفحة من دليل « بيدكر » (١) غير مستطيمة أن أسجل الحقائق الواقعية !

« ان لك أن تتصور جين وقد أصبحت نحيلة شاحبة بالرقم

عما تقدمه لها العجوز مارجرى من أطباق الثريد ، التى تعد يوميا - بعد الغداء لتقدم مع فطور الصباح التالى - وعلى كل من يمر بالاناء أن يحرك ما به قليلا .. افكنت تعلم - قبل ذلك - بأن هذه هى الطريقة الصحيحة لطهى الثريد يادريك؟ .. لقد كنت أظن دائما بأنه طبق يتم اعداده فى خمس دقائق ، حسب الطلب . وإذا صح ما تقوله « مارجرى » ، فإن الثريد الذى كنت أعرفه ليس سوى نوع إنجليزى يحمل هذا الاسم تجاوزا !

ولكن أى حديث أضططعه تعربا من الواقع ؟! .. يا إلهى أن الجرح الذى فى قلبى عميق الغور ، ومقترح ، حتى أنني أخشى الكشف عنه ، ولو بيدك الرقيقة ! .. نرى أين بلغت فى حديثى؟ .. لقد أتاحت « الثريد » مهربا ! .. لا بأس ، لقد كنت أقول أن جين تزداد ضعفا ونحولا « بالرغم من أطباق الثريد التى تقدمها لها مارجرى العجوز . أما المرضة « روزمارى جراى » ، فإنها تزداد ازدهارا وبهاء ، وهى دائما الفتاة الصغيرة ، الجميلة ، الرقيقة ، التى يزيد بها فتنة شعر اشقر خفيف متهدل حيرى الملمس . هذه هى اللمسة التى أضفاها الدكتور « روب » على الصورة الساحرة ! .. وما كنت - بهذه المناسبة - لأتوقع أن أجده كما هو .. أنني اتعلم كثيرا من الدكتور ماكينزى . فى حين أنني مشغوفة بالدكتور « روب » ، اللهم الا فى تلك الحالات التى أتوق فيها إلى أن أرفعه من ياقة معطفه ، وألقى به من النافذة ! .. أما عن شكل المرضة روزمارى ، فقد رأيت من الأفضل أن أصارح الخدم بجنية الأمر تماما ، فليس

فى وسعك أن تتصور كم من مأزق خطير تعرضنا له .. فقد حدث عندما وقد « جارت » على حجرة المكتبة - لأول مرة - أن أمر « سمسون » بأن يحضر لها الآنسة جراى .. وهم « سمسون » بأن يفتح فمه ليذكر أن المرضة جراى تستطيع بلوغ الرف الأعلى ، على أطراف أصابعها بسهولة تامة ، وأنه رآها تفعل ذلك من قبل . ولكن التربية الكاملة التى ينشأ عليها الخدم الإنجليز ، انقذت الموقف « فلم يقل سمسون سوى : « سماء ، يا سيد ! .. أجل يا سيدى ! .. » ثم التفت نحوى وهو صامت بجانبى « كمن ملأه السرور لأنه كاد بسبب لى ارتياكا لا موجب له .. ولو كان الأمر مع العجوز مارجرى العزيزة ، ولسانها الاسكتلندى الذى يبدا متباطئا ، ثم تزداد سرعته باطراد كلما تحرك حتى يصعب إيقافه ما لم يسكب المختزن من أنكارها ، فلكم كنت أتوق - فى مثل هذه الحالات - إلى أن أحملها بين ذراعى النحيلتين ، وألقى بها خارج الحجرة ! .. لهذه الأسباب استدعيت « سمسون » و « مارجرى » إلى قاعة الطعام ، فى إحدى الأمسيات ، بعد أن بات السيد بعيدا عن سماع حديثنا ، وابلغتهما أن أسبابا لا يسعى إيضاحها ، استدعت إزجاء أوصاف لا تطابق مظهري . فهو يعتقد أنني قصيرة ، نحيلة ، شقراء ، جميلة جدا .. وأنه من الأهمية بمكان أن نرتضى هذا الغش ، لكى تنفدى أيضا حات طويلة ، قد تحدث له اضطرابات ذهنية ! .. ولم يقم مظهر سمسون المطبوع على الأدب والانتباه ، وأجاب بقوله : « .. أنا .. » أما من الجهة الأخرى ، فقد كنت - مع العجوز مارجرى -

أثناء حديثي — سحب خفيفة ثم عن آرائها ، ولكن هذه الآراء تبلورت عند نهاية الحديث ، إلى بسة قبول وموافقة .. مل انها اضافت إلى ذلك تعليقا خاصا ، بقولها : « انه لامر حسن جدا ، كما اعتقد .. فان السيد جارث — ويا للفتى المسكين ! — كان يحرص دائما على أن يحيط نفسه بالجمال .. وكثيرا ما كنت أقول له ، حين يدعو أصدقائه لزيارته .. ماذا به يتجه بكل تفكيره عند بحث شؤون المادية ، إلى العناية بنظافة ولعان الأدوات الفضية واعداد الكؤوس البللورية المصنوعة في البندقية والاولانى الصينية الفاخرة ! — « يا سيد جارثي » هذا ما كنت أقول له ، ثم أردف ، إذا شعر بان المناسبة تدعو إلى الاقتباس من التوراة : « أن اهتمامك يبدو لى متجها بكليته إلى ما هو خارج الكأس والأطباق ، فليست تهتم بها في الداخل .. ولذلك فمن الصواب أن نبقىه مخدوعا يا أنسة جرای ! » .. ثم اضافت ، إذ سعل سمسون — بما طبع عليه من ادب وكياسة — ووكزها بسرفقه — « ذلك لانه بالرغم من أن الوجه البسيط قد يجد من جمال التعبيرات المرتسمة عليه ما يعوضه عن جمال القسمات » الا انه من المتعذر علينا أن نصف التعبيرات الرقيقة للأعمى ! « .. وهكذا ترى يا دريك ان هذه العجوز الذكية — التي عرفت حقيقة جارث منذ مولده — قد اتفقت معي — تمام الاتفاق — في قراري الذي اتخذته منذ ثلاث سنوات مضت ! ..

« والآن لأكمل تقريرى .. لقد سبب لنا الصوت بعض المتاعب ، كما بدا الامر لك . وكانت خطتنا كليا معلقة في

ميزان القدر لبضع لحظات رهيبية . ذلك لانه وان تقبل بسهولة التفسير الذى دبرناه || الا أنه أرسلنى إلى خارج الحجرة ، ليخبر الدكتور ماكينزى بأن صوتى فى الحجرة كفيل بأن يثير جنونه . وكان الدكتور « روى » سيد الموقف فى ذلك اليوم || وقد كسب الجولة . إذ أن جارث لم يكذب بتقبل تفسيره ، حتى كف عن العودة إلى ذكر الموضوع .. غير اننى أراه — أحيانا — يصيح السمع . وكأنه يستحث ذاكرته ! .. على أن الممرضة « روزمارى جرای » تنعم بساعات سعيدة ، فى حين أن جين المسكينة تظل مبعدة . ذلك لأن مريضها يتجه إليها ويعتد عليها ويتحدث إليها ويبدل الجهد ليصل إلى عقلها وليكشف لها عقله .. وأنه لشخص رائع لمن يقيم معه ويعرفه جيد المعرفة .. كل ذلك وجين تتمشى فى الخارج ، فى البرد القارس ، منصتة إليهما وهما يتحدثان بينما تتلوى هى عذابا ، فقد تحققت من ضالة تقديرها للنعمة الجيلة التى طرحت يوما تحت قدميها ، واستوثقت من طيبة وعقل الرجل الذى صدته عنها بحجة أنه مجرد غلام — وعقله ! .. ان الممرضة « روزمارى جرای » تجلس بجواره ، ساعات طويلة من الاناس العذب ، فاستطاعت أن تعرف كل هذا . بينما تضرب جين فى طريقها الصحراوى الضيق — معودا وهوبلا — وهى تعاني ريح الجنوب المحملة بالياس !

« والآن ، انتقل إلى أهم نقطة فى هذا الخطاب . ومع اننى امرأة ، فلو أن أريد إلى الإيجاز . ليس فى وسعك يا دريك أن تحضر ترميما لزيارته ، ولنتحدث فى

ولم أمد أحتفل أكثر من ذلك دون معونة .. أما هو فسوف يفتبط بحضورك « ليطلعلك على ما وصل إليه من تحصين - وليربك كل الأشياء التي تعلم أن يعملها .. كما أنك قد تستطيع أن تذكر له كلمة عن « جين » ، أو أن تهيب عقله لهذا الموضوع ، على الأقل ! .. أواد يا فتى ! لبتك تستطيع أن تنزل عن ثمان وأربعين ساعة ، وستعشك نسمات البرك والحقول .. ثم أن لدى خطة صغيرة خاصة ، يتوقف تنفيذها على حضورك .. أواد يا فتى .. ألا احضر !

صديقك المحتاجة إليك « جانيت »

من السير دريك براند إلى المهرضة روزمارى جراى بقصر جليينى شمال انجلترا شارع ويمبول .

« عزيزتى جانيت : سأحضر دون ريب « وسابرج محطة ايبستون » فى مساء الجمعة ، وبذلك أضى معكم فى جليينى طوال يوم السبت ، وجزءا كبيرا من يوم الأحد « على أن أعود إلى عملى صباح الاثنين . ولسوف أبذل كل ما أملك من جهد . ولكننى - مع الأسف - لست موسى ، ولا أملك عصاه السحرية . فضلا عن أن الأبحاث الحديثة دلت على أن بنى إسرائيل ما كانوا ليستطيعوا أن يتجاوزوا المكان الذى تذكرفه ، وإنما كان عبورهم خلال البحيرات المرة . إنه مجرد تفصيل ، لا يمس بأى حال صحة إيضاحاتك ، وإنما هو إضافة لها ، لأننى أخشى يا بنيتى العزيزة أن تكون فى طريقك مياه مرة ! ومع ذلك فأتى أمل .. كلا ، بل أتى أكثر من أمل ، أتى على

بالثقة . فكثيرا ما أتجه ذهنى - وأنا أفكر فيك ، فى الفترة الأخيرة - إلى الوعد الإلهى بأن كل الأمور تعمل معا للخير .. فكل أمرى يستطيع أن يجعل الأمور الطيبة تتفاعل معا فى سبيل الخير .. ولكن « أبانا الذى فى السماء » هو وحده الذى يستطيع أن يصنع من الشر خيرا ، وأن يأخذ كل أخطائنا وهفواتنا وجهالتنا ، فيوجهها بحيث تعمل جميعا لتحقيق الخير العيم لحياتنا .. وكلما ازدادت معضلة كياننا البشرى تعقدا وارتباكاً ، ازدادت حاجتنا إلى التسك فى الحياة بالصسكة الجليلة الواضحة : « اعتمد على الله بكل قلبك ، ولا تعتمد على نمك .. وفى كل طرقتك اعتمد عليه ، فهو الذى يقوم سبك » .. إنها أوامر قديمة وبسيطة للمسير ، ولكنها صادقة ، ومن ثم فهي أزلية !

« سرنى أن أثبت المهرضة روزمارى كفاءة ممتازة ، غير أننى أمل الآن نواجه - بعد الآن - اضطرابات جسدية فى بعضلتنا .. هب أن مريضنا وقع فى غرام المهرضة الرقيقة ، الصفيرة « روزمارى » . فماذا يكون مصر جين ؟ .. أخشى فى هذه الحالة أن تفتح الصحراء فمها - إذ ذاك - وتبتلعها . فعلىنا أن نتحاشى مثل هذه النكبة ! ليس فى الوسع أغراء « روزمارى » على أن تفلت حرف « ه » - من نطقها - أو أن تبين أنها قد مالت إلى سمسون ؟ .. أواد يا بنيتى العزيزة المسكينة ! .. ما كان لى أن أداعبك ، لو لم أكن قادما - عما قريب - لمعاونتك . يالها من محنة تبتك الجنون ! .. وبالك نغالية ، ولكن معظم الرجال حتى أوهمان ، بل أن رجلا

منهم جمع بين الأمرين ! .. ثقی من أنفی سائیت له ذلك ،
أرضاء لنفسی وله .. إذا وانتفی الفرصة !

المخلص لك دائما : دريك براند

من السير دريك براند إلى الدكتور روبرت ماكينزي
« عزيزي ماكينزي : هل ترى من الصواب أن أحضر قريبا
لزيارة مريضنا في جليتيش ، ولأدلى برأى في تقدمه ؟ أرى أن
من الممكن أن أحضر في عطلة آخر الأسبوع .

أرجو أن تكون راضيا عن المضة التي أرسلتها .

صديقك المخلص جدا : دريك براند

من الدكتور روبرت ماكينزي إلى السير دريك براند
« عزيزي السير دريك : أن السيدة القديرة التي أرسلتها
لتكون ممرضة لمريضنا تؤدي كل حاجة تمن له ، وحتى لم تعد
بالمريض حاجة إلى ، ولا إليك أنت .. غير أنني أرى من الخير
العظيم أن تحضر قريبا لزيارة الممرضة نفسها ، إذ أنها تفقد
من لحمها وشحمها أكثر مما تحتل أية سيدة في مثل عودها .
إنها خفيا ، يعمل إلى جانب القلق الطبيعي — الناجم عن
مسئولياتها في هذه الحالة — على النيل من صحتها . وقد تفضى
إليك بدخيلة نفسها . في حين لا تقوى على أن تضع ثقتنا في
شخصي .

خادمك المطيع : روبرت ماكينزي

الفصل الحادي والعشرون

جلست الممرضة « روزماری » مع مريضها في حجرة المكتبة
بقصر جليتيش ، وبينهما مئذنة صغيرة حملت أكدايسا من
الخطابات ، وأمامها بها بريد الصباح .. وكان عليها أن تفسها ،
وتقرأ عليه محواها ، وتقدم له ما يرغب في تلبسه أو في
الاحتفاظ به في جيبه .. وكأنا يجلسان بجوار النافذة الفرنسية
المؤدية إلى الشرفة ، نهب عليهما تسامات معطرة بعبير زهور
الربيع .. وقد نفدت أشعة شمس الصباح داخل حجرة المكتبة
.. وكان « جارث » في ملابس من « الفانيلا » البيضاء « وربطة
عنق خضراء ، وفي عروة سترته بعض زهور الربيع .. وقد
جلس مضجعا في رضى ، يستمتع بحواسه التي كانت تسرع
في استرداد انتعاشها ، وبعبير الزهور ، وبلمسات أشعة
الشمس .

وفرغت الممرضة « روزماری » من تلاوة خطاب خاص بها ،
نطوته ووضعته في جيبها بشعور كله ارتياح وشكر . فقد كان
دريك قادما . ولم يخيب ظنها ! .. وسألها جارث على غرة
منها : « أهو خطاب رجل يا آنسة جراي ! » فأجابته الممرضة
روزماری : « تماما .. وكيف عرفت ذلك ! » .. وكان جوابه :
« لأنه محرر على ورقة واحدة .. ذلك لأن خطاب المرأة —
إذا كان لأمر هام — يستغرق ورقتين أو ثلاثا — وهذا الخطاب
كان لأمر هام ! » .. فهتقت الممرضة روزماری : « لقد أصبح
استنتاجك للمرة الثانية .. وللمرة الثالثة .. كيف عرفت

ذلك لا . « . فقال : « لأنك تهددت في ارتياح تام ، عندما أكلت
السطر الأول . وتهددت - للمرة الثانية - عندما طويت
الخطاب واعدته إلى غلافه !

وضحكت الممرضة روزمارى وقالت : « انك تتقدم بسرعة
يا سيد الدمين ، ويخيل لى أننا لن نستطيع - بعد قليل - ان
نحتفظ بأى سر لنا .. لقد كان خطابى من .. « . ولكنه صاح
مقاطعا بسرعة ، وقد مد يده محتجا : « لا ، لا تخبرينى ! ..
فليس بى ميل أو فضول نحو مراسلاتك الخاصة با آنسة
جراى .. ولكن من اكبر دواعى سرورى ان ابين لك التقدم
الذى بلغته في التعرف على الاشياء دون الاسترشاد بأحد ! » .
فقالت الممرضة : « إنها أردت ان ابثثك ان الخطاب من السر
دريك ، وقد جاء ضمن ما حوى أنه قائم إلى هنا ليراك في يوم
السبت القادم » . فقال جارث : « جيل جدا .. ما اعظم
التحصن الذى سيلبسه في حالتي .. وسيبعدنى ان اقدم
له تقريرا عن الممرضة ، كاتبة السر ، وقارئة خطاباتى .
والمرشدة الصبور في غير ثثرة .. بل الرفيقة الملازمة التى
انتقاها لى » .

ثم أردف في جزع ولهفة : « أرجو الا يكون حضوره لى
ياخذك من هنا .. اصدقينى ! .. فاجابه الممرضة روزمارى :
« كلا ، فان الوقت لم يحسن بعد لذلك .. ولكننى أردت
- يا سيد الدمين - ان أسألك ان تسمح لى بالتعبير عنك لما
لا يتجاوز ثمانى وأربعين ساعة ، وستكون زيارة الدكتور براند
فرصة مناسبة لهذا الغياب ، لعلنى باتك نانس إليه . فاذا

سمحت لى بعطلة نهاية الأسبوع . فسأرحل في مساء الجمعة
وأعود في ساعة مبكرة من صباح الاثنين ، في موعد مناسب
لنفس بريد الصباح .. وسيقرأ عليك الدكتور براند خطابات
السبت والأحد .. أه ، نسيت أن لا بريد هناك في يوم الأحد
فكاننى لن أفوت غير بريد يوم واحد .. كما أن الدكتور براند
سيكون أكفا منى في مهام أخرى ! » . فاجابها جارث وهو
يفاضل لأخفاء ما ألم به من أسقاء : « حسنا .. لقد كنت أود
كثيرا لو بقينا ثلاثتنا لتحدث معا ، ولكن لا غرابة في ان تكونى
بحاجة إلى اجازة صغيرة .. فهل تقصدين جهة بعيدة ؟ »

- كلا ، فان لى اصداقاء في جهة قريبة من هنا .. والآن هل
تريد ان تنفرغ للبريد ؟

فمد جارث يده قائلا : « نعم .. انتظرى دقيقة واحدة ..
هناك صحيفة بين الرسائل ، فانى أשמ رائحة مداد المطبعة
.. لا أريدها ، فتركى باعطائى بقية الرسائل ! » . فابتعدت
الممرضة « روزمارى » الصحيفة ، ودفعت إليه بالرسائل حتى
لمست يديه . وإذ تناولها ، ارتسمت على شفثيه بسمه سرور
بها هو مرتقب ، وقال : « ياها من كمية كبيرة ! وعلى ذكر
ذلك - يا آنسة جراى - لو أنك كنت تتقاضين أجرا يتناسب
مع ما تقومين به من تلاوة هذه الرسائل الكثيرة المحسرة
بأساليب سهلة وغير سهلة ، لاستطعت ان تقومى بمشروع
شامل تسمينه : « الكتاب القارى » .. اذكرين مواساة
السيدة باركر بانجس ! .. اعتقد أنك لو كنت أولاد محكنا
فبها معا . ياها من عجوز كريهة ! .. واكتفى لى بتجديرا بها

أن تذكر قصة برثيموس الأعشى » ، الذى غطس سبع مرات فى بركة (سلوام) .. فمن الخير دائما تجنب التشبيهات العتيقة ، لا سيما إذا كانت من الكتب المقدسة » إلا إذا كان المرء يعيها بدقة .. والآن .. » . ثم صمت جارش .. وكان فى تلك الأثناء يتحسس الرسائل واحدة فواحدة « وهو يفحصها بأصابعه بعناية ، قبل أن يضعها على المنضدة بجواره ، حتى وصل إلى رسالة كانت على ورق اجنبى ، ومختومة بالشمع تقطع الحديث فى حدة .. وأمسك بالرسالة دقيقة وهو صامت ، ثم مر بأصابعه على الختم .

وكانت الممرضة روزمارى تراقبه فى لهفة ، فلم تصدر عنه أية إشارة ، غير أنه لم يلبث أن وضع الرسالة على المنضدة ، وأخذ ما بعدها .. حتى إذا ما أعاد إلى الممرضة الرسائل ، جعل الرسالة المختومة فى آخرها ، حتى تقرأها عليه بعد فراغها من جميع الرسائل .. ثم بدأت الإجراءات المعتادة ، فاشعل جارش سيجارته — وهو أول عمل أجاده بنفسه — وأخذ يدخلها مثلثا . وقد استوثق من موقع منفضة الرماد ، وراى يده على إلقاء الرماد داخلها بكل دقة . بينما تناولت الممرضة « روزمارى » الرسالة الأولى ، فقرأت خاتم الجهة التى وردت منها ، وقدمت إليه وصفا كاملا للخط الذى كتب به الغلاف ، فاستطاع « جارش » أن يتعرف على اسم صاحب الرسالة . وكان يسر غاية السرور حين يتبين بعد فسخ الغلاف صحة تخمينه ، فى كل مرة .. وكانت الرسائل — فى هذا اليوم —

تسعى ، من جهات مختلفة « فبعضها من أصدقائه من الرجال ، ورسالة أو اثنتان من حسناوين سجلتا استعدادهما للحضور لرؤيته ، حالما يبدى رغبته فى قبول الزائرين .. ورسالة من ملجأ للعميان يطلب مساعدة مالية .. وبطاقة صغيرة من الدكتور براند يعلن فيها اعتزامه الحضور .. ثم قائمة حساب — بثمن ربطات للعنق — من محل تجارى بشارع (بوند) بلندن .. وارتمشت أصابع الممرضة « روزمارى » وهى تعمسد الخطاب الثامن إلى غلافه — ولم يبق على المنضدة سوى الرسالة الأخيرة — فلما التقطتها بيدها ، بادر جارش بالقاء لفافة التبغ من النافذة ، فى حركة عصبية . ثم استلقى فى مقعده وقد غطى وجهه بيديه . وقال : « هل أجدت إلقاء اللفافة أيتها الممرضة ؟ » .

ومالت إلى الأمام ، فشاهدت دخان اللفافة متصاعدا من فوق الحصى ، فقالت له : « تها يا سيد دالين .. هذه الرسالة تحمل طابعا مصرية ، وعليها خاتم بريد القاهرة كما أنها مختومة بالشمع الأحمر ، بخاتم يحمل شعارا به خوذة عليها ريشة وقناع محكم » . فسألها جارش فى هدوء تام : « والخط الذى كتبت به » . « وأجابت : « ان الخط الذى كتبت به يتسم بالجرأة والوضوح الكامل ، وليس به دوران ولا تزيق ، وقد كتب بريشة عريضة » .

— هل لك أن تتفصلى أيتها الممرضة بفرض الغلاف ، وقراءة التوقيع قبل تلاوة ما بالرسالة ..

وعند ذلك أخذت الممرضة « روزمارى » تسعل لتجلى حنجرتها التى أوشكت أن تسد لمخفق صوتها .. ثم فضت

الرسالة ، ونظرت إلى صفحتها الأخيرة ، وقرأت التوقيع ..
وقالت له : « ان التوقيع يا سيد دالين هو .. جين
شامبيون » . فقال لها جارث في هدوء : « أرجو أن تقرئى لى
الرسالة » . وشرعت الممرضة روزمارى فى قلاوتها :

« عزيزى دال .. ما عساي أن أكتب لك ؟! .. لو اننى كنت
جوارك لتدفق منى حديث طويل ، اما الكتابة فمن الصعوبة
والاستحالة بمكان .. اننى اعلم أن الأمر اشق عليك مما لو
كان على اى فرد منا .. ولكنك ستكون اكثر منا جميعا
شجاعة فى التغلب عليه . ولسوف تخرج من المحنة على أحسن
حال ، وتستمر على ايمانك بجمال الحياة ، واطهارها كذلك
للآخرين .. اننى ما كنت لاتصورها كذلك ، حتى كان ذلك
الصيف الذى ضمنا فى « اوفردين » و « شينستون » ، فعملتنى
كيف استجلى الجمال .. ومنذ ذلك اليوم وانا اذكرك فى غروب
شمس كل يوم ، وفى شروقها .. على صفحة المحيط الاطلسى
اللازوردية - وفوق قمم الجبال الأرجوانية ، وفى رشاش
شلالات نياجرا ، وفى زهور الربيع فى اليابان ، وفى صحراء
بصر الذهبية .. فلقد استوعبت كل هذه وادركت جمالها
بفخلك .. أوها يا دال « لكم اتمنى الحضور لأبنيك بكل شئ » ،
حتى يتسنى لك ان تراها خلال عيني ، وإذ ذاك فانك ستزيد
فهمى اياها اتساعا ، وتبصرنى بها فى مزيد من الجمال ..
ولكننى علمت بانك لا تقبل زائرين .. افلا ترضى استثناء
واحدا ، فتسمح لى بالحضور إليك ؟

« لقد كنت عند الهرم الأكبر عندما طعننى الخيول .. كنت
مستلقية فى استرخاء ، فى شرقة الشرق .. بعيدا عن العالم ..



« جميل لك ان سمحلى فيها سرعه مصر علاف

وفرهاده التوقيع على نافود ما بالرسالة

وقد أثار نور القمر أشجائي ، وأهاج ذكرياتي .. وكنت قد صميت ساعتئذ على أن أعدل عن السياحة في حوض النيل » لأعود إلى الوطن » واعتزمت أن أكتب إليك لتحضر للقاءى .. وفى تلك اللحظة ، وصل الجنرال « لورين » ومعه صحيفة وخطاب من « مير » .. وبذلك علمت بالفاجعة ! .. ترى أكتب تقبل دعوتى وتحضر لمقابلتى يا جارث ؟ .. والآن يا صديقى - وأنت لا تقوى على الحضور إلى - أيمكثنى أن أحضر إليك ؟ .. كلمة واحدة تصدر من فمك : « أحضرى ! » كافية لأن أطمح إليك من أبعد بقعة في الأرض أكون فيها لدى تسلمى رسالتك .. لا تبعاً بالعموان الذى في خطابى هذا في مصر ، فلن أكون هنا لدى إطلاعك عليه ، وإنما أكتب لى بعنوان عميتى في دارها بالمدينة ، فكل رسائلنى ترسل إلى هناك ثم تحول إلى - مغلفة - حيث أكون .

« دعنى أحضر ، وثق أننى أقدر مدى تقسوة الأمر عليك . ولكن الله خير ممين ! .. وتأكد دائما أننى :
الوفية فوق ما يقوى القلم على وصفه : جبن شامبيون »

ورفع جارث يده التى كانت تغطى وجهه ، وقال : « إذا لم تكونى متعبة يا آنسة جراى ، بعد تلاوة كل هذه الرسائل ، فأنى مشوق إلى أن أهلى عليك ردى على هذا الخطاب فوراً ، وهو ما يزال حاضراً في ذهنى .. هل لديك أدوات الكتابة .. شكرًا لك ، هل تبدأ ؟ » .. وشرع يهلى :

« عزيزتى اليتيمية شامبيون : لقد تأثرت أعماق الناثر لخطابك الرقيق الذى يفيض عطفًا ، فكان له في نفسى وقع

حسن . وأنه لجميل منك أن تكتبى لى من البلاد النائية » ومن بين أشياء كانت خليقة بأن تشغل بالك عن اصداقائك في الوطن .. » .

ثم سادها صمت طويل .. وانظرت الممرضة « روزمارى » والقلم في يدها ، مؤلمة أن يقتصر تردد ضربات قلبها على أذنيها وحدها ، فلا يترامى عبر المنضدة .. ثم استأنف جارث إلقاء خطابه : « سرنى أنك لم تعدلى عن رحلتك في النيل » ولكن ... » .

وعند ذلك سمع طنين نحلة جاءت من شجرة الخزامى ، وحطت على زجاج النافذة . وفيها عدا ذلك ، عم السكون الحجرة . ثم استطرده جارث : « ولكن .. لو أنك كتبت إلى » لكنت قد جئت طبعًا .. » .

وراحت النحلة تنافس ضد النافذة في حنق ، صاعدة وهابطة ، مرة تلو أخرى ، لعدة دقائق ، ثم اهتدت إلى مصراع زجاجى مفتوح ، فانطلقت منه فرحة إلى الشعة الشمس . ثم ساد الحجرة صمت تام .. اخترقه صوت جارث - بعد حين - وهو يهلى في هدوء : « وأكرم من ذلك أن تقترحى رغبتك في الحضور لرؤيتى ولكن ... » .

وهنا انقطعت الممرضة روزمارى القلم من يدها ، وقالت له : « أواه يا سيد دالين .. دعها تحضر ! » . فنتجته إليها جارث بوجه كله دهشة بالفة ، وقال لها في لهجة حاسمة : « لا أريد ذلك » . ولكنها عادت تتولى : « ولكن تصور مدى التقسوة على أى امرء يود كثيرًا أن يكون مقبولًا أن يكون

صديقا في المحنة ، ثم يرفض سؤاله ! » . فقال : « ما دفعها إلى اقتراح المجيء سوى ما لها من قلب مقعم بالرحمة » يا آنسة جراى .. غهى صديقة وزميلة منذ امد بعيد « ولهذا غسوف تحزن كل الحزن إذا رأتنى في هذه الحالة ! » .

ولكن الممرضة عادت ترجو ملحفة : « هذا لا يبين من خطابها .. الا يمكنك أن تقرأ ما بين السطور ؟ .. ام ان قلب المرأة وحده هو الذى يفهم قلب المرأة ؟ .. ام نرائى لم احسن قراءته لك .. هل لى ان أعيد قراءته ؟ » . فلانعددت على وجه جارت امارات غيظ حقيقى ، ثم تكلم بحزم ورمسائة ، وقد قطب حاجبيه الاسودين المنقبين : « بل أنك قد اجدت قراءته اتم إجادة ، ولكن ليس من المستساغ ان تناقشنى .. واود ان اكون درا في املاء رسائللى إلى كاتبة سرى ، دون ان اطلب بتفسير ! » . فاجابته الممرضة « روزمارى » في ذلة « ارجو منك الصفع يا سيدى .. لقد اخطأت ا » .

وبسط جارت يده عبر المنضدة ، وتركها لحظة « وان لم يجد بدا تستجيب وتقابلها . ثم قال لها بابتسامته الخلابة : « لا بأس يا مرشدتى ودليلى الصغيرة الرحيمة .. لك ان توجهينى في أكثر شئونى . ولكن ليس في هذا .. والآن دعينا نختم الرسالة .. إلى اى كلمة انتعينا ؟ .. آه ! .. » رغبتك في الحضور لرؤيتى « ولكن « ... هل اضفت لذلك انه لطيف منك .. او انه أكثر من اللطف ؟ » . فاجابته الممرضة روزمارى بصوت متهدج : « واكرم من ذلك » . فقال : « لا بأس .. انه - في الواقع - أكثر من الكرم . وليس سواها وسواى من

يستطيع ان يدرك مدى هذا .. والآن دعينا نكمل .. » غير اننى لا استقبل زائرين ، ولا رغبة لى في استقبال أحد « إلى ان اتوى على السيطرة الكاملة على الظروف التى تتعلق بمعجزى ، فلا تكون الية او ملحوظة لدى الغير . ولنسوف اتعلم - خلال الصيف - كيف اعيش في هذه الحياة الجديدة : خطوة بخطوة : في عزلة نامة في جلينيثى . وانا اشعر بيقين من ان اصدقائى سيحزنمون رغبتى في ذلك . ومعنى الآن شخص يقوم بمساعدتى على اتم سبيل وفى طول اناة .. ولنسكن نتظري ! » .. قال جارت في صيحة مفاجئة ، ثم اردف : « لا اريد ان اذكر ذلك » فقد تساورها بعض الشكوك ، وقد تسىء الفهم .. هل بدأت كتابة تلك الجبهة ؟ كلا .. ماذا كانت آخر كلمة ؟ .. « ذلك » ؟ .. آه ، نعم ، هذا صحيح .. ضعى نقطة بعد كلمة « ذلك » .. والآن دعينى افكر ! » . واخفى وجهه في راحتيه ، وجلس طويلا مستغرقا في التفكير .

وانظرت الممرضة « روزمارى » ، وقد أبقت يدها اليمنى - الممسكة بالقلم - على الورق . أما يدها اليسرى فغطت صاعطة على صدرها ، وقد ثبتت بصرها على ذلك الراس الاسود المنحنى ، في نظرة كلها حنين وحنان مشبوب ! ..

ورفع جارت رأسه - أخيرا - واختم الاملاء ، قائلا : « صديق المخلص : جارت دالين » . وفى صمت تام ، كتبت الممرضة روزمارى العبارة .

الفصل الثاني والعشرون

في ذلك الصمت الممض ، الذى أعقب الأملاء واغلاق الرسالة ، انبعث صوت الدكتور روب . . الباعث على الابتهاج : « ترى من مريض اليوم ؟ .. أهى السيدة أم السيد ؟ .. أرى أنه لا هذا ولا تلك ، فكلكما يشع ببريق الصحة الكاملة ، مما يجعل الطبيب يخجل . . أنه ربيع في الظاهر ولكنه صيف في الداخل ! » . واقبل عليهما الدكتور روب وهو في دهشة مما بدا على وجهيهما من شحوب وامتقاع ، ولما خيل إليه أنه يستنشق في الهواء من دخان قلوب تحترق . . عاد يقول : « كائى بالملابس البيضاء تغرى بالنزعة في القارب وتناول الوجبات في الخلاء . . واني لأراك - أينما المرضة جرائ - قد طرحت عنك المعطف الصوفى ، وعدت إلى الثياب الزرقاء الجميلة . . أنها تناسبك جدا ولا ريب ، ولكن حذار من البرد ، واحرصى على التغذية الطيبة ، لأن مثل هذا الجو يستلزم الإكثار من الغذاء ، لا سيما بعد أن فقدت أخيرا جزءا ملحوظا من وزنك . . فتحن لا نريد ممرضات قصيرات ، نحيفات ! » .

وهنا سألها جارث بلهجة يسودها الكبر : « لماذا تعير الأنسة جرائ دائما بأنها ضئيلة الجسم يا دكتور روب ؟ أنا موقن من أن قصر قامتها لا يعيها ولا يلحق بها ضررا ما ! » . فقال الطبيب : « سأعيرها بأنها طويلة ، إذا راق لك ذلك » . ونظر إليها ، ثم غمز بعينه في خبث ، بينما كانت واقفة لدى النافذة بقوامها المشقوق ، وقد وجهت إليه نظرة امتعاض .

فقال جارث في شيء من الصراحة : « بل أفضل ألا أسمع تعليقاتها عن مظهرها الشخصى ! » . ثم أردف بلهجة أخف وقعا : « أنك تدرك أنها مجرد صوت بالنسبة لى . . صوت رقيق يتودنى ويهينى . . لقد شغل بالى في أول الأمر أن انبث لها صورة ذهنية غامضة غير واضحة . . أما الآن ، فأنى أفضل أن أقيس كل شيء أعلمه عنها « بقياس ما تقدمه لى من عون » واترك ما لا أعلمه دون ما تصور . . هل خطر لك مرة أنها الشخص الوحيد - واستقط من الحساب ذلك الفتى جونسون ، لأنه يذكرنى بعهد الكوابيس الذى أعمل على نسيانه بسرعة فائقة ! - أريد أن أقول أنها الشخص الوحيد الذى يلزمنى وأنا ناقد البصر ، دون أن أكون قد رأيته ؟ . . وأن صوتها هو الصوت الوحيد الذى أسمعه ولا أقوى على أن أتمثل له جسما ووجها . . ومع الوقت طبعما ، سيكون حسولى كثيرون . . أما الآن فأنها الوحيدة التى تلازمنى ! » .

ودارت عينا الدكتور روب الناظمتان ترمضان كل شيء « وتنقبان في كل ركن - أثناء حديث جارث - عسى أن تهتديا إلى شيء تنصرفان إلى فحصه - وفجأة « وقمت عيناه على المنضدة . فقال : « عجبا ، الأهرام ! » . طابع البريد المصرى ؟ . . أنه طريف . هل لك أصدقاء هناك ؟ . . فاجابه جارث : « لقد وصل هذا الخطاب من القاهرة ، ولكننى اعتقد أن الأنسة شامبيون قد ذهبت إلى سوريا » .

وراح الدكتور « روب » يعيث بشأريه « وهو يخلق مفكرا . . « شامبيون » ؟ . . « شامبيون » ؟ . .

اسم غير شائع .. ترى ، أتكون كاتبة هذا الخطاب ، هي النبيلة جين ؟ . - فاجاب « جارت » في دهشة وقد ارتجفت نبرات صوته : « هذا الخطاب منها حقا .. هل تعرفها ؟ » . فاجابه الدكتور « روب » في تفكير وروية : « أجل .. اعرف وجهها » واعرف صوتها ، واعرف تكوينها ، واعرف الكثير عن شخصيتها .. اعرفها في داخل الديار ، واعرفها في القرية .. لقد رأيتها تحت نيران لا يحتملها اكثر معارفها من الرجال .. ولكن شيئا واحدا لم اعرفه حتى اليوم ، وهو خطها .. مهل لى ان التي نظرة على الغلاف ؟ » . ثم دار نحو النافذة .. لقد اراد الطبيب الاسكتلندى الشهم ان يستشف رأى الممرضة « روزمارى جراى » ولكنه لم يجد أمامه سوى ظهر عريض في ثوب أزرق .. فان الممرضة روزمارى كانت مستغرقة في تأمل الطبيعة ، خلال النافذة . وارتد الطبيب إلى جارت الذى اوما بالموافقة على ان يتناول الرسالة ، وعلى وجهه رغبة مشوقة إلى سماع المزيد ، وإعراض طاغ عن ان يطلب ذلك . فآخذ الدكتور ماكينزى الغلاف . فانعم النظر فيه ، وقال اخيرا :

- نعم ، انه صورة منها .. واضح ثابت ، غير مقذذب ، وكأنها تعلم جيدا ما تريد ايضاحه ، فهي تفضى به . وتسد الكلمات إلى معانيها فتبلغها .. أجل يا بنى ! انها امرأة عظيمة .. ولو أنك ظفرت بصداقة النبيلة جين لاستغنيت عن كثير من الاشياء ..

وتضرجت وجننا « جارت » الفاحطان وتبدى عليه

الشوق فلقد كان - في الظلمة التي أحاطت به - يعانى جوعا شديدا ، لفرد حاجته إلى سماع كل ما يقال عنها من العالم المضيء الذى تعيش وتتحرك فيه .. إذ كان اليأس قد داخله من سماع صوتها .. وما يرى - طيلة هذه الأثناء - ان « روبى » الكهل كان يستطيع ان يحدثه عنها .. وكان كل ما يسمه هو الاستفسار عنها من الدكتور براند في حيلة شديدة ، حتى لا يكشف سره وسرها .. أما مع الدكتور « روب » والممرضة « جراى » ، فلم تكن به حاجة إلى هذه الحيلة ، بل كان بوسعه الاحتفاظ بسر « والاصفاء » إلى حديثهما . والتحدث إليهما . لذلك لم يلبث ان تسأل قائلا : « اين .. ومتى ؟ » .. فاجابه الدكتور روب : « سأخبرك متى .. إذا كنت تميل إلى سماع قصة من قصص الحرب ، في صباح مزدهر ببهاج الربيع » .

واشدت اوار الشوق بجارت ، فقال : « اجلس يا دكتور ، وعسى ان تكون الأنسة جراى جالسة ! » . فاجابه الدكتور روب : « لا أريد مقعدا يا سيدى ، لأننى حين اعززم الاستغراق في الاستمتاع بفصاحنى ، أؤثر ان أظل واقفا .. أما الممرضة جراى فليست بها حاجة إلى مقعد لانها متقف في النافذة سابعة في جمال الطبيعة - ومن الواضح انها كتبت عن الاهتمام بك أو بى - ونادرا ما نجد امرأة تبدى اهتماما بها يروى عن امرأة أخرى .. أما انت يا بنى ، فلك ان تضطجع في مقعدك ، وتشمل لفافة « وتدفن » إذ يظن لى ان نراك تفعل ذلك - فهو خير من ان تدق الحائط بيدك .. »

بأننا مدينان به إلى السيدة التى تفضى الطرف عنا ، وتفضل علينا جمال الطبيعة . ويعلم الله اننى لست بالذى تلذ رؤيته ، فى حين أنك أمامها ، غمى تراك طوال اليوم .. ياله من صنف فاخر هذا الذى تدخسه ! أى نوع هو ؟ .. " زينيت " .. آه ، صفع ماركوفيتش ؟ .. انه نوع لا يفضل به أى نوع للتدخين فى حجرات الاستقبال وفى الحدائق .. حيث يختلط عير اللفافة بالزهور .. استلق فى مقعدك ، وتلذ بتدخينها ، أما أنا فدعنى أستنشق دخان البارود .. واصغ إلى فساقص عليك اين رايت النبيلة جين لأول مرة .. فى جنوب إفريقيا ، فى خضم معارك البوير ، وكنت قد تطوعت لاكتسب مرانا فى الجراحة . أما هى ، فكانت تعمل فى التمريض . وإذا قلت التمريض ، فثق بأننى اعنى المعنى الصحيح لذلك العمل .. لم يكن به شئ من إغراق المتبادل الحريية الرقيقة بهاء الكولونيا ، وغسل الوجوه بها ، بعد أن يكون الخدم قد غسلوها من قبل .. والتلف فى الحديث إلى الناقمين ، والفرار فى هلع من الموتى أو من المحتضرين .. ثق انه لم يكن هناك شئ من هذا ، وما كانت تسمح به فى مستشفاهها ، إذ أن الأنسة شامبيون كانت صاحبة الأمر هناك ، وأؤكد لك أن الممرضات كن يوقرنها أى توقير . وكانت تقوم بعمل عشرة أشخاص ، وتريد من سواها أن يحضو حذوها . وكان الأطباء والممرضون يعبدون لها .. وكانت تنادى دائما باسم « النبيلة جين » .. وكذلك الجنود الجرحى ! كم من فتى هناك ، كان نائيا عن الديار والأصدقاء ، حتى إذا واثا الموت ، مات وعلى

شغفيه ابتسامة ، وشعور بأن امه وداره قريبان ، لأن ذراع « النبيلة جين » كانت تحوطه .. ولأن رأسه المحتضر كان ملقى على صدرها الحنون .. ويا لصوتها وهى تحدثهم ! .. كلا ، انفى لن أنساه أبدا ! .. لقد كانت تكلم النساء بصوت حاد ، وتصدر أوامرهما إلى الرجال .. ثم تتحول لتتكلم إلى جندى مريض وكأنها أمه أو حبيبته ، فكان هذا النغم السريع درسا بما أزال أفيد منه حتى الآن ! .. أما قلبها الكبير المحب ، فلا بد أن الألم كان يعتمره كثيرا .. ولكنها كانت دائما منجلدة . ومشرقة ، فلم يكن لها جلدها سوى مرة واحدة . وكان ذلك من أجل فتى .. شاب حدث ، حاولت جهدها أن تنقذه ، ووقفت بجواره أثناء العملية الجراحية التى كانت الأمل الآخر لنجاته ، فلما تبين عدم جدواها ، واستلقى الفتى على صدرها غافد الصواب ، تداعت متهالكة وهى تقول : « أواه يا دكتور .. انه مجرد غلام .. كيف يتعذب إلى هذا الحد ، ثم يموت هكذا ! » .. وضته بين ذراعيها . وراحت تبكيه كما لو كانت أما تكلى . لقد ذكر لى الجراح ذلك بنفسه ، وقال أن أقصى قلب .. فى الخيبة - تائر ولان . ولكنها كانت المرة الوحيدة التى خارت فيها قوى النبيلة جين ! ..

وضع جارث يده على وجهه ، وقد أفلتت السيجارة من يده نصف محترقة ، فسقطت على الأرض .. بينما شددت يده - التى كانت بها السيجارة - على ركبتيه لئلا يهتز عصبه . فالتقط الدكتور « روب » اللفافة ..

التي أحدثتها في السجادة ، ثم التفت إلى النافذة ، حيث كانت الممرضة « روزماري » قد اتجهت اليهما ، وهي مستندة إلى حافة النافذة . غير أن نظرها لم يتجه إلى الدكتور « روب » ، وإنما استقر على « جارش » في تطلع ملهوف . واستأنف الدكتور روب حديثه قائلاً : « لقد التقيت بها عدة مرات ، في مراكز أخرى ، ولو أننا لم نكن في قسم واحد . وتحدثت إلى مرة واحدة » . وكانت قد سارعت من مركز الاستعاف المؤقت — الذي كان مكتظاً بالوافدين ، وكنا نعالج فيه أسوأ الحالات الوافدة من الميدان — إلى المستشفى الرئيسي في المدينة ، لأحضر كبة جديدة من « الكلوروفورم » . . . وبينما كانوا يعدون لي طبيباً ، مررت بقاعة المرضى ، وإذا بالآنسة تسامبيون جاثية — في ركن من أركانها — بجوار رجل حانت ساعته الأخيرة ، وهي نكله في هدوء ، وتعمل — في ذات الوقت — على تخفيف آلامه . . . وفجأة انبعث دوى يصم الأذان ، وتلاه دوى آخر . وإذا بالنبيلة جين ومريضها قد غطتهما الانقراض والأتربة ، إذ سقطت قبلة من البوير فوق النقطة التي كانا نحتها نهما من السقف . فانتصب المريض جالساً وهو يصرخ فزعاً . وما كان المسكين ليلاهم وهو في النزاع الأخير ، نصف مخدر الحواس . أما النبيلة جين ، فلم تتحرك شعرة من جسدها ، بل قالت له : « ارقد يا رجل ! » . فاجابها بانكيا : « ليس هنا » . فاجابته النبيلة جين : « حسناً ، سننظفك من هنا حالا ! » . . . ثم أدارت وجهها يرائشي ، وكانت مرتدياً ثياباً رثة من « الخاكي » ، التقتظنا دون وعى من الخيمة عند حضوري للمهمة . كما كنت مغفراً من

جاء رحلتي المتعجلة . وقالت لي : « أسمع أيها الجاويش . . . ساعدني على نقل هذا المسكين ، فليست أرضى له الإزعاج في هذه الفترة بالذات ! » . . . كان هذا كل ما صدر من جين عقب سقوط قبلة على بضع يارادات من رأسها ، فهل يدعشك أن يعيدها الرجل ؟ وبعد ذلك وضعت يديها تحت كتفيه . ثم أشارت لي بأن أرفعه من تحت ركبتيه ، وحملناه غيماً بيننا عبر ردهة قصيرة في نهايتها ستار يؤدي إلى حجرة هادئة صغيرة . لم أكن أتوقع أن أراها « وبها فراش مريح ، وبعض الصور والكتب المنسقة على منضدة الزينة . ثم قالت لي : « لنضع هنا أيها الجاويش ! إذا سمحت ! » . . . فوضعتها فوق الفراش . وسألته عن صاحب الحجرة ، فأبدت دهشها من سؤالي ، حتى إذا أنشئ غريب عن منطقتها ، أجابت بأدب : « أنها حجرتي ! » . . . ثم التفتت إليه ، ووجدت أنه قد دخل في دور الغيوبة ، فاضافت قائلة : « وستنتهي حاجة المسكين إلى الفراش ، قبل أن احتاج إليه ! » . . . فنامل هذه الأعصاب العجيبة . . . هذه هي المرة الوحيدة التي تحدثت فيها إلى النبيلة جين . . . وما لبثت مدة تلوعى أن انتهت . وعدت إلى الوطن .

ورفع جارش رأسه وسأله : « ألم ترها بعد ذلك في بلادنا ؟ » . فاجابه الدكتور روب : « نعم رأيتها ، غير أنها لم تذكرني ، ولم تبت عليها بادرة معرفة . وكيف كان يمكنني أن أنتظر ذلك منها ؟ . . . لقد كنت — يوم رائتي في الميدان — ذا لحية ، إذ لم تكن إزالة اللحية ميسورة هناك ، لضيق الوقت . . . وكانت

سترتى حيثذاك تدل على أنتى جاويش ، ولست جراحا . فلا لوم عليها إذا لم يخطر ببالها أن تلقى فى حى بيكاديللى زميلا فى الحرب ! .. وبتر روب حديثه ، ثم قال : « أما الآن وقد أنهت ما تسجته من حديث طويل ، فعلى أن أسارع إلى كوخ البستاني فى غابلك ، لأعود زوجتي الطيبة ، التي تعاني مايسميها هو « مضاعفة » ، وهندي أن « نقص » هو التعبير الذي ينشئ مع حجم كوخه ! .. على أنني أريد - قبل ذلك - أن أتحدث إلى السيدة مارجرى فى حجرة الطعام .. فهي قلقة لأنها لا تقوى على أكل لحم الخنزير ، زاعمة أنه يطير بين كتفيها .. وهو شذوذ عجيب - من لحم الخنزير - عن الطريق الطبيعى ، ويحتاج إلى فحص دقيق .. فإذا سمحت لى استدعيت السيدة الطيبة ! » ..

وهنا ترمى إليه صوت هادئ من ناحية النافذة : « لم يكن الوقت بعد يا دكتور ، فانى أريد أن أدخل إليك فى حجرة المائدة ، وسأنتبئك إلى هناك حالا .. وبعد أن أحدثك ، سأنتهز فرصة فحصك « مارجرى » لأرتدى قبعتى وأسير معك فى القنابة . هذا إذا لم يمانع السيد دالمين فى البقاء وحيدا لمدة ساعة ! » ..

وعندما وصلت « جين » إلى حجرة المائدة ، كان الدكتور روبرت ماكينزى واقفا على سجادة الدفأة ، وثقة نابوليونية .. تنابها كما استقبلها يوم وصولها . وعند دخولها ، القى عليها نظرة متشككة ، ثم قال : « حسنا .. هل ادفع الأجر للزمار ! » .. فندنت منه جين وبدأها بمسوطتان ، وهى تقول :

« آواه أيها الجاويش .. أيها الجاويش الكهل العزيز الود .. أرايت ما يترتب على ارتداء ثياب شخص آخر ؟ أن مشكلتى قد نجت عن انتحال اسم امرأة أخرى .. وإن فقدت عرفتتى طوال هذه المدة » منذ أول لحظة خطوت فيها إلى حجرة المكتبة ؟ « فاجابها الدكتور روب : « منذ أول لحظة خطوت فيها إلى الحجرة ! » .. فسألته جين : « ولم لم تبين لى ذلك ؟ » ..

— لقد استخلصت من انتحالك اسم الممرضة روزمارى جراى ، أن لديك أسبابا قوية تستلزم ذلك ، ولم يكن من اختصاصى أن استعلم عن حقيقة شخصيتك ..

— وأها لك أيها العزيز ! .. هل وجدت يوما مثل هذا الذكاء ، ومثل هذه الحكمة ، ومثل هذا النظر البعيد الذى يذهل العقل ، مستقرة على ساقين فوق سجادة الدفأة ؟! وعندما أذكر كيف قابلتنى بقولك : « إذن فقد وصلت يا ممرضة جراى » ، أتصور أنك كنت تردد فى نفسك : « كيف حالك يا آنسة شامبيون ؟ .. ما الذى أتى بك إلى هنا منتظرة اسم شخص آخر » ..

فاجابها الدكتور روب وهو ساهم : « لقد كان ذلك محتملا جدا ، ولكننى لم أنطق بقىء من ذلك ، والحمد لله ! » .. فسألته جين : « ولكن بريك تبئنى ، ما الذى دعاك لأن تبسوح بالامر الآن ؟ » .. فوضع الدكتور روب يده على ذراعها ، وقال : « اننى رجل عركته السنون يا عزيزتى ، وكان ديدنى طيلة حياتى أن اتهم الأشياء قبل أن تنطق .. لقد مرت بك أيام مضنية أنهكت قواك .. » ..

يشد حينا ويهون حينا ، دون راحة أو تنفيس .. إرهاق لا تعليقه سوى قلة فادرة من النساء . لا بسببه هو وحده ، وإنما لأنك كنت مضطرة إلى التزام الحذر معنا جميعا .. ولقد أدركت منذ اللحظة الأولى ، أنه لا بد لك - إذا أردت الاستمرار - من شخص نقضين إليه بهذا السر .. شخص يمكنك أن تكشف له جلية نفسك من أن إلى آخر .. ولما اكتشفت أنك كتبت له هنا ، وأرسلت الخطاب ليلقى في بريد القاهرة - وهو إجراء لا تقوى عليه سوى المرأة التي تناضل بعوضه بعد أن ابتلعت جملا - وأنت لبثت أياما طويلة بتواليه تترقبين وصول الخطاب ، حتى إذا وصل اضطرت لأن تقرأ عليه رسالتك بنفسك ، وتكتب الرد الذي أملاه عليك « والذي قرأت سطره على وجهك عند دخولي الحجرة ، وأدركت أنه رفض حضورك إليه .. عند ذلك أيقنت أن الساعة قد أزفت ، لتجدي بجوارك مسديقا يشترك معك في سر ، وتبوح له بمكنون قلبك .. وذلك الصديق الكهل مثل غيره من التقوا بك في جنوب إفريقيا ، يستشعر أكبر سعادة إذ يمد يده اليمنى إلى النبيلة جين ! »

منظرت إليه جين « وعيناها تنطقان بمرقان الجميل ، إذ انعقد لسانها ، وأخيرا قال لها الدكتور روب : « ولكن أخبريني يا عزيزتي ! إذا استطعت .. ما السبب الذي يدفع فتانا المحبوب » لأن يصد عنه - في عناد وتصميم - ذلك الذي هو خليف بأن يكون عظيم القيمة ، رائع الأثر ، تقديرًا على إدخال المعزاء والخير على نفسه « إذا كان من حقّه ان

يتشده ؟ » . فأجابته جين : « أوام يا دكتور .. ان الأمر قصة ملينة بعمد الاطمننان والأخطاء المحزنة .. وواحسرتاه ، لقد كان عدم الاطمننان والأخطاء من جانبي ! .. وإلى أن تنحصر « مارجرى » أكون قد تهيأت للقرى ، ففسر معا خلال الغابة ، وسأبدل ما يوسمى لأسرد لك الأمر تفصيلا ، وأبين لك المشكلة المحزنة التي قامت بيني وبينه ، وفعلت حياتنا بهذا البسمد التاسع .. ولست أسند العون من نصحك الغالي الحكيم ، وسأهديني فكرك الثاقب ومعلوماتك الثمينة بطبايع الرجس والقلوب البشرية ، إلى منفذ للخروج .. لأننا ولا ريب بحصوران بين المجدل والبحر ! »

وبينما كانت جين تفتار البهو ، وتهم بمعود السلم ، ألقت نظرة على باب حجرة المكتبة المطلق .. وتولاهها جزع عجلى ، خشية أن يكون الانصلت إلى قصة الدكتور «روب» قد أنك اعصاب « جارث » . فما كان لها أن يدرك الذكريات التي توقظها رواية قصص الجنود الذين كانوا يوتون وقد وسدوا صدرها رؤوسهم ، والمصادفة العجيبة التي جعلت الدكتور روب يذكر في قصته تلك العبارة : « أنه مجرد غلام كيف يتعذب إلى هذا الحد ! » .. وراحت أنها لا تقوى على الخروج قبل أن تستوثق من سلامته . ولكن خوفا غريزيا جعلها تخشى أن تتطفل عليه ، وهو يعتقد أنه سيملك وحيدا لمدة ساعة ! وإذ ألح عليها الفلق ، بادرت إلى ما لم تأق من قبل ، فتحت الباب الخارجى بكل عزم ، فارت حول

الدار إلى الشرفة ، فلما دنت من النافذة المطلة على حجرة المكتبة ، خطت فوق الحشائش اللينة حتى بلغت النافذة متكئة خطاها ما استطاعت ! أبدا لم تفلص عليه من قبل ، إذ كانت تعلم أنه بكره — بل يهت — مجرد التفكير في التطفل المستخفى على وحدته ، ولكن .. لتكون هذه المرة محسب ! .. وأطالت خلال النافذة .

كان جارث جالسا ، موليا النافذة جانبه ، وذراعه مطويتان على المنضدة المجاورة له ، وقد دفن وجهه فيها .. وكان يجھش منتحيا ، كما سمعت — من قبل — بعض الرجال يجھشون عقب العمليات الجراحية المؤلمة .. بكاء صامت يستمر إلى أن يفضضوا أوجاعهم .. وكانت زفرات جارث الموجمة « تتعلق بهذه الكلمات : « آواه يا زوجتى .. يا زوجتى .. يا زوجتى ! » .

وأسرعت جين بالابتعاد في حذر ، دون أن تدري كيف أمكنها ذلك . ولكن غريزة في أعماقها ، بأنها خليقة بان تفسد كل شيء ، إذا هي كسفت عن نفسها — إذ ذاك — وغاجتها في حال لا نطق به « وقد حركت قصة الدكتور «روب» شجونه وأفقده صلابة الرجلولة .. وراح صوت دريك يدوى في رأسها : « إذا كنت تقدرين ثمة سعادته وسعادتك الدائمة .. ! » . ثم إن الأرجاء كان قصر الأمد « ولن يلبث أن يفكر في هدوء وسكينة — بعد هذه العاصفة — فيقلب عليه الشعور بحاجته إليها .. ومن الممكن تنقيح الخطاب — الذي لم يرسل بعد إلى البريد —

ليذكر فيه كلمة واحدة : « احضري » .. فإن هي إلا دقيقة حتى يكون في أحضانها !

وهكذا أبعدت عنه ، دون أن تحدث صوتا !

وعانت بعد ساعة من نزهتها مع الدكتور روب — وقلبها مليء بالأمل والانتبشار — فوجدت « جارث » واقفا في النافذة ، منصتا إلى الأصوات العديدة ، ليترب أذنيه على التمييز بينها ..

وبدا مرهف العود ، طويلا ، في ملابسه الصوفية البيضاء ، وقد دس يديه داخل جيبي سترته ، حتى إذا أصبحت على مقربة منه ، استدار إليها . وخيل إليها أن عينيه البراقنتين ما تزالان موجودتين ! .. وسألها : « هل الجو سديع في الغابات ؟ .. سيأخذني سهمون هناك بعد الغداء . وحتى ذلك الوقت ، هل لديك وقت لكي ننم عمل الصباح ، إذا كنت لا تشعرين بتعب يا آنسة جراي ؟ »

وألمى عليها خسة خطابات ، كما حررت تحويلا مصريا . واستلثت نظر جين عدم وجود الخطاب الذي وجهته إليه ، بين الخطابات الأخرى . أما خطابها الذي أملاه عليها ، فكان فوق المنضدة معدا للبريد . فترددت وقالت : « وماذا تنوى العمل بالخطاب المكتوب للآنسة شامبيون ! .. هل تبغى إرساله كما هو يا سيد دالمين » . « غاجيا : « طبعاً .. أما انتقيا منه ؟ » .

الفصل الثالث والعشرون

عندما هبط الدكتور دريك براند على رصيف المحطة الشمالية الصغيرة ، التي بنظرة على الرصيف المرفوف بالحصى ، وهو شبه موقن بأنه سيرى جين .. وكانت الساعة مبكرة ، ولكنها اعتادت أن تقول عن أى مشروع يستدعى اليقظة : « هذا أفضل كثيرا ! » . ولم يكن البصر يقع على شيء اللهم إلا حقيبة ملابسه على مسافة منه ، وكأنها احتلت — حيث أودعها حارس القطار — مكانا منعزلا ، ذاتها .. وفيها عدا الحقيقة ، لم يكن هناك سوى جمال بطيء ، كان يسير متهاديا وقد غافله أن كان الوحيد المكلف باستقبال القطار .. كذلك لم يفادر القطار راكب سوى الطيب ، فلم يكن أمام الجمال متاع سوى حقيقة .. وتعلق حارس القطار بعربيته ، عندما تحرك القطار ، فوقف الجمال يشاهده ، وقد بسط راحته فوق عينييه ، انقاء لأشعة شمس البكور ، حتى اختفى القطار عن بصره . وإذا ذاك ، تحول الجمال وتبدأ إلى الناحية الأخرى ، ليفتأكد من عدم وجود مسافرين آخرين .. ثم انح حقيبة الملابس ، فصار مشكما نحوها ، وانحنى فاحصا إياها وهو يفكر ، ثم دار حولها ليقرأ أسماء وبطاقات الفنادق المخططة التي تنقلت الحقيقة بينها مع صاحبها في أنحاء القارة .

ولم يكن من عادة الدكتور « براند » أن يفزع الناس ، بل كان يقول : « ان تركهم يستغرقون الوقت إلى غير الإلزام ، بشر

« ظننت ان .. » . نطقت جين بالكلمتين في لهجة عصبية ، وهى تشيح بعيدا عن وجهه الصامت ، ثم اضافت : « ظننت ان .. بعد قصة الدكتور روب .. ان .. ! » . نقاطهما جارت قائلا : « ليس لقصة الدكتور روب أن تحدث أى تغيير أو تعديل بصدد قبولي حضورها إلى هنا أو عدم قبولي ! » .. نطق جارت بهذه الجملة وهو يضغط على كل كلمة ، ثم أضاف في لهجة أكثر رقة : « إنها نقط ذكرتنى .. فسالته جين ويدها تضغطان مدرها : « ذكرتك بماذا ؟ » . فقال « جارت » وهو ينفث نفسا طويلا من الدخان ، في هواء الصيف : « بدى عظمة هذه المرأة وجلالها ! » .

خير النتائج ، على مر الزمن . . ان الدقيقة او الدقيقتين اللذين تكسبان بمجملهم ، نروجان سدى في النتائج النهائية ! » . .
غير ان هذه النظرية قد تصح مع المرضى في حجرات الفحص ، او طلبه الطب المحسنين في المستشفيات ، او الممرضات اللاتي يشند بهن الارتباك عندما يفتبن - في بداية عهدهن - إلى انه كان يوجه الحديث إليهن . وقد ادت به عادة إهمال الناس - حتى في لحظات اضطراره إلى العجلة - إلى ان فقد معطفه مرة . . كما كاد يتخلف عن اللحاق بقطار ، في مرة أخرى ، بيد انها اكسبته اعز شيء كان يشتهي في الحياة . . ولكن لهذا قصة أخرى .

وكان مشوقا إلى تناول الفطور في ذلك الصباح الربيعي البهيج ، كما كان يصبو إلى ان يرى « جين » ، فلما لم يقترب منه الحال والجقية ، قلع الطبيب رميف المحطة بخطوات واسعة ، وقال : « وبعد ، ايها الرجل ؟ » . فاجابه الحال الاسكتلندي : « ماذا تريد يا سيدى ؟ » . فقال : « اريد حقيقة ثيابي » . . وسأله الحال مسترياً : « اتكون هذه حقيقتك ؟ » . وكان جواب الطبيب : « اجل . . ولا بد لها ولى من ان نطلق إلى قصر « جلينيش » ، إذا تكلمت يحلها إلى السيارة التي أراها في الانتظار ، خارج المحطة » . « مسرد الحال : « سأحضر عربة انقل الحقيبة عليها » . ولكنه عند مودعة - وهو يجز العربة خلفه بكل حرص - وجد ان الطبيب وحقيقته والسيارة قد اختفوا . . فظل الحال صنيبه بيده « ونظر إلى الطريق مثلاً : « لست املك سوى ان امل ان تكون الحقيبة حقيقته ! » . ثم عاد إلى مقوره لا

وفي اثناء ذلك ، كانت السيارة تصعد القلال مسرعة بالطبيب ، وذهنه متحفز شوقاً ولهفة إلى لقاء « جين » ، حتى يعلم منها التطورات التي تمت في الايام الأخيرة . . وقد ملا قلبه القلق لعدم حضورها لاستقباله بالمحطة . فقد كان خليقاً بها ان تسارع إلى لقاء « منتهزة الفرصة لتتبادل معه الحديث على انفراد » قبل بلوغها القصر . . وكان قد تمثلاً - قبل وصوله - في صورتها الحية ، وهي تنتظره على الرصيف ، مشرقة الوجه ، نشيطة الحركة ، ثابتة الخطوات ، قوية . . تلك القوة التي تفيض صحة ورواء ، والتي تنبع عن استجمام ونوم عميق في الليل ، ومقطة بهيجة مبكرة وحمام بارد بمنمش . . وبمض الاسى لعدم التقائه بها ، نذيراً غريباً في اعماقه . ترى هل خارت اعصابها تحت ضغط الارهاق المصني ؟

وعرجت السيارة حول منح في الطريق ، فإذا أبراج جلينيش المسراء تبدي لمعينه « على قمة الجانب الآخر من الوادي ، كما ظهرت منطقة المستنقعات ممتدة أمام السيارة وظلها . واستطاع الطبيب ان يرى في ضوء الصباح - عندما اجتازت السيارة الوادي « وصعدت في طريق المستنقعات - حديقة (جلينيش) الكبيرة ، وشرفته وما كان يحيط بها من أحواض الزهور الزاهية ، والطرقات المرصوفة بالحصى الدقيق ، والسياح الحجرى المريض ، الذي يكاد يكون في وضع رأسه بالنسبة للوادي السحيق . فلما وصل ، استقبله « سيمون » عند مدخل القصر . وكاد الطبيب ان يسأل عن « السيدة ماربون » ،

ولكنه سارع إلى ضبط نفسه ، وقد ذكره هذا التهور الذى كان يفضى إلى زلة شنيعة ، إلى ما كان مفروضا عليه من حرص فى انتقاء الكلمات التى يتفوه بها والتصرفات التى ياتى بها فى هذه الدار ، حيث نجحت « جين » فى أن تسد خطواتها بهارة فائقة ، فى طريق شاق ، وعمر .. وما كان ليصنع عن نفسه « لو أنه زل !

وقال سيمون : « ان السيد المين فى المكتبة فى انتظارك ، يا سير دريك » . فسار الطبيب بخطوات نشيطة ، وذهن صاح ، فى أثر الرجل ، عبراً البهو .

نهض جارث من مقعده ، ومقدم ليلقاء باسما بيده اليمنى ، وقد ارتسمت على وجهه بسمة الترحيب ، ولازمه فى كل حركة ثبات وثقة وعدم تردد ، مما دعا الطبيب إلى أن يصوب نظره نحو الرجل الضريع ، ليستوثق من أن صاحب هذا القوام النحيل المشوق ، السريع الحركة ، هو بذاته المريض الأعلى الذى جاء لزيارته . واستطلعت نظره شريط حريرى بنى اللون ، ممتد من فراع مقعد جارث إلى الباب ، ليتلمسه الشاب بيده اليسرى مهتدياً به فى سيره .. ووضع الدكتور يده فى اليد التى امتدت نحوه ، وشد عليها فى حرارة قائلا : « أى تحول طراً عليك يا صديقى العزيز ! » . فاجابه جارث مبتهجا : « البس كذلك ؟ » . كل هذا قد تم بفضلها هى .. المرأة الكاملة الصغيرة التى أرسلتها إلى .. دعنى أخبرك بأنها أعظم من أن توصف بأنها من الطراز الأول ! .. وكان — فى تلك الأثناء — قد عاد إلى

مقعده ، ثم عثر على المقعد الثانى الذى كانت جين تجلس عليه ، فقدمه إلى الطبيب . وأشار إلى الشريط الحريرى قائلا : « هذا من ابتكارها ! » .

ثم فك الشريط وتركه ينزلق إلى الأرض . فلم يبق منه إلا خيط رفيع معلق بيد المقعد ، سهل به أن يستعيد الشريط كلما أراد الاستعانة به . ثم قال : « وهناك شريط آخر غير متصل باليانو . وثالث يتصل بالنافذة .. والآن قل لى ، كيف نغير بين الأشرطة ؟ » . فاجابه الدكتور : « ان أحدها بنى ، والثانى أرجوانى ، والثالث برتقالى ! » . فنهض جارث : « أجل ، أنك نعرفنا من ألوانها .. أما أنا فاهتدى إليها بفارق بسيط فى سمك كل شريط ونوع نسيجه ، لا تكاد تتبينه عينك ، ولكننى أميزها باللمس . وما يسرنى أيضا التفكير فى ألوانها .. وكثيراً ما ارتدى أربطة العنق وغيرها ، بحيث تتناسق مع ألوان الأشرطة .. أرايت كيف أعرفها ؟ وما كان هذا الابتكار ليصدر عن غير هذه السيدة ، فهذا هو طابعها ، إذ هى تتذكر كل شيء .. أن أية ممرضة عادية قد تضع أشرطة هراء وخضراء وزرقاء ، فكنت — إذ ذاك — أجلس وأنا كاره مجرد التفكير فى ألوانها ، مدرك بدى بشاعة ثباين ألوانها الصارخة مع سجادتى العجيبة .. أما هى ، فتعلم جيداً ما للألوان من أهمية لدى ، ولو لم يكن فى استطاعتى الفطر إليها ! » . فاجابه الدكتور قائلا : « يمكننى أن أتهم أنك تقصد بذلك الممرضة روزمارى .. كم أنا سعيد برضاك عنها وبنجاحها فى مهمتها ! »

نصاح جارث قائلا : « نجاح ! » . لقد أعادت لى الحياة .

وانى ليفيض بى الخجل كلها فذكرت ما انحدثت إليه وما صدر عنى ، فى .. آخر مرة زرتنى فيها يابراند .. لم اكن املك سوى أن أدق الحائط بيدي .. كما يقول روبى الكهل .. لا بد انك قد خلقتنى أحق مخبولا ! » . « فقال الطبيب : » ما فكرت فى شيء من ذلك يا صديقى العزيز .. فلقد كنت تخوض معركة قاسية ، لم يسبق لأحدنا أن كابد مثلها ، والحمد للخالق إذ قدر لك أن تنتصر ! » . وقال « جارث » بحرارة : « اننى مدين بالكثير إليك يابراند ، وبأكثر منه للأنسة جراى ! .. كم كنت أود لو أنها كانت هنا لتقابلك . ولكنها رحلت فى عطلة نهاية الأسبوع ! » . فصاح الطبيب : « رحلت ج .. عند حضورى ؟ » . وكاد يفرلق مرة أخرى ، فذكر اسمها :

— نعم لقد سافرت مساء أمس ، لتقضى عطلة الأسبوع فى بلد مجاورة .. أبلغتنى أنها لن تكون بعيدة عن هنا ، وأنهما ستمود لتكون معى فى ساعة مبكرة من صباح الاثنين .. ويخيل إلى أنها فى حاجة إلى تبديل المناظر ، وقد رأت فى حضورك فرصة سانحة ، إذ ساستعيق معى أكثر الوقت .. وانى لاعتقد حقاً يابراند أنه كرم يفوق كل حد ، أن تقطع كل هذه المسافة لترأتى . أنه لصنيع فوق كل تقدير « من رجل مثلك ! » .

— يجب ألا تبالح فى تقدير ذلك يا عزيزى . وإذا كنت فى الواقع قد حضرت لأراك ، فأنها قصدت — فى ذات الوقت — أن أرى أحد أصدقائى القدامى ، وهو يقيم قريبا من هنا ، لانتى بهم بلمره . وأنه يهمنى جدا .. ولمست أذكر لك ذلك ، إلا لاكون

نزيتها تملأ ، وحتى أرفع عنك كل عبء قد يثقلك إذا شمرت لك مريضى الوحيد !

فاجابه « جارث » : « شكرا لك .. ان هذا يخفف من وخزات ضميرى ، ولكنه لا ينقص من عرفانى بالجهيل لك .. والان ، لا بد أنك بحاجة إلى إزالة وعشاء السفر ، وتناول الفطور » وقد احتجزتك عن الأمرين يانائيتى .. قل لى يابراند .. ثم نوردت وجنتا جارث كأنه غلام غريب ، وأنتم قوله بعد تردد : « لشد ما يؤسفنى . ألا تجد زميلاً بشاطرك الوجبات ، لغيايب الأنسة جراى ! .. ولست أحب أن أفكر فى أنك ستتناول طعامك وحيدا . أما أنا ، فأننى أتناول طعامى دائماً بمفردى .. ومسسون يقولى مساعدتى فى ذلك » .. ولم يقدر له أن يرى مسبعة الأسى السريعة ، التى غابت على وجه الطبيب « ولكن العطف والإدراك اللذين تمثلا فى لهجته — وهو يقول : « آه » أجل .. حقاً ، طبعاً » شجعاً جارث على أن يضى قائلاً : « اننى لم أستطع أن أشرك الأنسة جراى فى مائدتى ، فكل منا يتناول طعامه منفرداً .. ليس بوسعك أن تتصور بشساعة منظر من يتصيد طعامه من كل جوانب الطبق « وهو غير آمن من أن يقلب الطعام على غطاء المائدة ، أو ربطه عنقه ، فى سعيه ليقصيد صنفاً آخر ! » .

فاجابه الطبيب قائلاً : « ليس بوسع إنسان أن يتقن الأمر بدون بران . ولكن « كيف تكون أكثر احتمالاً ليذا الموقف مع مسسون ، منك مع الممرضة « روزمارى » .. كما تعلم ! » . واحمر وجهه بباركلي .

وقال : « ولكن لا يغيب عنك أن سمسون هو الشخص الذي يزيل لى شعر احدى ، ويلبسنى ثيابى . ويحططنى فى تحركاتى .. ومع ما فى ذلك من محنة للنفس . إلا أنها محنة أو شكت أن تعودها . ويوسعك أن تصورها على هذا النحو : أن سمسون هو العيان لجسمى ، والأنسة جراى هى البصيرة لعقلى .. وسمسون هو الوحيد الذى يلمسنى فى الظلام . اتصور أن الأنسة جراى لم تلمسنى قط . بل إنها لم تصافحنى ؟! وأنى لفتبط لذلك ، وسأبين لك السبب حالا .. أن ذلك يجعل منها مجرد عقل وصوت لى ، لا أكثر .. ولكنه صوت رحيم ، معين بدرجة عجيبة ، حتى لأحس أننى لن أموت على الحياة بدونها ! » .

ثم دق جارت الجرس ، فلما أقبل سمسون قال له : « رافق السير دريك إلى حجرته ، وسيخبرك عن ميماد نظوره . وعندما تفرغ من كل ذلك يا سمسون ، أحب أن أخسرج فى رياضة قصيرة .. وسأكون - بعد ذلك - حرا يا براند . ولكن ، لا تمنحنى مزيدا من الوقت - فى هذا الصباح - إذا أردت أن تستريح ، أو أن تخرج للرياضة بين البرك المائية . لننعم بعملة ، بعيدا عن الأفكار والناس ! » .



وبعد أن اغتسل الطبيب ، وأرتدى سروالا (بنطلون) من النوع الذى ينتهى تحت الركبتين بالفتاح ، وسترة قديمة من ملاز (نورفولك) ، ذهب إلى قاعة الطعام ، واستطاب الفطور الرائع .. وكان ما يزال يفكر فى مشكلة « جين » .

بينما انشغل جزء آخر من عقله بالتفكير فى نوع الآلة التى تستعين بها مارجرى المعجوز فى عمل قهوتها الفاخرة .. وإذا بالسيدة المعجوز تقبل محوطة بجو من الغموض ، فسارع الطبيب إلى مواجهتها بالسؤال .. وأجابت مارجرى المعجوز : « انها قدر خاصة .. ولكن « هل لك ياسير دريك فى أن تأتى ملى فى هدوء ودون جلبية .. حالما تنتهى من طعامك ؟ » . وعادت تكرر : « فى هدوء ، ودون جلبية » ، وهما يعبران البهجة والطبيب يسير فى أعقابها بقامته الفارغة . وبعد أن صعدا بضلع درجات ، القفت إليه وهى تهمس فى جد : « ليمس الامر أمر الإناء الذى تصنع القهوة فيه ، وانما هو فى كيفية عملها .. وبعد أن مسدت بضلع درجات أخرى ، قالت له : « الأمر كله يتوقف على كلمة ملازج » .. ثم استمرت فى صعود السلم .. « ملازج فى تحبيصه » وملازج فى ملحته .. والماء ملازج فى غليانه » .. وبلغت مارجرى المعجوز آخر درجات السلم وقد تقطعت أنفاسها ، ثم انحرفت متسللة فى ممر معتم مغطى بسجاد كثيف ، وعلى جانبيه خزانة قديمة وبعض الصور .

وسألها الطبيب وهو يوثم بين خطواته وخطواتها .. خطوة منه فى مقابل اثنتين منها : « إلى أين نذهب يا سيدة مارجرى ؟ » . فأجابت : « ستبقى عندما نصل للمكان ياسير دريك .. ويجب ألا تلمسها بأى معدن ، بل ادفع بها فى قدر من الفخار ، وأضف الماء المغلى عليها حالا ، ثم قلبها بملعقة خشبية ، وضعها فوق نار الموقد لعشر دقائق ، حتى يتم نضجها .. وستحصل قطع لبن المجروش فى قاع القدر ، ولو أنك لا تفضل إلى ذلك .

ثم تصب القهوة صافية ، قوية ، ذات نكهة .. ولكن السكر كله في ان كل شيء طازج ، طازج ، طازج .. ويجب الاقتصاد في كمية البن ! »

ثم توقفت مارجري المعجوز أمام باب في نهاية الردهة . وطرقته طرقا خفيفا « ثم نظرت إلى الطبيب ويدها على مقبض الباب ، وقد ناضت عينها الاسكتلنديتان الوفيتان ياهنام وحاسة ورجاء . وقالت : « ويجب الاتنى المعلقة الخشبية . ياسير دريك » . فتأمل الطبيب الوجه المكهل الرحيم الذى كان يتطلع إليه في النور الخافت ، وقال لها في جد ورمانة : « لن اتنى المعلقة الخشبية ياسيدة مارجرى .. فادارت مارجرى المعجوز مقبض الباب « وهى تهس بقبوض شديد : « ها هو ذا السب دريك يا آنسة جراى ! » .. ثم اشارت إلى الدكتور بالدخول إلى حجرة استقبال صغيرة مريحة .. وكانت النار تنقد في المدفأة ، وقد جلست جين في مقعد كبير - ذى ظهر مرتفع - أمام النار ، وقدمها فوق حاجز المدفأة . ولم ير سوى قمة رأسها وركبتها الطويلتين اللتين لا يملك ان يخطىء معرفتهما . ولكنه سمعها تقول ، وفي صوتها رنة الشكر العميق : « واوه يا ديكى ! اهذا انت .. ادخل يا صديقى . واغلق الباب خلفك ! .. هل نحن على انفراد ؟ .. تعال سريعا - من هنا - لنقصافح ، حتى لا اتعر في البحث عنك ! »

وفي لحظة « بلغ الدكتور بساط المدفأة ، فجثا على ركبة واحدة أمام المقعد الكبير ، وأمسك باليدين الممدودتين إليه .. وهتف : « جانيت .. جانيت » . ثم عقدت الدهشة والهنسة



بلغ الدكتور بساط المدفأة ، فجثا على ركبة واحدة أمام المقعد الكبير ،

وأمسك باليدين الممدودتين إليه ..

الرعب ، إلى أن تشعر بأنه لا بد لك من أن ترضى فيه ،
فتترقق ، ويبتلعك .. ومن ذلك الظلام تخرج أصوات ، فإذا
كانت مرتفعة ، فأنها تترع رأسك كما لو كانت مطارق ثقيلة ..
وإذا كانت دمهمة غير واضحة ، فأنها تبعث فيك الجنون ، لأنك
لا ترى مبعثها .. لا ترى أنهم يضعون في أفواههم دبابيس
فتضطرمهم إلى الدمهمة ، أو إذا كانوا يدسون رؤوسهم تحت
الأسرة بحثا عن أشياء سقطت منهم ، ولهذا تلوح أصواتهم
وكانها صادرة من تحت الأرض .. ولأنه لا يمكنك أن تستبين
سببا لذلك ، فإن تباين الأصوات يعذبك .. آه ! وهناك ساعة
اليقظة في الصباح ، إذ ترى ذات الظلام الذى اكتنفتك طوال
الليل .. لقد جربتها مرة واحدة « فقد بدأت ظلامى بعد تناول
العشاء مساء أمس » ، وأؤكد لك يا دريك اننى ارتعد فرعا من
تكرارها صباح باكر .. فكر قليلا فيما تشعر به حين تستيقظ
كل صباح ، وليس لك أى أمل أو احتمال لأن تعود ثانية لرؤية
نور الشمس .. ثم ، هناك الوجبات .. » .

فانبعث صوت الدكتور فى قلق بالغ : « ماذا ؟ .. أتتبعين
على هذا الحال ؟ » . فأجابته جين : « طبعاً .. ولا يمكنك أن
تتصور ذلة المرء حين يتحسس جوانب الطبق بحثا عن الطعام ،
فيجده أحيانا فوق غطاء المائدة .. أو حين تعتقد تماما أن
أصحاف بقية من الطعام ، حتى إذا يشتت من العثور عليها ،
وطلبت كمية جديدة ، إذا بك تكتشف فجأة أن البقايا مقلّصة
نوق ملايسك .. لقد أدركت الآن السر فى أن فتاى المسكين
يأبى أن يشركنى وجباته . أما بعد الآن » . فاعتقد أنه سيقبل ،

لسانه ، فصمت .. إذ ألفى جين معصوبة العينين بوشاح
جريرى أسود ، طوى أربع طبقات وعقد على شعرها الناعم
خلف رأسها .. وكان ثمة عجز مؤثر بشيخ فى الجو المحيط
بهذا القوام الكبير ، القادر ، وقد جلست صاحبتة وحيدة فى
هذه الحجرة الصغيرة ، المشرقة ، لا تحرك ساكنا ! .. وللمرة
الثالثة ناداها الدكتور قائلا : « جانب ! .. تسبين هذه
عطلة الأسبوع ؟ » . فأجابته جين : « لقد ذهبت لأتقى عطلة
الأسبوع فى بلاد لا تبصر » يا عزيزى .. آواه يا دريك ! ..
كان لا بد من أن أفعل هذا ، إذ أن الطريقة الوحيدة لمساعدته
حقا ، هى فى تعرفه كنه حاله ، بكل دقائقها المؤلمة .. اننى لم
أكن قط واسعة الخيال ، وقد استنفدت القدر الضئيل الذى
كنت أمتلكه منه . و « هو » لا يشكو مطلقا ، ولا يوضح كيف
تقسو عليه الظروف ، لذلك كانت الطريقة الوحيدة لتبين ذلك ،
هى أن أعيش فى حياته هذه لثمان وأربعين ساعة .. والمعجز
مارجرى وسيمسون يعملان على معاونتى فى ذلك . على أبداع
وجه . فسيمسون يخلى لى الطريق إذا أردت النزول أو مغادرة
الدار .. ذلك لأن وجود اثنين شريرين فى بقعة واحدة ، قد
يؤدى إلى مشكلة إذا اصطدما معا ، دون أن يفتنا إلى ذلك ..
أما مارجرى فتعاوننى بكل الأمور التى أعجز عن القيام بها .
وما أحسبك تصدق كثرة هذه الأمور يا ديكى ! .. ثم هناك
الذلل المظلم .. الفظيخ .. الفظيخ .. أنه ستر سوداء مدلة دوما
أمام عينيك . تبدو أحيانا صلبة متينة كجدار من الفهم على بعد
بوصة من وجهك .. وتفصوص أحيانا فى أعمالى لينة من
السرد .. آميال و آميال من الظلام العميد ، الصامت .

وسأعرف تهايا كيف أساعده وكيف ابتكر له وسائل يتمكن بها - مع الوقت - من تناول طعامه دون مشقة .. آه .
باديكي ! كان لا بد أن أفعل ذلك » إذ لم تكن ثمة وسيلة أخرى ! « . ورد الطبيب في هدوء : « أجل .. لم يكن ثمة بد من أن تفعل ذلك » . ولم تتبين جين - في مهاها - خلجات وجهه عندما أضاف قائلا : « وما كنت ثمة وسيلة أخرى ، بالنسبة لك أنت بالذات ! » . فنهتفت : « آه ، ما أئد سرورى يا دريك إذ أراك أدركت الحاجة الماسة إلى ما أعمل .. فلقد أوجست من أن تحل عملى على محمل الميت أو السخف .. ولقد اقتضى الأمر أن أقوم بذلك الآن ، وإلا فلن أقوم به مطلقا ، لأننى أثق تهايا بأنه إذا صفع عنى ، فسأكون هذه آخر عطلة أسبوعية أقضيها بعيدة عنه .. أعتقد يا غناى أنه سيسمخ عنى ؟ » .

ومن حسن حظ جين أنها لم تكن ترى في تلك اللحظة ، إذ ابتلع الدكتور كلمة على طرف لسانه « وقال : صه يا عزيزتى .. أنك تبعثين في نفسى الحسرة لغياب بيماء الدوقة . ولن يجدى ضرورى إلى هنا » إذ لم أترزع بالصبر مع دالمين .. والآن خبرينى ، أحمأ لن نخلمى هذه العصاية ؟ » . فأجابته جين قائلة : « لن أخلمها إلا لأغسل وجهى ، وسأكون مطهنة إلى أننى لن أفتح عينى لمدة دقيقتين . لقد شعرت ليلة أمس براسى يلتهب ، حتى أننى لم أتمكن من النوم ، فازحتها عنى لمدة ساعة أو ساعتين . ولكنى استيقظت قبل الفجر وأعدتها إلى مكانها ! » . فتهف متسائلا : « أو تمنى أنك ستبقينها هكذا إلى صباح بكر ؟ » . وابتسمت جين في عزم وحرارة ، فقد

أدركت ما انطوى عليه سؤاله ، وأجابته في رقة : « بل إلى مساء بكر ! » .

وإذ ذاك صاح الطبيب في استنكار واحتجاج : « ولكن يا جانيت .. لا ريب أنك تودين أن نلتقى قبل سفرى ، يا بنتى العزيزة .. لا ترين في أطالك التجربة مفالة لا ضرورة لها ؟ » . فأجابته جين وهى تهيل نحوه ، وهيناهما المعصوبتان ثيران الاشفاق : « مطلقا .. ألا ترى يا عزيزى أنك قد اتحت لى الفرصة التى تمكننى من أن أجتاز تجربة - ستكون عنديما نحن - من اقصى صنوف التجارب التى يمر بها « هو » .. حين يأتى إليه اصدقائه ، وبذهبون » فلا يكونون له سوى مجرد اصوات ولمسات .. إذ أنه لا يرى وجوههم ، ولا يذكر سوى صور باهنة لها .. أن مجرد سماع صوتك دون رؤيتك - يا دريك - أمر قاس ، حتى أننى لأشعر بما فى عملى هذا من اكتساب ميزة تبكئنى من أن أشاركه ما هو فيه .. يجب ألا يضطر إلى أن يقول : « آه ، ولكذك رأيته قبل أن يرحل » .. بل أود أن يكون بوسعى أن أجيبه : « لقد جاء وذهب يا صديقى الحبيب » دون أن تراه ميناى البتة ! » .

وسار الطبيب إلى النافذة فوق بجوارها ، وهو يردد صغرا خافقا - وأدركت جين أنه يقالب استياءه « فانتظرت منجلدة .. وبعد حين ، كف عن الصفير ، وسمعت يضحك . ثم عاد فجلس إلى جوارها ، وقال : « لقد كنت دائما عزيزة تنشد الكمال الشامل ، ولا تترضين انصاف الطول ، لذلك نلابد لى من أن أوافق » . فهدت جين يدها تبحث عن يده قائلة : « آه يا غناى ! .. الآن يركب فى عيني ، وما

الفصل الرابع والعشرون

ساد حجرة المكتبة بقصر جلينيش سكوت عيسق ، وقد جلس جبارث ودريك معاً ، يدخلان في اثنتي عشرة ساعة ويتفوقان الشعور بالارتياح والهدوء اللذين يتولدان في أعقاب عشاء متأخر وقضاء النهار في استنشاق هواء المروج . وكانت حين تجلس في الحجرة التي احتضنت نفسها غيباً — بالطابق الأعلى — معصوبة العينين ، وقد استسلمت إلى ظلمة اختيارية لا تلك فيها سوى الانصات . . . وخيل لها أنها تسمع دهممة خافتة في الحجرة الواقعة تحت حجرها ، ثم عن حسيديث طويل مستمر . . . كان من المؤسف حقاً ، أنها لم تكن تستطيع أن تراهما وهما يجالسان معاً ، وقد بدا كل منهما في خير حال . . . كان جازث في سفرة العشاء التي تناسقت مع قـوابله المشوق ، بينما ارتدى الطبيب ملابس السهرة الانيقة على أكمل طراز ، وقد تكبد مشقة اجسادها ، لعلها بأن جين تحب من أصدقائها الحرص على ارتداء ملابس السهرة في أوقاتها . وما كان ليحلم بأنها لم تؤثر عيني لثرياه !

وكان الطبيب مجبولاً على الاناقة الدقيقة في ملبسه . وكان حريصاً على أن تمشي ملابسه مع أحدث ما يعرف في عالم الاناقة ، ما عدا السهرة الرياضية المصنوعة من صوف نورفولك ، والتي كان يصبر على الاحتفاظ بها — للمناسبات التي يريد أن يشعر فيها براحة جسدية — برغم ما بذلته الليدي براند من محاولات رقيقة ، تكررها في كل مناسبة .

عهدتك من قبل ميالا إلى الأمانة قدر ما كنت في هذه المرة ! . . وأجابها الطبيب : « أن الرجل الآخر ، هو » المشكلة ذاتها . . ففي طبيعتنا — نحن الذكور المتوحشين — ما يدفعنا لأن نستأثر بالمكانة الأولى لدى نساءنا . . ليس لدى امرأة واحدة محسوب وإنما لدى كل النساء اللاتي نعتبر أحياناً — في عروقنا — أن لنا عليهن حقوقاً . . أنك تجدين ذلك في كل مكان . . الأماء مع بناتهم ، والأخوة مع أخواتهم ، والأصدقاء مع صديقاتهم . . فإذا جاء « الرجل الآخر » ، كان بمثابة حبة من دواء لا بد من استئلاعها . . . وإذا لم يخب قلبي غالباً طبيعى ، ولو أنها طبيعة آيلة للتداعي ، ولذلك يجب مغالبتها . ولكن دعيني أذهب الآن لأبحث عن قميصك ومعطفك ثم أصبحك في نزهة إلى الغابة . . كلا . . . ولم ؟ لقد تعودت البحث عن جوائع غلالور ، ولذا غلى دراية بالأماكن التي توضع فيها . لا بأس ، فلأستدع لك مارجرى . . ولكن لا تطغى ، ولا تخافى أن يسمعا « دالمين » لأننى قد رأيته — منذ لحظة — يسير ذهاباً وإياباً في الشرفة . وهو يلبس الجدار بعصاه ليساً خفيفاً . بين حين وآخر . . إلى أى حد قد بلغ بك المطاف حتى الآن ؟ . . ستحدث طويلاً في حرية . ونحن نسير في الغابة . وأثناء قيامتى إياك ، يمكننا أن نهتدى إلى الحلول التي تنفعك عندما يحين الوقت لتقودى بنفسك « الرجل الآخر » . . فقط أرجو أن تسكونى حريصة في هبوطك درجات السلم مع المعجوز مارجرى . . تصورى ما يحدث لو أنك سقطت فوقها يا جين . . خسارة . . ماها تجيد عمل القهوة الفاخرة ! . . »

حتى يتلعن عن ارتداء هذه السترة . وكانت تقول له : « لو قدر للحالك المسكين - الذى صنع لك هذه السترة - ان ينهض من قبره ويراك مرتديا إياها الآن ، غاتى اعتقد أنه سيثب إلى قبره ، يحدوه الخجل إذ يرى لباسا عتيقا مثل هذه السترة يحل اسمه ، وما يزال معلقا على كتفى أحد عملائه ! » . فكان الدكتور يقارعها الحجة قائلا : « يا حبيبتي ، لم يدرجين في عداد الأموات حائكي البدع ، الواقع أنه ما تزال أمامنا - هو وأنا وهذه السترة المريحة - سنوات عديدة من العمل والجد ! » .

وفي مناسبة أخرى أرسلت فلاور زفرة عبيقة ، وهى على مائدة الإفطار - بعد أن أطلقت من النافذة على مظاهرة سار فيها حشد من العاطلين - فسألها الدكتور عندها سمع تنهدها ، وهى ظاهرة لا تفوته : « ما خطبك يا جيلتى ! » فتأملت له : « كنت أمتنى النفس يا دريك بأن يبدو هؤلاء العاطلون أكثر رثاءة - فى المظهر - مما هم ، فكنت أعطى سترتك « النورفولك » العتيقة لواحد منهم . أما وهم كما رأيتم ، فأننى أخجل من أن أقدمها لأحدهم ! » . فقال الطبيب مبدئا الحزم ، بينما كانت عيناه تتطلعان إلى الوجه الجميل الذى أمامه بنظرة خنو ورقة : « أمل ألا تفعلنى ، يا عزيزتى ! » . - ولكن « ثقى يا دريك أننى سأعطيها لى شيخ فقير مهلهل الثياب يمر ببنا !

فقال الطبيب : « حسنا يا حبيبتي . وبذلك ختم الحديث ، وجمع رسائله ، والتي نظرة على سمعته ، وهو يقول لها : « ولكن ، تأكدي من أننى سأوفد توا من يقتبى اثر النقص

الكهل ، ويشترى منه سترتى بمن باهظ ، على أن تتكلى أنت - يا فلاور - يدفع الثمن . ولذا أرى من الحكمة أن تعطى الفقير شلنا ولا تتدخلى فى أمر سترتى ! » . فهدمت فلاور قائلا : « ان الفقير المسكين سيعتقل بلا شك إذا مر بشوارع « ويمبول » مرتديا هذه السترة . » موافقا الطبيب قائلا : « أجل ، فإن أشد رجال البوليس غباء سيدرك أنها - ولا بد - بسرقة . » بينها تنجو السارقة الحقيقية التى ساضطر إلى أن اتقدم لدفع الكفالة عنها « لو أنهم قبضوا عليها ! » . ثم وقف بجوار مقعدها ، ولف الوجه الجليل براحتيه النحيلتين السمراوين ، وقال لها فى رقة : « وبذلك لن تكون سترتى العتيقة أول ما سرقتة منى ! » . وكان رد فلاور كافيا لأن يجعله ينطلق إلى عمله راضيا كل الرضى !

وكانت السترة « النورفولك » الرياضية قد اشتركت فى نزهة - فى ذلك الصباح - مع جين ، وقد عرفتها « جين » بالملمس عندها تأبط الدكتور ذراعها ، متبادلا الضحكات عنها . . أما فى المساء ، فقد طواها مسسون ووضعها فى حقيبة ثياب الطبيب ، الذى ظهر فى أروع اناقة . وجلس فى مقعد ذى ذراعين أمام بدفاة المكتبة ، وقدماه الطويلتان معقودتان أحدهما فوق الأخرى ، وكفاه العريضان غارقتان فى المقعد ! . أما جارث فكان يجلس فى مقعد يشمر فيه بدفء المدفأة ، مما كان يبعث فيه ابتهاجا فى تلك الأمسية الباردة التى أعقبت دفء ذلك النهار من أيام الربيع . وكان مقعد هواريا فى

وضعه ، بحيث يستطيع « جارش » أن يخفى وجهه بيده عن زائرہ ، إذا هو شاء .

وما لبث الدكتور براند أن بدأ الحديث « وهو يجهد ذهنه في التفكير : « أجل .. بوسمى أن أدرك بسهولة أن كل الأشياء — التي تصل إليك في هذه الظلمة — تتفاوت نسبيا ، وتكتسب قيمها عالية ، مغالى فيها .. بيد أنني اعتقد أنك ستلتقي — مع مضي الزمن ومع تدركك في الاختلاط بالناس — تعددلا كبيرا ، بعيد الأمور إلى نصابها ، فتصبح أقل حساسية الأصوات واللمسات التي تواتيك من الغير . أما الآن ، فإن جهازك العصبي بأسره « شديد التوتر » فهو يتجاوب — باهتزازات مغالى فيها — مع كل مؤثر يقع عليك . ذلك لأن الجهاز العصبي الشديد التوتر ، يغالى في تصوير المؤثرات .. وفي حالة فقدان وسيلة الإبصار ، تجمع بقية وسائل الاتصال بالعالم الخارجي — مثل السمع واللمس — حول نفسها مزيبرا من قوة أعصاب ، وتصبح مرهفة الحس إلى درجة مؤلمة . ثم لا تلبث الأمور أن تقوم نفسها ، فتصبح هذه الحواس الباقية حادة ودقيقة بالقدر النافع ، فحسب . والآن « ما الذي كنت تريد أن نقوله بصدد عدم مصالحة الممرضة روزمارى بإيك ؟ » .

وقال جارش : « آه ، حقا .. ولكنني أريد — قبل ذلك — أن استفسرك عما إذا كان لينتها أو لنتابنها أو لميدها أو لاية جهة تتصل بها ، قانون يمنع الممرضات من مصافحة مرضاهم » . فأجابه الطبيب : « لم أسمع بشيء من ذلك » . فاستأنف جارش حديثه قائلا : « إذن فلا بد أن ما دعا إلى ذلك ، هو

تقدير الأنسة جراثى السليم لما احتساج إليه وما لا احتساج إليه . نعمى — منذ اللحظة الأولى — لم تسمح لنفسها بمصافحتي « بل ولم تسننى بآية وسيلة أو علة .. حتى أنني لم أشعر بأصابعها تسننى مرة واحدة ، وهى تدفع إلى الرسائل والأشياء . الأمر الذى يحدث عشرات المرات يوميا ! » . فتساءل الطبيب وهو ينفث دخان لفائفه في حلقات متصاعدة في الهواء ، ويرى وجه الرجل الأعمى بدقة بالغة : « وهل يسرك هذا ؟ » .

فأجابه جارش في حياسة : « آه ، أنفى لشديد الإمتنان لعملها هذا .. أعلم يا براند بأن شسمورا راودنى — عندما اقترحت أن نودع لى امرأة تعمل ممرضة وكاتبة سر — بأننى لن أطيق وجود امرأة بجانبى ولن أحتمل لملمسها ؟! » . فعقب الطبيب عليه في هدوء : « هكذا قلت لى ؟ » فنهف جارش : « لا ! .. هل قلت ؟! لا بد أنك ظننتنى فظا ! » . فأجابه الطبيب : « أبدا .. ولكنك مريض في ظروف غير عادية .. وعادة .. » . فقاطعه جارش بشيء من الضجر : « أننى لأجرؤ على القول بأننى صادقت فترة في حياتى ، كنت أتوق فيها إلى أن تكون ثمة يد ناعمة صغيرة حولى .. وأقول الآن — ولا أخشى شيئا — إننى كثيرا ما كنت خليقا بأن أمسك بتلك اليد ، ولعلنى كنت أقبلها .. من يدرى ؟! .. لقد اعتدت أن أفعل أمورا كهذه ، بخفة لا بأس بها .. ولكن ، عندما يتعود الرجل — يا براند تأمل ما أقول .. عندما يعرف الرجل لملمس امرأة معينة — ثم لا يبقى من هذه اللمسة غير غيرة لنفسه

ملقى في غياهب الظلام .. فان تلك الذكرى تصبح من الأمور القلائل التي تبقى له ، وفي بقائها عزاء له لا سبيل إلى وصفه .. فهل يدهشك إذا أوجس الرجل خوفا من لمسة أخرى ، قد تعكر أو تطمس - لأي سبب - تلك الذكرى وتحل محلها ، أو تنتزع منها قداستها المطلقة ! » . فاجابه الطبيب في نان : « اننى افهم جيدا ما قصد .. صحيح أن هذا لم يدخل في نطاق تجاربي ، ولكننى افهمه جيدا .. غير أن هذا - يا فتى العزيز - لا يتم إلا إذا كانت تلى « المرأة الوحيدة » موجودة . وهو ما يجوز لنا - في حالتك هذه - أن نرقاب فيه ، فقد كانت في حياتك نساء كثيرات .. ولو أنها كانت موجودة ، فمن المؤكد أن مكانها يجب أن يكون بجانبك ، وأن لمستها تصبح من أهم ما يبقى لك ! » .

وقال جارث ، وهو يشعل لفافة أخرى : « آه قل لى هذا الرأي ، فانى أحب أن أسميه منك ، ولو انه أشبه بقولك : ما دام المنظر الذى تطل عليه الشرفة باقيا ، فان بوسمى ان أراه ! .. ذلك لأن المنظر ما يزال باقيا ، ولكن عجزى عن الإبصار بحول دون أن أراه ! » . فاجابه الطبيب وهو يميل قليلا ، ليلتقط عود الثقاب الذى لم يلقه جارث في المدفأة تماما نسقط بعيدا عنها : « وبعبارة آخر : انك لم تكن « الرجل الأوحده » لها ، بالرغم من أنها « المرأة الوحيدة » لديك ! » . فاجابه جارث في مرارة ، ويكلمت خافتة : « نعم .. لقد كنت مجرد غلام .. فى نظرها ! » . ولكن الطبيب استطرد ، وكأنه لم يسمع العبارة : « أو لعلك ظننت انك لم تكن « الرجل الأوحده » فى حين أنك - فى الواقع - « الرجل الأوحده » لعلك المرة الوحيدة ،

ما لم يكن قد سبقك فى الميدان شخص آخر .. ولا يتطلب الأمر سوى صبر ووقت لاقتناعها ! » .



واعتمد جارث فى جلسته « والتفت نحو الطبيب بوجهه الذى ارتسمت عليه الدهشة ، وقال : « ياله من منطلق غريب .. هل تعنى ما تقول ؟ » فاجابه الطبيب باقتناع بالغ : « نعم .. فإذا أنت استبعدت كل الاعتبارات الأخرى ، كالمال ، والأراضى ، والالقب ، ورغبات الأصحاء ، والشواغل الظاهرية .. أمضى إذا استبعدت إعجاب كل منهما بالجمال البدنى الآخر فحسب - لأن هذا لا يعدو أن يكون تفضيلا قائما على أسس تشرىحية - وإذا نحن تحررنا من كل تلك النواحي الاجتماعية المعتادة ، أمكنك أن تضع الرجل والمرأة فى « جنة عدن عقلية » ، وأن تدع كلا منهما يواجه الآخر وقد تجردا من كل طلاء مصطنع ومظهر متعارف عليه ، ويصبحان مجرد روح تطل على روح ، استطاعت « هى » - تحت هذه الظروف - أن تكون الأليفة ونفس تنظر إلى نفس فى تجرد « وفى غير حُجل .. فإذا استطاعت « هى » - تحت هذه الظروف - أن تكون الأليفة الحققة له ، إلى الدرجة التى تجعل أثيل ما فى الرجل يصيح : « هذه هى المرأة الوحيدة ! » ، فانى أقول أنه كذلك يكون أليفها ، ولا يمكن أن يخفق فى أن يكون « الرجل الأوحده » لها .. وكل ما ينبغى عليه هو أن يثق بنفسه ثقة تمكنه من إقناع أليفته بأنه كذلك . وهذه الحقيقة تنفجر فى أعماقه فى قوة كالشفة . أما بالنسبة للمرأة ، فانه - كما تكشف لها فى بدء وتؤده ! » .

وغمغم جارت في تخاذل : « يا الهى .. لقد كان الأمر كذلك تماما .. جنة عدن .. روح تطل على روح ، دون أى تحفظ . ولا وجل ، ولا مواراة .. لقد عرفت فيها زوجتى ، ودعوتها بذلك . وفى اليوم التالي دعنتى « مجرد غلام » لا تستطيع أن تفكر لحظة في الزواج منه . فما مصر نظريتك الخرقاء إزاء ذلك ، يا براند ؟ » . فاجابه الطبيب في هدوء : « ان ما تقوله يدعمها . فان حواء تهرب من آدم ، وتختبئ بين أشجار الجنة ، في غمرة التوجس من الهاء الهائل ، والشك في النفس . والخوف من عجزها عن تحقيق ما يتصوره فيها من مثل أعلى . فلا تتكلم عن النظريات الخرقاء يا بنى ! وإنما تكلم عن الواقع الأخرق الذى يمثّل في آدم إذا لم يسارع إلى مطاردتها وامتلاكها ! » . فاعتدل جارت في مقعده ويدها تشدان على ذراعى المقعد ، إذ ان صوت الطبيب بدأ يوقظ فيه الشكوك إزاء رأيه في الموقف ، لأول مرة منذ اللحظة التى استدار فيها وأدبر خارجا من كنيسة قرية (شنسبون) ، من ثلاث سنوات مضت .

وكان وجهه شاحبا ، واستبان الطبيب - على وهج نار المدفأة ، الذى كان ينعكس عليه - ان العرق كان يتصبب على جبينه . وما لبث جارت أن قطع السكون قائلا : « اواه يا براند ، اننى أعمى ! .. فرحبك وترفق بى . ان الأمور تتخذ في الظلام معانى أقسى وأمر ! » . فتروى الطبيب مفكرا .. ولو تسنى لمرضاته وطلبته أن يشاهدوا منظره ونظراته في تلك اللحظة ، لحدسوا أنه كان يجرى عملية جراحية دقيقة وخطيرة

إلى أبعد حد ، بحيث أن أفته زلة من الميضع تكفى لأن يموت المريض .. وما كان حدسهم مجانباً للصواب ، فقد كان مستقبل شخصين معلقاً بأكمله في الميزان « متوقفاً - في هذه الأزمة - على رباطة جاش الجراح وشبته ، وعلى خفة لمساته بوجهه خاص . ولم يكن الطبيب قد حسب حساباً لهذا الوجه المرهق المتقنع - تحت وهج نار المدفأة - وحيات العرق المتفصدة عن عذاب النفس ، وهتافه : « أنا أعمى ! » .. تلك كانت صورة « للرجل الآخر » لا يجسر على تأملها دون تأثر وألم . غير أن أفكار ذاك الشخص الصبور المصوب العينين - الذى كان يجلس في الحجرة العليا ، ينتظر في قلق ، وقد بسط يديه الحبيبتين في عجز نام - ردت إلى أعصاب الطبيب هدوءها ، فاخذ يحدق في النار ، ثم قال في هدوء : « قد تكون أعمى يا دالمين ! ولكنى لا أحب أن تكون أخرق ! » .

وسأله جارت : « هل أنا .. أترانى كنت .. أفرق ؟ » . فاجابه الطبيب : « وكيف لى أن أحكم .. اشرح لى الظروف بجلاء - من وجهة نظرك - أعطك رأى في الأمر ! » .. وكانت لهجة الطبيب رزينة وواقعية ، فسكبت في نفس جارت سكوناً وسلاماً .. كأنها كان الطبيب يتحدث عن التهاب في الحنجرة أو مبادئ داء « عرق النساء » . فاضطجع « جارت » في مقعده ، وغرس يده في جيب صدر سكرته « ليتصسس خطابا كان في داخله .. أيجرؤ على المجازفة ؟ .. هل له - ولو مرة واحدة - أن يخفف عن نفسه ، فينفضى بمناعبه إلى رجل يثق به أعظم ثمة ، على أن يتجنب - في الوقت ذاته - إشغاله حقيقة شخميبتها لرجل كان يعرفها أوفى معرفة ! »

وراح « جارث » يزن الأمور بعقلية لاعب الشطرنج ،
ليحدث كل الحركات التي قد تقع بعد تصميمه .. فهل من
الممكن أن يكون الحديث من الموضوع بحيث يكون ذا جدوى ،
مع تجنب أية إشارة تكشف عن أن « جين » هي المرأة
الوحيدة .. ولو أن الطبيب أمر أو تعجل أو اقترح ، لدفع
ذلك جارث إلى الصمت . ولكن الطبيب لم ينبس ببنت شفة
.. كل ما آتاه هو أنه مال نحو المدفأة ، ليذكها بطريقة بالغة
الحذر . ثم القى إلى النار بقطعة من خشب الصنوبر الزكي
الرائحة . وعندما انتهى من هذه العملية « راح بصفر المقطم
الختامى لقرنية : « تعالى أيتها الروح الخالقة » .. ولأول
مرة ، لم يفطر « جارث » - وقد شغل بالصراع الذي كان
يدور في ذهنه - إلى وجود مسوت خارجي ، فلم يدرك كيف
ترددت في ذهنه - في تلك اللحظة البتقة - كلمات المقطم .
في إصرار رقيق :

« أبعد عنا أمداعنا .. وهب السلام للوطن ..

» وحيث تكون مرشدنا ، فإن يكون نمة مرض ..

وتفاهل بهذه الكلمات ، فإذا بها ترجح كفة الميزان . ومن ثم
قال : « براند .. إذا كنت - كما أعهدك - كريما بحيث تجود
على برأي ، فسأتيح لنفسى الراحة البالغة التي تنجم عن
انقبائك على سرى . فهل تعدنى بالأ تسمى قطعا إلى كشف
شخصية « المرأة الوحيدة التي أقصدها » .. فابتسم الطبيب
وتجلت الابتسامة في صوته ، مما زاد من شعور جارث
بالباطنية : « يا صديقى العزيز ، ليس من خلالي أن أسعى

للإيفال في أسرار الناس ، فهذا نوع من الرياضة الذهنية
لا يروق لي ، ولا أستسيغ أساليبه .. ولا أستشعر فيه تسلية
أو غائدة .. ماذا كنت أعرف حقيقة فلن تكون بي حاجة إلى
الحدس .. وإذا لم أكن أعرفها .. وكان أصحاب السر راغبين
في أن أبقي جاهلا هويتهم ، فأننى أؤثر أن أسرق نقودهم على
أن أخطف أسرارهم » ..

فاجابه جارث : « شكرا لك .. لو كان الأمر يتعلق بشخصي ،
لما وجدت ما يضيرني في أن تعرف السر .. لكن السر يتعلق
بها هي .. حتى لا يظهر أسبها ! » .

فقال الطبيب : « لا شك في ذلك . فما لم تختر « المرأة
الوحيدة » أن تكشف شخصيتها ، فأنها ستبقى دائما في طي
الكتان » فهيا أتهم قمتك يا صديقي ، ولن أقاطعك ! » .

وشرع جارث يقول : « سأسرد عليك الأمر مبسطا ومختصرا
بقدر ما أستطيع ، وستفهم - خلال الحديث - بأن هناك من
التفاصيل ما لا يملك إنسان أن يتحدث به .. لقد عرفتُها
لستوات طويلة ، بمعرفه صداقة ، إذ كنا ننزل ضيفين في دور
واحدة ، وتلتقى في قصور اللوردات وعلية القوم ، وغيرها من
الابكنة التي تجيم أبقاء البيئة الواحدة . وكنت دائم الميل لها ،
أشعر معها براحة وسرور . كما كان لأرائها عندى المقام الأول
.. وكانت هي - من ناحيتها - صديقة وزميلة لي ولكثيرين
من أمثالي ، غير أن أحدا منا لم يفكر يوما في أن يرتبط معها
بغرام ، فقد كانت تضحك من المفاجأة والنموتات البهيفة التي
يتداولها الشبان مع غيرها من النساء - وإذا لم يكن أحد

باقية من الزهور لتزين بها، فاتها كانت تضمها في إناء الزهور .
وهي تتساءل عن كانت مقصودة بهذه الهدية ! .. وكانت
تجيد الرقص « وركوب الخيل » على أن من كان يراقصها ،
كان يلتزم بمراعاة قواعد اللباقة التامة ، وإلا أسلمته إلى حيرة
وارتيباك .. أما الذي كان يطعم في التبارى معها في ركوب
الخيل ، فقد كان عليه أن يعد نفسه لأن يجتاز أى حاجز أو
جدار . ولست أذكر أنى رأيتها مرة تخرج للصيد ،
فقد كان حبها للحياة والألعاب الهادئة ينأى بها عن ذلك ..
إنما أردت أن أخط لك هذه الصورة الوصفية ، لأبين
ما جبلت عليه . وكان مما يبعث الغبطة في كل قلب ، أن
توجد في الحفلات الخاصة . وإن لم يدر أحد لتلك الغبطة
مبعثا .. من المستحيل أن توصف .. لقد كانت .. هى ..

ولقد قرأ الطبيب كلمة « جين » قرأ قص بين شفتى
« جارت » ، وإن لم ينطق بها ، وأدرك مدى عجز أى وصف عن
إيفا ذلك الاسم حق . ولم يشأ أن يوقف تيار اعترافات
« جارت » . فراح يساعده بإمداده بالكلمات ، قائلا : « إنها
نوع نادر .. نعم ، فهم جيذا ما تعنى .. وبعد ؟ » . فاستطرد
الصوت الشاب اللئاع . قائلا : « لقد خبرت حالات الهيام
كثيرا ، وكنت أظن أن الشيء الأوحى الذى يعينى في المرأة ،
هو المظهر الخارجى .. كان الجمال بكل أنواعه ، وبأى
أنواعه ، يستهوينى لحظة . ولكنى لم أفكر مرة في الزواج
من إحداهن » بل كنت أهفو دائما إلى رسم صورهن . وكانت
أمهاتهن وعمهاتهن وغيرهن من المسنات - في تلك الحفلات

الخاصة - يعتقدن بأننى كنت أهدف إلى الزواج .. ولكن
الفتيات أنفسهن كن يدركن حقيقة الأمر .. ولا أعتقد أن أية فتاة
على وجه الأرض - من مررن في حياتى - تملك أن تتهمنى
بأننى غازلتها ! .. كنت أبدي إعجابى بجمالهن ، وكن يعرفن
ذلك . ويعرفن أننى لا أقصد شيئا سوى الإعجاب .
وكانت تجارب لطيفة - في حينها - وكثيرا ما ساعدت على
التهديد لزواج أولئك الفتيات . ولأضرب لك مثلا ببولين ليستو ،
فقد لصق اسمها باسمى خلال موسمهم كاملين ، ولكنها
تزوجت أخيرا من الرجل الذى رسمت صورتها على سلم داره
الفاخرة الجبلية ! .. أما لماذا لم التقط منهن زوجة ، فيرجع
- فيها حسب - إلى أنهن كن كثيرات ، فضلا عن أن جاذبيتهم
كانت سطحية ! .. ولست أتورع عن أن أصارحك بأن الوحيدة
التي كان لجمالها تأثير حقيقى ، هى الليدى « براند » . ولكننى
شعرت بالرضى والاكتفاء بعد أن رسمت صورتها وأظهرتها
للعالم في أكل آياتها . وما سألت أية امرأة أكثر من أن أرسوم
صورتها ، وأن اتبين فيها نواحي صالحة للتصوير .. وما كان
في مقدورى أن أشرح ذلك للزواج أو الأمهات أو الوصيفات ،
ولكن النساء أنفسهن كن يفهمن ذلك جيدا .. ولا تحضرنى
- وأنا جالس في ظلماتى هنا - أية ذكرى تثير ضميرى ! ..

فقال له دريك براند ضاحكا : « بالك من غنى طيب .. لقد
اسىء فهمك كثيرا في كل وسط . أما أنا فأصدق قولك ! .. »
فاستأنف جارت حديثه قائلا : « وبهذا ترى أن الأمر كان
سطحيا محسب ، ولم تتجاوز به السطح مرة . أما النساء
اللائى فهمتون كل الغم : فمهن أمى - التي سألت وأنا في

التاسعة عشرة من عمرى - ومارجرى جرايم ، التى تعودت أن احتضنها وأقبلها عند وصولى أو سفرى ، وسأظل على ذلك حتى أقبل وجهها الكهل وهى مسجاة فى تابوتها ، أو حتى تسلمنى هى إلى تابوتى .. أن تلك الروابط التى ترجع إلى طفولة المرء وصباه ، هى من الصق وأقدس الروابط فى حياة الإنسان .. وهكذا سارت الأمور إلى أن كان ذات مساء من أمسيات شهر يونية « منذ سنوات ! .. كانت هى - « المرأة الوحيدة » - وأنا معا ، فى حفلة خاصة فى أحد القصور القديمة المحبوبة « فى الريف - وبعد ظهر أحد الأيام ، كنا نتبادل الحديث - على حدة - ولكنه كان حديثا صريحا وعرضيا - ولم تكن لدى فكرة عن الرغبة فى الزواج بها - إذ ذاك - لولا أن حدث أمر .. فجأة .. ولا يسعنى أن أزيدك عنه إضاحا لثلاثين منه شخصيتها - ولكن الذى حدث - كشف لى - فى لحظات ثلاث رائعة - عن حقيقة المرأة والزوجة والأم فى كيانها .. وعن القوة والحنان ، وعن الكمال التام الذى كانت عليه روحها الصادقة النقية .. وفى خمس دقائق استيقظ فى داخلى تعطش إليها ، لم يتمكن شيء من تهدئته ، ولن يقدر لشيء أن يهدئ سورته ، حتى أقف إلى جوارها فى العالم الآخر .. فى « المدينة الذهبية » ، حيث لا جوع ، ولا عطش ، وحيث لا يكون ظلام ولا حاجة إلى نور الشمس أو القمر أو ضوء الشوع ، لأن مجد الله سينيرها إلى الأبد ، وحيث لا حزن ولا ألم ، لأن الأمور الماضية تكون قد ولت ! » .

ونألق وجه الاعشى أمام نار المدفأة .. كانت عودته إلى الماضى قد زودته برؤى المستقبل المرتجى ! .. وكان الطبيب جالسا فى سكون تام ، يرقب الرؤى حتى خفت ، ثم قال : « وبعد ؟ » . واستأنف الصوت الفتى حديثه من بين الظلال - فى لهجة من هبط إلى الأرض حيث لم يلق سوى الهم والابى : « وبعد ؟ .. لم يساورنى - إذ ذاك - أقل ريب فيها طرا على . فقد أيقنت بأننى أحببتها .. أيقنت بأننى كنت ابتغيها .. أيقنت أن فى حضورها نهارى ، وأن غيابها ليل قارس البرودة ، وأن كل يوم لم يكن مثاقلا إلا لوجودها ! » .

وصمت جارث قليلا ليستعيد أنفاسه ، ولينتع نفسه لحظة بالذكريات الماضية الصامتة . ولكن صوت الطبيب قطع عليه الصمت ، وهو يسأله فى وضوح وصراحة : « أكانت امرأة حسناء ، مليحة ، جميلة ؟ » . فردد جارث كلماته وهو شارذ البال : « امرأة حسناء ؟ .. كلا ، وحق السماء ! .. مليحة . جميلة .. ها قد أخرجتنى ، فيمينا بشرى إننى لا أدرى ! » . فقال الطبيب : « انما قصدت : هل كنت مثوقا لأن ترسم صورتها ؟ » . فأجاب جارث : « بل لقد رسمتها ! » .. وجاء رده فى صوت خافت جدا ، يسيل حنانا ورقة . ثم اردف : « ومع أن الصورتين اللتين رسمتها لها ، قد تبعا فى أسى ومن الذاكرة ، إلا أنهما ابدع تحفة أنتجتها .. ولم تكن حل عين بشرية برؤيتها سوى عبنى .. أما الآن ، فلن تراهما عين مطلقا ، اللهم إلا عينا الشخص الذى رأى بضطرا إلى أن أعهد إليه بالبحث عنهما وإحضارهما لى .. لا مزيد ! » .

فسأله الطبيب : « وذلك الشخص .. ؟ » . وأجابه جارت :
« الممرضة روزمارى جراى ! »

وحرك الطبيب قطعة خشب الصنوبر . فى المدفأة ، فتأججت
نارها بلهب زاه ، ثم تكلم وهو يجاهد ليمنع الفرح الذى ارتسم
على وجهه ، من أن يبين فى صوته : « لقد أحسنت الاختيار .
فان الممرضة روزمارى ستكون خير حفيظ للسر .. حسنا
جدا . إذن ، لنا ان نقول ان « المرأة وحيدة » كانت جميلة .
اليس كذلك ؟ » . فتجلت على جارت امارات الحيرة ، وأجاب
فى تريث : « لا أعلم .. فليس يوسمى ان اراها بعيسون
الآخرين .. اما طيفها الذى تجلى لى فى تلك اللحظة المثالية .
فقد كان يطابق الامور التى املاها إلهامى : النفس والروح
والجسد .. كانت لها روح نقية ، وكاملة .. ونفس جميلة
نبيلة ، جمعت كل ما ينشد فى المرأة حتى أن الجسد الذى
كان كساء للروح وللنفس « قبس من كمالها ، فأصبح حبيبا
غاليا ! »

وقال الطبيب بكل لطف : « فهمت .. أجل ايها الصديق
العزيز ، لقد فهمت ! » .. ثم همس لنفسه : « اواه يا جين ..
يا جين ! .. لقد كنت عمياء بغير عصابة على عينيك . فى تلك
الايام ! » .

وما لبث جارت ان استأنف حديثه قائلا : « مرت بنا
ايام مجيدة رائعة . وقد تحققت الآن من اننى كنت أعيش فى
وهج يقينى الخاص بأنها هى « المرأة الوحيدة » .. كانت

هذه الحقيقة - بالنسبة لى - واضحة ، عذبة ، رائعة ، حتى
اننى لم أحلم بأنها لم تتبين لها هى ، كما تبينت لى . ورحنا
بعزف الموسيقى معا لجرد الاستمتاع الطاهر ، وأخذنا نتحدث
عن الغير لجرد التفكه .. وكان كل منا يستمتع بأراء الغير
وافكاره . ويقدرها . ولكننا لم نتحدث عن نفسنا ، لأننا كنا
نعلم كل شيء .. او على الأقل ، كنت اعلم واظن - وأشهد
الله - انها كانت مثلى .. وفى كل مرة كنت اراها ، كانت
تزداد تألقا وكهالا فى عيني . ووجدت فى يدى المفتاح الذهبى
الذى كشف لى عن بسائط لم اكن اعيرها .. من قبل -
اهتماما . فقد كنا - نحن الشبان الذين جهمتنا جامعة
الإعجاب بها - ننمدر بفكاهات عن ارتدائها « باقات » وجوارب
واحذية طويلة ، واثواب قصيرة ، وكيف كانت تضرب ساقها
بسوط الخيل ، وتحرك نار المدفأة بمقدم حذائها .. ولكنى
- بعد تلك الليلة - أدركت أن كل ذلك لم يكن سوى سياج
اخفت خلفه اتوثتها الرائعة ، التى ثبت أنها من نوع أعرق من
أن يسير غوره أى رجل ممن ينظرون إلى مجرد القشور
السطحية .. وعندما قدمت - فى المساء - متهادية فى ثوب
أسود ثمين ، التصق بقوامها « وقد زينت صدره بطبقات
من « الدانتلا » الرقيقة الفاخرة ، التى استلقت على صدرها ،
وراحت تهتز مع خفقات قلبها الكبير الحنون .. اواه ! لقد
طربت نفسى - إذ ذاك - وامتلأت عيناى غبطة ! .. لقد رايتها
فى المساء - كما وجدتها طوال النهار - كائلة فى أنوثتها الالية ،
العذبة ! » .

وقال الطبيب لنفسه : « ألم يظن حقا إلى أن الصورة التي رسماء بحديثه لا تنطبق إلا على جين ؟ » .

وعاد جارث إلى حديثه قائلا : « وسرعان ما اضطررنا إلى الافتراق لثلاثة أيام ، ثم التقينا في عطلة الأسبوع ، في حفلة خاصة أخرى ، بأحد القصور ، وكانت بين الحضور إحدى جيلات الموسم ، وقد استباح القوم لأنفسهم أن يقرنوا اسمها باسمي .. وقالت « المرأة الوحيدة » شيئا بهذا الصدد ، اقترن بالفراغ الرهيب الذي عانته في تلك الأيام الثلاثة التي لاحت لي دهرا ، فعقدت العزم على أن أقاتحها دون توان .. وسألته أن تقابلني - في الشرفة - في تلك الليلة .. وكنا وحيدين ، واللييلة قمرية صحوه » ، وصمت جارث طويلا ، فلم يشأ الطبيب أن يتكلم ، إذ أدرك أن صديقه كان يستعرض في فكره كل المسائل التي لا يتحدث بها رجل إلى آخر .. وأخيرا عاود جارث حديثه ، فقال بكل بساطة : « وإذ ذاك ، بحث لها .. » .

ولم يعقب الطبيب بأى تعليق ، وقد أومض في فكره - في تلك الآونة - التعبير الذي استخدمته جين : « وإذ ذاك .. حدث الأمر ! » . هكذا قالت عندما بلغت في قصتها هذه النقطة ! .. وبعد لحظات من الصمت - قضاها جارث سابحا في ذكريات من ضوء القمر ، وقضاها الطبيب في تفسير عبارات « جين » خرفا بحرف - عاد الصوت الفتى الحزين يقول : « لقد ظننت أنها كانت تفهم الأمر كما فهمته . ولكنني فطنت - بعد أن أخبرتها - إلى أنها لم تفهمه مطلقا . كانت تصرفاتها قد حملتني على الاعتقاد بأنني لقيت لديها قبولا ،

وأنتى قد ضمنت إلى نعيم حبها الكبير ، حتى وهى محاطة بحبى .. وما كان الذنب ذنبها .. آه .. كلا ، فما هى أهل لاي لوم .. وإنما كان الذنب لئب أنها لم تفهمنى ، ولم تستطع أن تفهم ما كان لاية لسة من لمساتها من اثر في نفسى . وما كان في حياتها الغالية اى رجل من قبل . هذا وما أيعنت منه بفريزة لا تخطئ » وباعترافها هى . ولقد فكرت - أحيانا - في أن من المحتمل أن تكون قد نعلقت في صغرها بمثل أعلى ، راحت تقيس الرجال - فيها بعد - على أساسه ، فيتضح لها أنهم أقصر منه « ومن ثم فهى تستبقيهم على بعد مناسب . ولكن ، إذا صح هذا ، فلا بد أن مظهرها الأعلى كان مخبولا أعمى ، إذ لم يحس بهذا الحب الذى يفوق كل شئ » . والذى كان خليقا بأن يظهر به ، لو انه حاول . ذلك لأننى أوقن من أنه لم يقدر - حتى تلك الليلة - لحب رجل آخر أن يتأجج حولها ، وأنها لم تشعر يوما بأنها محمولة بصرخات الوله واليهام العارم الذى يفوق كل تصوير ، والذي يوحى بحاجة ماسية جارفة إليها .. وبينما كنت أظنها قد أدركت ، واستجابت - والله على ما أقول شهيد - إذا بها لم تفهم شيئا البتة ، وإنما كانت تحاول أن تبدى العطف والكرم ! » .

وهنا تامل الطبيب في مقعده ، وعقد ساقيه في سكون ، راح يتأمل الوجه الأعمى .. فقد وجد اعترافات « الرجل الآخر » أشد لوعة وضنى مما كان يتوقع ! . وما لبث أن ساله في صوت أجش : « أوافق انت معا تقول ؟ » . فاجابه جارث : « كل الثقة .. أمخ إلى .. » . فاستدعى بها كيت ثم أخبرها أنها كانت لى في تلك اللحظة ، وبما

— بالنسبة لى — وبما يستظل إلى الموت وما بعده .. تلك الكلمة — لا ، بل كانتا كلمتين — تلكا الكلمتان جعلتاها تفهم . هذا ما أبينه الآن .. وما كان منها إلا أن عبت واقفة لدى سماعها الكلمتين « وأبعدتني منها وهى تتذرع بحاجتها إلى أن امهلها اثنتى عشرة ساعة ، حتى نبحث الأمر فى هدوء . ووعدت بأن تقابلنى فى كنيسة القرية — صبيحة اليوم الغالى — لظلمعنى على ردها .. وقد تحكم يا « براند » بأننى كنت ابله . ولكذلك لن تتصورنى حمارا كبيرا ، بالقدر الذى اتصور به نفسى الآن .. بيد أننى كنت أوقن يقينا ثابتا بأنها لى .. وكنت متأكدا من ذلك عندما حضرت إلى الكنيسة ، وعندما بقينا منفردين فى بيت الله ، فلم اتجه إليها بلهفة العاشق المتوسل ، وإنما ناديتها لتقف إلى جانبنى على عتبة الهيكل ، كما لو كنت حقا زوجها ، ومالك الحق فى الأمر . وجاءت ، فرأيت — اتباعا لأصول اللياقة ، وقبل أن اضمها إلى صدرى — أن أسألها ردها .. فكان جوابها : « ليس بوسعى أن أتزوج من مجرد غلام ! » .

واخفق صوت جارث وهو ينطق الجملة الأخيرة ، ودقن رأسه فى راحتيه .. كان قد بلغ النقطة التى وقف لديها الكون عن الحركة .. النقطة التى كانت عندها كل الأشياء عن أن تكون — كعهدها من قبل — إلى الأبد ! .. ولاح أن الحجرة كانت فى سكون عجيب ، وكأنها سكبت فيها الصوت — التهديد وجدا — فبضا جارغا من الحب والأمل والحنين .. فكشفت عن روح أضفى عليها الحب الصادق للجمال شباهاً أزليا ،

وعن قلبه تحرر وسما بمثله العليا عن كل عبت بحسب أدنى . وامتلا بقوة جبارة ، وبلغ أعلى ذروة عندما عفر — أخيرا — على الحب الصادق ..

وارتجف الطبيب عند هذا الحد من القصة ، وكأنها تسربت إلى عظامه برودة كنية خالية .. وأدرك مدى فسوة الأمر ، بأكثر مما أنباء « جارث » . فقد كان على علم بالسؤال القاسى المذل : « كم سنك ؟ » .. لقد اعترفت له « جين » بذلك ، وعرف كيف خبا نال ذلك الحب الطاهر ، عندما انفنى العقل فجأة إلى الداخل ، ليستطلع دخيلة صاحبه .. لقد كان يعرف كل ذلك بصورة مبهمه ، أما الآن ، فقد رآه على حقيقته مائلا أمامه . رأى عاشق جين المصدوم ، الذى كان بجواره منكس الرأس ، أعشى ، وقد ارتد إلى الماضى يعيش فى غمرة تلك المناظر والأصوات التى لا يمكن أن تخفيها — أو تحجبها — أكثر حجب النسيان رحمة !

ولقد كانت للطبيب ذنوبه ، ولكنها لم تكن كذنوب القديس بطرس . فما تكلم يوما — ومهما تكن الظروف — لمجرد أن يقول شيئا . ولكنه انحنى إلى الأمام ووضع يدا حانية على كتف جارث « وقال : « يا لك من غنى مسكين ! .. آه ، يا للمديق المسكين ! » .

وفلا جالسين فى صمت « على هذا الوضع ، وقتا طويلا !

الفصل الخامس والعشرون

« إن غلم تبدى رأى ، ولا أوضحت شيئا ، بل تركته على اعتقاده ..! »
« يا ديكى ..! كان جديرا بك أن تتكلم ، وإن تسهب ! » .

كانت جين قد تسلمت مع الطبيب ذلك الدرب المفتى ، الذى يمتد - من نهاية الشرفة - متعرجا إلى بقعة عارية ، وسط أشجار الصنوبر « فى صباح يوم الأحد الذى سادته الهدوء .. وكانت ثمة شجرتان قد سقطتا على الأرض متباعدتين قليلا - بحيث تصلحان لأن تكونا مقعدين فى أشعة الشمس ، تجاه منظر بديع يمتد إلى أسفل الوادى ، ثم عبر الوادى ، ويمتد إلى التلال الأرجوانية القائصة خلفه .. وقاد الطبيب «جين» إلى الشجرة التى كانت تحظى بأكثر قسطن من أشعة الشمس ، ثم جلس بجوارها ، وراح يسرد عليها - فى أناء - حديث الليلة الماضية حرفا بحرف « ثم قال : « لم أبد أى رأى ، ولا أوضحت شيئا ، بل تركته على اعتقاده » لأن هذا كان المسلك الوحيد حتى تبقى متربعة فوق البرج العاجى الذى يواك إياه . ولو أدلينا بأى سبب لتصرفك - سوى جهل بالرجال يشبه جهل الأطفال - لفتحنا الباب لأشياء تقال فتلقى قبولاً ، وإذ ذاك تهوين يا فتاتى المسكينة ، ويكون الوقسوع أليما . وشللت بدى إذا كانت هى التى تدفع بك إلى تلك الهوة .. تقولين إنه كان جديرا بى أن أتكم وأسهب ، ولكن هذا كان خليقا - كذلك - بأن يجعلنى أعيش مقتصرأ نادما ! » .



وقاد الطيب (جين) إلى الشجرة التى كانت تحظى بأكثر قسطن

من أشعة الشمس . ثم جلس

وقالت جين في استهتار : « لأن اسقط بين ذراعيه وأبقى هناك ، أحب إلى من أن أتربع فوق برج عاجي ! » . فأجبتها الطيب : « معذرة يا بنيتي الطيبة ، فقد كان الاحتمال الأصح هو أن تهبطي إلى أول قطار سريع يرحل إلى الجنوب .. بل اننى لا أجزم بانك كنت تنتظرين القطار السريع ، حتى اننى لا أكاد أتمثل النبيلة « جين شامبيون » تبارح محطة صغيرة ، في غربة فارغة من ناقلات الفحم . كلا ! لا تنهضى ولا نحاولي السير بخطى واسعة بين قرم أشجار الصنوبر » . وجذبها فأجلسها حيث كانت بجواره ، ثم استأنف قوله : « لو أنك فعلت ، فلن تجنى سوى أن تتعثرى وتبوى في وضع رأسى إلى الوادى . وليس من المفيد تعجل السقوط الذى لا مناص منه ! » . فتنهدت جين ، ووضعت ذراعها في ذراعه « واحتضت رأسها لتخفى عينيها المعصوبتين في سترته الصوفية الخشنة في ثيابا كتفه » وهى تقول : « اواه يا ديكى ! .. لست ادري ما الذى ألم بك اليوم . إنك لم تعد لطيفا معى .. لقد مزقت روحى التسعة بفكرارك كل ما قاله جارث في الليلة الماضية .. وبفضل ذاكرتك المرهفة الفظيعة ، استطعت أن تقلد رنات صوته وثباين خبراته .. ثم ، وبدلا من أن تسرى عنى ، إذا بك تتركنى غارقة إلى اذنى في الخطأ ، بل اننى قد ترديت ! » .

وقال دريك : ! في الخطأ ، هذا حق .. لما انك ترديت فلا .. وما قلت اننى لن افعل شيئا اليوم ، وإنما قلت اننى بالأمس لم افو على عمل شيء .. فليس في الوسع أن يأخذ الإنسان شيئا جريحا فيقلبه بين يديه ويحمله . وعندما تبادلنا

تحية المساء ، قلت له اننى سافكر في الأمر ، وأدلى إليه بראى اليوم .. وإذا شئت أنفضيت إليك بها حدث لى .. لقد تأملت الفجوات الغائرة في نفس جميلة ، نادرة ، فرايت مبلغ الدمار الذى تقوى اية امرأة على أن تحدثه في حياة الرجل الذى يحبها . وأؤكد لك بأن الليلة الماضية لم تكن ليلة راحة وتسليه . وقد استيقظت هذا الصباح وأنا أحس كمن ضرب ضربا مبرحا ! » . فسألته جين بلهجة مؤثرة : « فما بالك بى أنا ، إذن ! » . وكان جوابه : « أنك ما تزالين تشعرين في نفسك بانك على جانب من الحق . وما دبت مصرة على الاعتقاد بأن لديك ذرة من المبررات ، وتتمتعين بها « فلا أمل في حالك .. يجب أن يكون قولك : اننى أعترف .. فمثل تصلح ! » .

وصاحت جين : « ولكننى تصرفت بما يحققي الخير .. فكرت فيه قبل أن أفكر في نفسى .. وكان الأسهل أن أتقبل السعادة السائحة ، وأدع المستقبل للقدر ! » .

— ليست هذه أمانة يا جانيث .. لقد فكرت في نفسك أولا .. لم تجسرى على مواجهة الألم المحتمل إذا لمتر حبه ، أو خبا إعجابه . إن المرء حين يفكر في الأمر « لا يلبث أن يتبين أن كل أشكال الحب الأدنى — باستثناء حب الأم وحده — انانية في جوهرها . وخير فرصة سائحة لدالين هى أن يوقظ عجزه الكامل وغقدانه بصره ، الحب الأموى في نفسك ، وإذا ذاك تغاضل حب النفس !

فتنهدت جين وقالت : « واهالى ! .. اننى تالفة » .

حائرة في دياجير الظلام .. ما من شيء يبدو لي واضحاً وما من شيء يبدو صواباً ، ولو استطعت أن أرى عينيك الرقيقتين ، لأخف إبداء صوتك القاسي » . وكان رد الطبيب : « إذن ، فأخلمي هذه العصاة وانظري ! » . فصاحت جين في غضب : « لن أفعل ! افتحملت كل هذا ، لكي أفضل في النهاية ؟ » .

— يا بيتي العزيزة ، إن هذه الظلمة التي تفرضها على نفسك تؤثر على أعصابك ، فحذار أن تؤدي إلى ضرر أكثر مما تؤدي إلى خير . إذ أن الأدوية الشديدة ..

فهمست جين قائلة : « أصمت ، فاني أسمع خطوات ! » . فأجاب الطبيب بصوت خافت : « إنك تستطيعين سماع وقع الأقدام في الغابة إذا ما أصغيت إليه » . ثم سكنت منصتا . فهمست جين قائلة : « إنني أسمع خطوات جارث .. أواه .. ديكى .. تقدم إلى حافة الطريق ، وانظر ، ففى وسعك أن ترى القادم في منحنيات الطريق السفلى » . فسار الطبيب إلى الناحية التي أشارت إليها في حذر ، وألقى بنظره على الطريق الذي صعدا فيه ، ثم عاد إلى جين قائلاً : « حقاً ! أن الحظ يحالفنا . فإن دالين ساعد إلينا ومعه سمسون ، لن يثبت أن يكون هنا بعد دقيقتين » . فتهافت : « الحظ يحالفنا ؟ ! يا عزيزى ديكى ، إنه لأسوأ طالع ! » . وارتفعت يدها نحو العصاة التي كانت فوق عينيها ، غير أن الطبيب سارع إلى منعها .. وقال : « أبداً .. لا تفدى تجربتك في اللحظة الأخيرة ، فإني خليك بأن أبقيكما متباعدين وأنتما لا تبصران .. اطمئنى إلى ، وأمكئى في الظلام .. أمتنى في سكون . الا تفهمين الآن السبب في قولى : إن الحظ يحالفنا .. إن

دالين قادم ليعرف رأيي في الموضوع وتستمعانه معاً ، فيكون ذلك مدعاة لتوفير وقتي ، كما أنه سيبصر بكيفية تلقيه الرد . فالشى الآن دون حراك . واعدك بأنه لن يجلس في حجره .. ولكن إذا صدرت منك أقل حركة ، فسأدعى أنك أرنب برى أو سنجاب ، وألقى عليك قطعاً من اقماع الصنوبر » .

ثم نهض الطبيب ، وسار مقرباً نحو المنحنى الأخير في الطريق . بينما جلست جين في ظلامها . وما لبثت أن سمعت ديكى يقول : « هالو دالين ! لقد اعتديت إلى هنا .. أقتبا بقعة رائعة .. هل نستغنى عن سمسون ؟ .. هلم تأبط ذراعى ! » . فأجابه جارث : « نعم .. قيل لى بأنك هنا يا براند ، فبعتك » . ثم سارا معاً حول المنحنى ، وبلغا البقعة العارية .



وتسائل جارث ، وقد وقف دون حراك : « انت بمفردك هنا ؟ .. خيل لى إننى كنت أسمع أصواتاً » . فأجابه الطبيب : « هذا حقيقى » فقد كنت أتحدث مع شابة » . وعاد يسأله : « أى نوع من الشابات هى ؟ » . فأجابه الطبيب : « فتاة مليئة بالصحة والنشاط ذات مزاج حاد ! » . ومن جديد ، تسأل جارث : « وهل عرفت اسمها ؟ » . فأجابه الطبيب في غير اكتراث : « جين » . ولكن جارث أسرع قائلاً : « ليست جين بل « جان » .. لقد عرفت اسمها الكبرى

لبستاني ، وهي تحمل على منجبيها مسنويات الاسرة ...
ممكنة تلك الفتاة ! » .

وقال الطبيب : « لقد رايتها مكبودة حقا ، وما كنت اعرف
ان تبعات الاسرة هي السبب . نتجس على هذا الجذع . هل
تستطيع ان تذكر المنظر الذي نشرف عليه من هنا ؟ » .
فاجابه جارت : « اجل ، فاني اعرفه تمام المعرفة .. ولكن
الذي ييمت في قلبي الجزع ، هو ان الصور الذهنية بدأت تبهت
جميعا ، عدا صورة واحدة .. فتسأل الطبيب :
« وهي ... ؟ » . وقال « جارت » ، وهو لا يبصر : « صورة
المرأة الوحيدة ! » . فهتف الطبيب : « آه يا صديقي العزيز ! ..
لم انسى وعدى لك بان اوافيك اليوم برأى في قصتك . لقد
نقلتها بحثا وتفكيرا ، ووصلت إلى عدة نتائج . انجلس على
جذع هذه الشجرة .. الا تريد ان تدخن ؟ .. ان الحديث
يطلو تحت تأثير رائحة التبغ » .

واخرج جارت علبة سجائره فتناول منها واحدة « أشعلها
بكل عناية ، ثم طوح بالثقاب المشتعل » فسقط فوق اصابع
جين .. وقبل ان يسرع الطبيب اليها ، كانت جين قد القت
بالثقاب بعيدا وهي تبسم .. فقال دريك لنفسه : « يالها من
اعصاب .. ان تسعا وتسعين بين كل مائة امرأة ، ما كسن
ليحجمن عن ان يصحن : « آه ! » ، ويثرن ضجة .. حقا
إنها لجديرة بان تنصر ! » .. وفجأة نهض جارت قائلا : « اظن
ان الأفضل لنا ان ننقل إلى جذع الشجرة الأخرى » ..

واكمل : « لأنها أكثر تعرضا لأشعة الشمس » .. ثم سسار
تاجية « جين » . ولكن الطبيب ففز أمامه ، فأمسك بيد جين
بأحدى يديه وجذبها خلفه « وقاد جارت باليد الثانية إلى حيث
كانت جين جالسة .. ثم قاد جين إلى الشجرة الأخرى ..
فعمل كل ذلك ، وهو يقول لجارت : « ما أدق تقديرك
للهافات ! » .. ثم جلس بجواره وأردف وأنفاسه متهدجة :
« والان لنعد إلى حديثنا ! » .

وهنا سأل جارت : « أوافق أنت من أننا منفردان .. ان
إحساسا يخالجنى بوجود شخص آخر سوانا » . فاجابه
الطبيب : « يا صديقي العزيز ، هل بوسع إنسان ان يكون
منفردا في الغابة ! .. كم من كائنات دقيقة تحيط بنا ! .. وكم
من عيون براقطة تطل علينا من بين فروع الأشجار ! ..
وكم من اذنان ناعمة تتسلل من الجحور وإليها .. وكم من
أشياء غير منظورة تتحرك بين الأوراق الذائبة تحت اقدامنا
.. فاذا أردت الوحدة الكاملة ، فتجنب الغابات ! » . فاجابه
جارت : « نعم ، أعلم بوجودها ، وأولع بالانصات إليها ..
وإنها كنت أرمي إلى كائن آدمي .. يابراند ، كثيرا ما يساورني
شعور بوجود كائن بشري غير منظور قريبا مني . اقتصور أنني
اكاد أقسم بأنها - « المرأة الوحيدة » - قد جاءتني في سكون
- منذ أيام - وتاملتني في عماى ، وأشفقت علي ، بقدر
ما وسع قلبها الكبير من حنان . ثم رحلت في صمت ! » . فسأله
الطبيب : « متى كان ذلك ! » .

— منذ بضعة أيام .. كان الدكتور

بها في .. آه ، ليس لي أن أذكر المكان . ثم تركني هو والآتية
جراى وحيدا .. وفي ظلام وحدتي ، والسكون شامل ، شعرت
بسينيها تحديقان في ...

فأجابه الطبيب : « يا بني العزيز .. يجب ألا تشجع مثل
هذه العادة البغيضة المتعلقة بأطياف غير منظورة ، وتذكر أن
الذين يهتمون بأمرنا اهتماما صادقا ، يستطيعون أن
يشعرونا دائما بقرينهم منا عقليا ، ولو كانوا على بعد شاسع .
لا سيما إذا علموا أننا في ضيق وفي حاجة إليهم .. فلا يدهشك
أن تشعر - في كثير من الأحيان - بقرب « المرأة الوحيدة » ..
إذ أنى اعتقد - ولا أقول ذلك جزافا يادالمين - بأن كل قلبها
وحبها وحياتها لك أنت ! »

فنهف، جارت : « يا الهى ! » وهب واقفا وهو ينتفض ، ثم
مشى على غير هدى ، فامسك الطبيب بذراعه .. ولو أنه توانى
دقيقة ! لكان جارت قد تمثر في قديم « جين » . وقال له :
« اجلس يا رجل واصغ لما أقول .. إن تفيد شيئا من اندفاعك
الفجائى في الظلام على هذا النحو .. وسأبرهن لك على
صحة ما أقول ، على أن تعيرنى انتباهك في هدوء . فأنصت
إلى : إننا نواجه في هذه الحال معضلة نفسية .. معضلة من
المحتل جدا أنها لم تحدث لك أنت ! .. أريد منك أن تتخيل
أمامك - للحظة واحدة - « الرجل الأوحده » و « المرأة
الوحيدة » .. وقد واجه كل منهما الآخر في جنة عدن أو في ضياء
القمر .. حيثما كان ، ونفا لما يروق لك .. فهل تستطيع ؟ »

إن الأثر الذى يسيطر على الرجل حين يسقط في حبائل الحب ،
هو أن يخلق فيه فقداناً كاملاً لشعوره بنفسه .. بينما يكون
الأثر الذى يسيطر على المرأة - من ناحيتها - إذا أحبها شخص
وأرادها لنفسه « فاستجابات لذواء الحب ولتلك الرغبة ، هو
أن تشعر شعورا كاملاً بنفسها .. فالرجل يفكر فيها وحدها ،
وهو يتوق إلى الظفر بها والاستحواذ عليها .. أما هى - التى
دعيت لكى تستسلم وتمنح نفسها - فإن عقلها يتركز بكليته
على نفسها .. اتلبى نداءه وتقابل رغبته ؟ .. أهى كما يظنها
تماما ؟ .. هل في مقدورها أن ترضيه إرضاء كاملاً ، ليس في
بداية حياتها فقط - بل على طول السنين المقبلة ؟ .. وبقدر
ما يكون قد عاشت ساذجة ، غير حافلة بنفسها ، تكون قسوة
صدمة المفاجأة عليها ، وتكون وطأة الشعور والاهتمام بذاتها !

والفتى الطبيب ناحية « جين » ، وهى جالسة على الشجرة
الآخرى ، على بعد ست أقدام منها . وإذا بها ترقع يديها
المعقودتين ملوحة له ، وقد أضاء وجهها نور الارتياح والامتنان .
فشعر الطبيب بأنه قد لمس الوتر الحساس . أما الوجه الأعمى
الجالس بجواره ، فقد كسسته سحابة قاتمة ، أخفت زرداد
تنمنا كلما استرسل الطبيب في حديثه ، وهو يقول : « لقد
نهبت منك يا صديقى العزيز ، أنها لم تكن من النوع البارع
الجمال الذى عرف عنك أنك كنت تمعج به . أما يكون أقرب
للعقل أنها أوجست خيفة من أن يظهرها قد يقتل - بسا
حين - في إرضائك ! » .. فأجاب جارت : « كلا

.. ان مثل هذا الراى لا يستحق شسبنا .. ونوق ذلك .
فلو ان الفكرة ساورتها - على اى احتمال - لما كان عليها
إلا ان نسالنى عن تلك النقطة . وكان قرارى خليقا بان يكون
قاطعا ، وجوابى كفيلا بان يطمئنها اكمل اطمئنان ! » .


وردد الطبيب الحكمة المشهورة : « الحب اعمى ! » . فصاح
فيه جارت : « كذب وهراء ! .. إن الحب بعيد النظر - حتى
انه ليرى ما تحت المظهر » وينتشى بآيات الجمال التى لا تراها
عيون غيره ! » .

وسأله الطبيب : « إذن ، فانت لا تقل نظربنى ؟ » . فكان
جواب جارت : « لا اقبلها كتفسير لمعضلتى .. لأننى اعرف
جيذا بان عظمة نفسها كانت تسبو بها فوق مثل هذه
الاعتبارات . ولكنى أقر رايك بشأن النسيان التام للشعور
بالذات لدى الرجل المحب » وإلا فكيف كنا نقوى ونجرؤ
على التقدم للبراء بطلب الزواج منها ؟ اواه ، يا براند ! .. كلما
فكر الإنسان غيبا وراء ذلك من اقتحام لحياة المرأة الخاصة ،
والتهاس الحق فى اللبس .. حتى لىس يدها يجب ان يكون
يقبولها ورضاها .. كل هذا لا يمكن الإقدام عليه . ما لم يكن
الهيام بها ، والتفكير فيها قد جرفنا امامها كل تفكير
فى النفس ! .. إننى إذ أردت بفكرى إلى ذلك الوقت . اذكر
كيف نسيت نفسى تماما ! .. وعندما قالت لى فى الكنيسة :
« ما عمرك ؟ » .. آه لقد سهى على ان احبذك عن هذا
بالأمس .. إن هياج الشعور - الذى احده تحويل الأضواء

على نفسى - فى تلك اللحظة - كان قاسيا ، حتى لقد لاح أن
فرحى قد انكمش ومات جزعا من عدم جدارتى بها ! » .

وساد الغابة صمت شامل . وأحسن الطبيب بانه يلعب جولة
خاسرة ، فاستحى ان ينظر إلى الجهة الأخرى ، حيث كانت
المرأة تجلس صامتا ، وأخيرا تكلم قائلا : « هناك حلان
محتملان لشكلتك يادالمن ، هل تعتقد بان « جواء » - فى هذه
الحال - كانت تتراجع فى خفر العذارى ، متوقعة من « آدم »
ان يلاحقها ؟ » . فاجابه جارت بلهجة التاكيد : « آه ، كلا ..
كنا قد تجاوزنا كل هذا ، وما كنت لتبدى مثل هذا الراى لو
أنك عرفتها شخصا .. إنها صادقة ، صريحة إلى أقصى حد .
فما كانت لتخدعنى .. ومع هذا « فلو ان الأمر كان كذلك ،
لكانت خليقة بان تكتب لى عما كانت تقصد حقا ، بعد أن مرت
كل هذه السنوات فى وحدة ، وبعد ان تبينت أننى لم أجد أية
إشارة ! » .

وسأله الطبيب : « وهل كنت تعود إليها لو حدث هذا ! » .
فاجابه جارت فى ببطء : « أجل .. كنت أعود ، وكنت أصغى
عنها ، لأنها لى .. ولكن ما كان للأمر - فى هذه الحال - أن
يحفظ بجدة الحال الأولى وروعتها .. إذ ان فيه ما يتنافى مع
ما تحلينا به معا ! » .

فاستأنف الطبيب حديثه قائلا : « حسنا ، بقى أملى الآن
الحل الثانى .. فلقد اعترفت لى بأن «  »

تماما مستوى الجبال ، في حين كان حبك وشغفك بالجبال معروفا .. أفلا تعتقد أن شجاعتهما قد خانتها ، خلال الساعات الطويلة التي مرت بها في تلك الليلة — واستعرض في ذاكرتك ما قلت لن من أنها بوغت حين أنهالت عليها منك مفاجأة الرغبة والحب والعبادة — وأن الرعب ملأ قلبها ، خشية أن تعجز عن إيفائك حثك ، وعن إشباع حاجتك ، من حيث الوجه والملاح التي ستبقى أمامك دوما على المائدة .. وعلى الرغم من حبها العارم وحبك ، فقد دار بخلدنا أن الحكمة تقتضى تجنب خيبة الأمل مستقبلا ، بأن ترفض السمادة الحاضرة المؤقتة .. قد يكون حبها العارم لك هو الذى سلحها لتقدم على هذا القرار ! » .

وعند ذلك أومات الصامته الجالسة أمامها ، وظلت صامته جامدة وقد عقدت يديها في صبر وانتظار . فبعد تولي دريك الدفاع عن قضيتها خيرا مما لو تولت هي الدفاع عنها .. وساد الصمت القابة . وكان الطبيعة بأكملها قد سكنت منصته للجواب « وأخيرا سمعت كلمة » لا « تصدر من جارث في صوت غنى لا يشوبه تردد .. ثم أردف قائلا : « كان لزاما عليهما — في هذه الحال — أن تكاشفتني بمخاومتي » فكنت أطمئنهما نورا .. فهذا الاستنتاج كذلك لا يليق بمحبوبتي ! » .

وهنا تهبّت الرياح خلال الأشجار ، ومرت سحابة أمام الشمس « فارتجف الاثنان الجالسان بغير ابصار ، وظلا صامتين . ثم قال الطبيب بصوت عميق الحنان : « يا بني

العزیز . اننى اتمسك ولا اترجّح عن اعتقادي بأنك « الرجل الاوحد » لتلك « المرأة الموحدة » ، وأن مكانها الشرعى — في حالة نقدان بصرك — هو بجانبك .. ولعلها الآن تتحرق لهفة إلى أن تكون هنا . فهل تخبرنى باسمها » وتاذن لى بأن أبحث عنها - واسمع من فيها تفصيل قصتها .. حتى إذا كانت كما اعتقد . جئت بها إليك لتبرهن لك — وأنت في محنتك الحالية — على مبلغ حبها وحنانها ؟ » .. فقال جارث : « أبدا ، أبدا .. ما بقيت في أنفاس تتردد ! .. ألا ترى أنني — حين كنت ببصرى وشيرتى وبكل ما يشتهى القلب — لم أتمكن من اكتساب حبها . فأى شعور — سوى الإشفاق — يساورها نحوى الآن ، في محنتي ، وأنا عاجز فاقد البصر ؟ .. والإشفاق منها امر لا يمكن أن أقبله إطلاقا .. وإذا كنت « مجرد غلام » — منذ ثلاث سنوات — فانا الآن « مجرد رجل أعمى » .. موضع شفقة وعطف .. ولو أنك كنت محقا فيما قلت ، من انها لم تطمئن إلى حبي ووفائى . فقد خرج الآن عن طافتي — إلى الأبد — أن أثبت خطأها ، وأبرهن على إخلاصى . ولكننى لن أسمح بأن تلوث طيف محبوبتى هذه الاقتراحات .. لقد كانت تحتاج — لاستكمال كمالها — إلى أكثر مما كنت قادرا على أن أتيح لها .. لقد رفضتني لأننى لم أستكمل كفاءتى لها .. وإنى لأؤثر أن يبقى الأمر على هذا الوضع . فلنتركه هكذا ! » .

فقال الطبيب بكل حزن : « ان هذا يتركك مع الوحدة » .. فاجابه جارث بصوته الفتى : « اننى افضل الوحدة على أن

أفقد لذة الخيال .. أنصت ، افنى أسمع طرقات التنبيه إلى موعد الأكل .. فسوف تحزن مارجرى إذا تركنا أطباق يوم الأحد حتى يبرد ! » .

ثم هب واقفا واتجه بوجهه الأعمى نحو المنظر الطبيعي . وقال : « آه ، لكم أعرف هذا المنظر ، فعندما أجلس هنا مع الأنسة جراى ، تصف لى هى كل ما تراه » أذكر لها أنا ما لم تلاحظه ولكنى أعرف أنه موجود .. أنها مشغوفة بالفن . وبمعظم الأشياء التى أحفل بها . لا يد لى من أن أسالك أن تعيرنى ذراعك يا براند .. فمع أن الدرب واسع ، مأمون . إلا أننى لا أستطيع أن أعرض نفسى للتعثر . وقد وعدت الأنسة جراى بذلك . لقد تعثرت بواحد أو اثنين من الثباتات الزاحفة .. ولكن الطريق متع ، يمكننا أن نسير اثنين أو ثلاثة فى صف واحد ، إذا اقتضت الضرورة ذلك .. لقد كان جبيلا أن نه تهيد هذا الدرب المتسع ، فقد كان فى الماضى ضيقا . وعرا ! » .

وعقب الطبيب : « نعم ، بوسع ثلاثة أشخاص أن يسروا صفا واحدا : إذا أردنا ذلك ! » .. ثم عاد أدراجه فأنهض « جين » من مكانها ، وسحب يدها الباردة حول ذراعه اليسرى ، ثم اتجه إلى جارث « وقال له : « والآن يا صديقتى العزيز ، هاك ذراعى اليمنى حتى تتمكن من أن تعتمد ببسلك اليمنى على عصاك ! » .

وعلى هذا النحو سار ثلاثتهم هابطين خلال الغابة فى صباح يوم الأحد . وكان يوما بديعا من أيام مبكرة من الصيف .. وسار الطبيب منتصب القامة بين الشابين الجريحي القلبين . وقد جمع بينهما ، فى الوقت الذى كان يفصل فيه بينهما ! .. مرة واحدة توقف فيها « جارث » عن السير ، وأنصت قليلا ، ثم قال : « يخيل لى أننى أسمع خطوات شخص ثالث » إلى جانب خطواتك وخطواتى « .. فأجابه الطبيب قائلا : « ان الغابة ملأى بأصوات الخطوات .. كما أن القلب ملأى بالأصدا .. فإذا توقفت عن السير وأصغيت ، فستسمع ما تشاء من كل منهما ! » . فقال له جارث : « إذن ، فلنمض فى السير دون توقف . فقد اعتادت مارجرى أن تضربنى . حيث كنت اتأخر عن موعد الطعام ، فى الأيام الغابرة ! » .

الفصل السادس والعشرون

« لسوف يكون من المستحيل على إطلاقاً - يا آنسة جراى - ان أعبر لك يوماً عما أحس به أزاء ما تكبدت من أجلى ! » .

وكان جارث يقف في نافذة المكتبة المفتوحة ، وقد نفخت أشعة شمس الصباح إلى داخل الحجرة .. وكان الهواء معطراً بعبير الزهور ، يتردد فيه تغريد العصافير . وقد تجلت عليه في وقتها تلك - تحت ضياء الشمس - لمحة جديدة من القوة والامل المزدهر ، شملت كل خط في قوامه المشوق .. ومد يديه نحو الممرضة « روزمارى » ، في شوق وشفق ، ولكن .. عن رغبة دافقة في التعبير عن التقدير والشكر . أكثر مما هو عن رجاء في أن تلتقى يداه بيدين تستجيبان له . وقال : « وما أنذا أتصور أنك قضيت عطلة الاسبوع في مرح ، وأسائل نفسى : أين .. ومن تراهم أصدقائك المقيمون على مقربة من هنا .. في حين أنك كنت - طيلة الوقت - جالسة معصوبة العينين ، في الحجرة التى تملو حجرتى .. آه ، إنها لطيفة تعجز الكلمات عن وصفها ! .. ولكن خبرينى : ألم تشعرى وأنت تفعلين ذلك « بأنك تقدمين على شئ من المخادعة يا آنسة جراى ؟ » .

وكانت جين المسكينة قد شعرت بذلك طيلة الوقت « ومن ثم أجابت فوراً : « أجل . ومع ذلك فأننى أخبرتك بأننى لن

أذهب بعيداً عن هنا .. أما أصدقائى الذين يقيمون في الجيرة فهما سيمسكون ومارجرى اللذان اشتركا معى وعاونائى . ولقد كنت صادقة إذ قلت إننى راحلة .. أما كنت راحلة حقاً إلى الظلام .. وهو عالم يختلف تمام الاختلاف عن عالم النور ؟ » . فصاح جارث : « يا أصدق ما تقولين ! .. وما أشق ان تجعلى الناس يدركون ما في ذلك من وحدة ووحشة ! .. وكم يلوحون وكأنهم قد وصلوا فجأة على مقربة من المرء ، قادمين من عالم آخر ، أو هابطين من أحد الكواكب النائية ، يحملون صوفاً بنفيس عطفاً ، وروحاً ودية .. ثم يرحطون بعد ذلك إلى عالم آخر « مخلفين المرء في عزلة عظيمة ، في أرض لا ابصار فيها ! »

واقترت الممرضة « روزمارى » أقواله « وأضافت : « أجل .. ويكاد يملكك الفزع مما هو آت ، لأن الرحيل يجعل الظلام أشد حلكه .. والوحدة أشد وحشة ! » . فنهف : « إذن فقد اجتزت هذه التجربة ؟ .. اتعلمين اننى - بعد قضائك عطلة الاسبوع في « الأرض التى لا ابصار فيها » - لن أعود أشعر بأنها مكان موحش « وسارد في كل مرة : « ان شخصاً عزيزاً مخلصاً كان يقيم هنا ! .. ؟ » . وضحك في ابتهاج الصبى الصغير ، حتى أن كل ما في حب « جين » من أمومة هب وراح يطالبها بأن تقدم على مجهودها الأعظم .. الأوحش . وأخذت تتأمل القوام النحيل في ثيابه البضاء ، وهو منكئ على حافة النافذة في رجولة ، وهو ما يزال محتفظاً بجماله ، وإن صار عاجزاً ، في أشد الحاجة إلى ما كان في وسعها أن تمنحه من حنان وأفر . ثم ولت وجهها نحو « رافى » وفتحت ذراعها :

وكانما أوتى هذا المكان الذى أعدته لراحته - والذى كان
تربيا منه - قوة مغناطيسية كفيلة بأن تجذبه إليها ..

وظلّت هكذا واقفة فى الشمس الساطعة ، تسائل نفسها :
أهى جميلة لا .. وهل فيها من المحاسن ما يستحق التصوير ؟
.. وهل يسام أى رجل من وجه كهذا يتطلع إليه ، ومن
زراعيين كزراعيها البسوطيين لا .. والهنّاء ! لقد ضاعت
الفرصة ، ولن يقدر لعاشق أن يصدر حكما .. لقد كانت
هذه النظرة من حق رجل واحد ، وهو وحده الذى بقوى على
اجتلابها إلى وجهها العاشق . وقد أصبح لا يملك أن يتحدث
عن جمالها بصوت الولهان القانع .. لم يعد يملك أن يحكم
على جمالها ، لأنه لا يرى .. لأنه أعمى !

وقالت أخيرا : « هناك كثير من التفاصيل الصغيرة -
يا سيد الدالين ، ولكنى أريد قبل أن نتحدث عنها - أن أخبرك
بأعظم درس تلقينته فى الأرض التى لا أبصار فيها » . ثم فطنت
إلى أن انفعالاتها العاطفية بدا يبعث فى صوتها رنيناً عتيقا قد
يبعث فى نفسه ذكرى حية لأنغام « المسبعة » ، فامسكت عن
الكلام . ثم استأنفته فى طبقة ثانية من صونها ، طبقة عالية
رخيمة ، هى الطبقة الأخيرة من صونها ، وقد خصت بها نفسها
الثانية بوصفها الممرضة روزمارى : « يبدو لى - يا سيد
الدالين - أننى قد تعلمت أن أفهم كيف أن الوحدة التى تفوق
الوصف بالنفسية للشخص الواحد : يمكن أن تتحول إلى تعميم
من أروع أنواع ، بالنسبة لشخصين . وتبين أن هناك ظروفا
قد يصيح الظلام فيها أبدع مكان للمتقن الأرواح » فلم أننى

أحببت رجلا فقد بصره ، لاسعدنى أن يبقى لى بصرى ليكون
عينين له عند الحاجة إلى عينين .. تماما كما لو أننى كنت
ثرية وهو فقير ، فأننى ما كنت أرى لثروتى قيمة إلا فى أنها
تد تكون ذات نفع له .. ولكننى أعلم بأن نور النهار كان
خليقا بأن يكون غفرة ضيق لى ، لأنه من الأشياء التى لا يمكنه
أن يسيطر عليها .. فإذا جن الليل ، فأننى كنت خليفة
بأن أتوق إلى أن أقول : « لنطفئ الأنوار ، ولنحجب ضوء
القدر ، ولنجلس معا فى الظلمة اللطيفة الناعمة ، التى هى
أقوى على أن تربط بيننا من النور ! » .

وبينما كانت جين تتكلم ، امتقع وجه جارث وهو ينصت
إليها « واختلجت عضلات وجهه .. وفجأة تضرع وجهه بحمرة
صبائية بلغت منبت شعره ، وأجفل من الصوت الذى تدفق
بهذه العبارات إلى أذنيه .. ثم تحسس بيده اليمنى الخيط
البرتقالى الذى يقوده إلى مقعده ، وبعد أن جلس ، قال لجين
التي لم تكد تسمع صوته ، حتى ردت ذراعيها إلى جانبيها
وانتهت نحوه : « أيتها الممرضة روزمارى .. لطيف منك أن
تحدثينى عن كل هذه الأفكار الجميلة التى ساورتك فى الظلام .
ولكننى أأمل أن يكون السعيد الذى يحظى بحبك ، أو الذى
سيبعده الحظ بأن يحظى به ، فى وقاء من تعاسة فقدان
البصر . لخير له أن يقيم معك فى النور » من أن يكون حجة
تبرر الطريقة الكريهة التى تودين بها أن تؤهلى نفسك للحياة
فى ظلامه .. والآن ، ما رأيك فى أن نقض الرسائل ؟ » ..
وتحسس بيده الخيط البرتقالى ، وسار إلى مقعده . وإذا ذاك ،

أدركت جين - بجزع واستياء الفين - مدى ما اقترفت ! . ذلك أنها كانت قد نسيت الممرضة « روزمارى » تماما ، فلم تستخدمها إلا كوسيلة لتبعث فى جارت أدراكا لمدى ما كان لحبها هى - حب جين - من قيمة بالنسبة لعماء .. كانت قد نسيت تماما أن الممرضة « روزمارى » هى الشخصية الوحيدة التى عناها هذا الحديث مع « جارث » ، « فهى التى قدمت له دليلا دامغا على اهتمامها ووفائها .. و .. يا للعزيز المسكين « جارث » ! .. ويا لجراة الممرضة « روزمارى » ، وقحتها ! .. فلا بد أنه قد استغنى من حديثها أنها كانت تدارج الحب ! . وأحست جين بأنها محصورة بين البحر والنار ، فلم تجد بدا من أن تغامر - بما طبعته عليه من قوة الشخصية - وتغوص إلى الأعماق !

وسعت إلى مقعدها ، فى الجانب الآخر من المنضدة ، فارتبت عليه وهى تقول لنفسها : « أعتقد أن التفكير فيه هو الذى جعلنى اتبين ذلك ، على أننا - أنا ورجلى الشاب - قد هوبنا معا ، فى الوقت الحاضر .. فهو لا يعلم بوجودى هنا ! » . أما جارث ، فقد اعتدل لفوره .. ومرة أخرى ، ثم تضرع وجهه عن خجله مما تصوره . فقال متعجلا : « يا آنسة جراى ، أرجو ألا تحملنى أقوالى على محمل الوقاحة أو التطفل .. ولكن هل تعرفين أننى كثيرا ما كنت أسائل نفسى عن وجود رجل سعيد .. الرجل الذى تحدثت عنه ! » . فضحكت الممرضة روزمارى ، وقالت : « ليس بوسمعا - فى الوقت

الحاضر - أن تدعوه رجلا سعيدا ، على الأقل فيها يختص بالنسبة لأفكاره بصدى . ولكن قلبى بأسره ملك بديه ، لو حاول - من ناحيته - أن يصدق ذلك . غير أن شسيتنا من سوء التفاهم دب بيننا ، وكان الذنب ذنبى وحدى .. وهو بابى أى إصلاح ! » . فصاح جارث : « يا له من سخيف .. هل أنتما خطيبان ! » . فترددت الممرضة روزمارى ، ثم قالت : « لا يمكن أن ندعو ما بيننا خطبة بمعنى الكلمة ، ولو أنها بلغت ذلك الحد ، إذ أن كلا منا لا يفكر فى أى شخص عدا صاحبه ! » .

وكان جارث يعلم أن ثمة غريقا من الناس يتخذون من « الزمالة » و « التلازم » خطوة تمهيدية للزواج . وهى مرحلة تلو على تلك التى درجت عليها الخادمت من « خروج للنزهة » مع أصحابهن .. وإن كان التعبيران يدلان على ظروف واحدة . فبينما تعمد « فيليس » - الخادم الجبيلة - إلى الخروج مع فتاه القروى ، ليسيرا فى الدروب المحجورة ، وبجوار الأسوار العالية ، أو على الأرصفة وفى الحدائق .. ترى أن الفتى والفتاة فى الطبقة الأخرى ، يقضيان الوقت معا فى قاعات الاستقبال وفى الخمائل ، فى دورا صدقائهم وأقربائهم .. ومع ذلك فإن جارث - لسبب لم يكن يعلمه - لم يفكر مرة فى أن الممرضة « روزمارى » قد تكون من طبقة غير طبقته . ففعل فتاهها الحمار السخيف - الذى استشعر نحوه ببقته عميق - قد انحدر من طبقة دون طبقتها ، أو لعل لألحة نقابة مهنتها تحول دون إتمام خطبة نهائية ، وإن سمحت به « التفاهم » .

ومهما تكن الحال ، فان الواقع المائل أمامه هو أن هذه السيدة الصغيرة ، اللطيفة ، الماهرة ، ذات القلب الرحيم - التي بذلت الكثير في خدمته - لها صاحب « رجل شلب » . وادى الاعتراف بهذا الواقع إلى تخلص عقل « جارت » من عبء ثقيل . فقد خشي - في المدة الأخيرة - ألا يكون أميناً بالنسبة إليها وإلى نفسه . إذ أصبحت ضرورية له ، بل لازمة لزوماً جوهرياً « واستطاعت ببراعتها وتفانيها أن تكسب مكانة وطيدة في عرفانه بالصنيع .. وكانت علاقتهما تتسم بألفة عظيمة . وزمالتها وثيقة مستهرة .

ولقد اخترق الدكتور روب - من عهد قريب - هذه الرابطة بعملى ثقيلة باقتراح ابداء .. وكان « جارت » قد اختلفت به ، وعكف على الإقضاء له بمكنون قلبه ، مبيناً كيف أن الممرضة « روزمارى » قد أصبحت عنصراً لا غنى عنه لسعادته وراحته . مبرهاً عن جزعه كلما فكر في أنها قد تستدعى يوماً بامر من رئيسها . وقد قال له جارت : « اخشى ألا يسبح نظامهن لاية ممرضة بأن تستمر إلى أجل غير مسمى مع مريض واحد . ولكن ، لعل السير دريك يستطيع اقناعهم باستثناء هذه الحالة ! » . فكان رد الدكتور روب : « فلنذهب رئيستها إلى الجحيم ، ودعك من سير دريك .. إذا أردت بقاءها دائماً ، ففك من قبولها .. تزوجها يا بنى وأنا أضمن أنها سترحب بذلك » .. وهكذا داس الدكتور روب بجذاء دعم نعله بالمسامير ، على أصابع قدمى الموقف العاريتين !

ولقد حاول جارت أن يفتزع هذا الاقتراح من مخيلته ، ولكنه اخفق .. وبدأ يلمس من الممرضة روزمارى أفكاراً ومشروعات لصالحه . تجاوز نطاق الواجبات التي فرضها مهمتها بغير « وكانما كانت ثمة حواجز من اهتمام عاطفى . وراح يعصى انحرافه عن راسه مراراً - بعد الدكتور روب بالسخط ، وناعقاً نفسه بأنه حمار مفرور .. ومع ذلك فقد ظل يعاوده - تكراراً في حضور الممرضة روزمارى - جو سحرى من الرماية المنيعته عن الحب .. ثم تعرض ذات ليلة لإغواء شديد ، فناضل به ، بعد ساعى نفسه : لماذا لا يعمل ينصيحة الدكتور روب ! لم لا يتزوج هذه الممرضة الساحرة ، القديرة ، الوفية ، حتى تبقى دائماً بجواره في عماره .. انها لم تعتبره « مجرد غلام » .. وماذا يستطيع أن يقدم إليها لا .. قسراً جميلاً ، وكل أسباب الرفاهية ، وثروة طائلة ، وزمالة بدأ أنها مرتاحة إليها .. ولكن « الاغواء » نفذ إلى اعماقه عند هذا الحد ، إذ همس لنفسه : « وسيتبقى صوتها هو صوت جين دائماً .. انك لم تر قط وجه الممرضة ، ولن تراها ، وبوسمك أن تنسب الصوت إلى الوجه والقوام اللذين تعبهما .. تستطيع أن تتزوج الممرضة الصغيرة ، وان تظل على حبك لجين ! » .. وعند ذلك صرخ « جارت » في هلع قائلاً : « أبعد عنى يا شيطان » . وبيع بذلك المعركة ضد الاغواء ! » .



غير أن عقله ظل مضطرباً ، خشيته أن يكون - لنسبب من الأسباب - قد أزعج « مائتة قلبها » .

ومع ذلك فقد استشعر غيرة لاذعة - لا مبرر لها - عندما ورد ذكر الشاب الذي كانت مشغوفة به .. وما أشبه ما لاح عليها من شقاء بسبب غناها ، بما كان هو فيه من شقاء .. بسبب جبن ! ..

وتولاه حافظ متاجيء بان يتخلص نهائيا من هذه الفكرة التي أصبحت - في المدة الأخيرة - تقوم في ذهنه كحائل بينهما .. وبأن يؤسس علاقتها الودية على أساس أقوى وأوثق مما هي عليه الآن ، وذلك بأن يكون صريحا معها - صراحة تامة - في هذا الصدد . لذلك لم يلبث أن قال لها ، وقد انحنى نحوها ، وعلى وجهه تلك الابتسامة المرحضة ذات الطابع الصبياني ، التي لم تقو كثير من النساء على مقاومتها . وقال لها : « يا أنسة جراي .. حسن منك أن تحدثيني عن نفسك . ومع أنني اعترف بأنني شمرت بغيرة - لا مبرر لها - نحو ذلك الفتى السعيد الذي تملك قلبك ، إلا أنني مسرور لوجوده ، لأننا جميعا نظل نحس بنقص ما ، حتى تدخل حياتنا التجربة العجيبة .. أعني « المرأة الوحيدة » ، أو « الرجل الأوحده » . وإنني لأود أن أخبرك بأمر يمسنى وإياك يا صديقتي العزيزة اللطيفة ولكنني لن أفعل ، حتى تضمي يدك في يدي . لا تبينك في مزيد من الآفة .. إنك - وقد زوت « الأرض التي لا أبصار فيها » - تقدرين تماما قيمة تماسك اليدين هنا ! » .

ومد جارت يده فوق المنضدة ، وقد توترت حركاتها كلها ، في انتظار ما هو آت .. فاجابته الممرضة روزماري وصوتها

يرتعش قليلا : « ليس يوسعني أن أفعل ذلك يا سيد الدمين ، فقد أصيبت يداي بحروق .. آه ، ليست خطيرة .. لا تبذ مهوموا إلى هذا الحد ، فإن الأمر لم يعد لهب ثقاب .. نعم حين كنت عمية .. وآآن ، خبرني بالشئ الذي يمسك ويمسني ! » .. فاسترد جارت يده وعقدها مع الأخرى على ركبتيه ، ثم استلقى في مقعده ، ورفع وجهه إلى أعلى : فإذا عليه أمارات الطهر والنقاء ، المتولدة عن ابتهاج روح سميت فسوق تجارب الطبيعة الأرضية ، فاغرورقت عينسا « جين » بالدموع وهي تتأمله ، إذ تحققت أحبه إياها من قيمة لديه نساعتها رياضة النفس على احتمال العذاب !

وبدا حديثه في خفوت موليا وجهه عنها : « خبريني ، أهو .. ذو قيمة كبيرة لديك ؟ » . ولم تقو عينا « جين » على مفارقة الوجه الحبيب ، والجسم الذي اضطلع في المقعد . واهتزت عواطف جين في صوت الممرضة روزماري ، وهي تجيب : « انه كل شيء لي في العالم ! » . فسألتها : « وهل يحبك قدر ما تستحقين من حب » . فاجتبت « جين » والصقت شفيتها بالمنضدة ، حيث كانت يده المبسوطة إليها قد استقرت واجابت الممرضة روزماري بأسى « كلا ، والأسف ! .. أخشى أن أكون قد فقدت حبه ، بفضل عدم اطمئناني إليه ، وبسبب ذنبي نحوه ! » .

وهنا قال جارت : « أبدا ! .. إن الحب لا يمكن أن يتلاشى »

.. وقد يظهر - في فترات - كأنه قد مات ودفن ، ولكن صباح القيسامة لن يلبث أن يبرز ، وإذ ذاك .. ينفض الحب من رقدته ! .. إن الحب الجريح الحزين مثل عصفور مبتل الجناحين ، فهو لا يستطيع أن يطير ، ولا يستطيع أن يرتفع ، وإنما هو يحجل على الأرض ، مشقتا في قلق ! .. ولكن كل هزة من جناحيه تسقط عنهما مزيدا من القطرات ، وكل لحظة يقضيها تحت اشعة الشمس تجفف ريشه الدقيق . وسرعان ما يحلق طائرا إلى قمة الشجرة ، وهو أفضل حالا من ذي قبل بفضل الماء الذي غسله ، والذي بدا أنه قد حرره من القدرة على الطيران ! » .

نعمتت الممرضة روزماري : « آواه ! ليت محبوبى يتوى على تجفيف جناحيه ! .. ولكنى أختنى أن أكون قد فعلت به ما هو أدهى من ابتلال جناحيه » لقد ظلمت ريشه .. بل أكثر من ذلك ، لقد كسرت جناحيه ! » . فسألتها جارت : « ترفق بالغ : « وهل يدرك أنك تشعرين بأنك مذنية إلى هذا الحد ! » . فاجابته الممرضة روزماري : « كلا .. إنه لن يتيح لى فرصة للايضاح ، ولا مجالا لأنبه كيف يظلم نفسه وإياى » بالفكرة التى ينشبت بها عن مسلكى نحوه ! » . فهتفت « جارت » فى عطف وإشفاق : « يا الفتاة المسكينة ! » ثم أردف : « لقد كانت تجربتى مأساة قاسية ، حتى أثنى آسى على أولئك الذين لا تمتد أمام حبهيم طريق مهيدة ، ولكن إليك نصيحتى يا أتبسة جراى ، فاعلمى بها : ابغى الله باعتراف كامل .. لا نخشى عنه شيئا ، وأخبريه تفصيلا بكل ما حدث .. فان أى رجل

صادق الحب ، لا بد أن يصدق إيضاحك ، ويتقبله ، ويحمد انخذ المسمى واتاه به . على أثنى أمل ألا يندفع بلى هنا كالإعصار . ليتزعل منك ! » .

وابتسمت جين خلال الدموع ، ثم قالت الممرضة روزماري : « إذا أرادنى ودعائى ، يا سيد دالمين ، فلن أتردد لحظة فى الإسراع إليه ! » . فقال جارت : « كم امتت اليوم الذى تأتئينى فيه قائلة : « إننى مضطرة للرحيل » .. هل تعلمين بأننى أقول لأنفسى - فى بعض الأحيان - إنك قد بدلت الكثير من أجلى ، وإنك قد أصبحت ذات مكانة كبيرة فى نفسى .. ولقد فكرت أحيانا - وبوسعى أن أكلبك الآن بصراحة - بأنه قد تراعى لى أن ثمة طريقة واضحة جدا لمحاولة استبقائك على الدوام .. فانت جديرة أعظم جدارة بكل ما يملك أى رجل من هبات ، ما يستطيع أن يقوم من وفاء . ولما كنت لا أستطيع أن أقدم - لشخص بهذه الجدارة - ما يقل عن خير ما أملك ، فأنى أريد أن أخبرك بأننى أبوى عرش قلبى - إلى الأبد - وجها واحدا حببيا . أما الوجوه الأخرى فقد انمحت مع الأيام ، فأصبح من المصير على - فى عمى - أن أتذكر بجلاء الوجوه الجميلة العديدة التى رسمتها وأعجبت بها .. كلها قد طمست ولم تعد واضحة ، وإن ثابنت نسب الانطماس . أما هذا الوجه فإنه يزداد وضوحا كلما اشتد الظلام ، والحمد لله .. وسيظل معى طيلة عمري ، كما كان دائما وجه

المرأة التي أحب ! .. لقد قلت عن حبيبك إنه قد « أحبك » ..
مترددة في تأكيد بقاء حبه لأن .. أما أنا فلن أقول عن محبوبتي
إنها أحببت أو أنها تحب .. وذلك لأنها ما أحببتني قط في حين أن
حبي لها بلغ المبلغ الذي لا أجده عنده فيها أمك « خيرا » آخر
— غير الذي منحها — لأقدمه لامرأة أخرى ! .. فإذا حصلت
نفسى — بدوام غير لائقة ، أو رغبات أنانية — على أن أسأل
امرأة أخرى أن تقبلني زوجا ، فأننى بذلك أسئ إلى هذه الأخرى
إساءة بالغة « لأن وجهها الذي لا أراه ، لن يكون ذا قيمة تذكر
لدى ، بل سيبقى دائما ذلك الوجه الواحد « والوحيد ، هو الذي
يغير ظمئى .. أما صوت الذى لم أر وجهها ، فسبكون عزيزا
في نطاق ضيق ، لأنه يذكرنى بصوت المرأة التي أحبها ..
يا صديقتى العزيزة ، إذا قدر لك أن تصلى من اجلى ، فاطلبى
الا انحط إلى درجة أن أعرض على امرأة أخرى القشور ...
كما يتبين أن يوصف الزواج منى ! » .

فكانت له الممرضة روزمارى : « ولكن هى .. هى ، تلك
التي جعلت الزواج منك مجرد قشور لغيرها .. تلك التي
كان يوسمها أن تحظى بأشهى الشار .. الثمار الناضجة
الممتلئة .. ؟ » . فقال جارت : « إنها رفضته .. لم تكن الثمار
في نظرها ناضجة ولا ممتلئة بدرجة كافية ولم تكن الثمار لائقة
بها . أوآه يا إلهى ! .. يا فتاتى الصغيرة ! بم تقدرين أن
يظهر المرء غير كفه للمرأة التي يحبها ؟ » ثم أخفى وجهه في
يديه وأرسل أنينا موجعا .. وساد حجرة المكتبة صمت تام ..

وفجأة ، شرع جارت يتكلم بصوت خافت ، سريع ، دون
أن يرفع رأسه : « وآلآن .. الآن أحس وجودها » كما قلت
ليراند .. وما شعرت به أكثر وضوحا ما هو الآن إلا في مرة
واحدة وقد كنت وحيدا .. أوآه ، يا آنسة جراى ، لاتتحركى ! ..
لا تبرحى مكانك ، بل ابقى بنظرة في الحجرة ، وخبرينى هل
ترين شيئا .. انظرى إلى النافذة ! انظرى إلى الباب ! ..
انحنى وانظرى خلف الستار ، فليس يوسمى أن أصدق أننا
وحيدان .. لن أصدق ذلك ! .. اننى مخدوع وأنا أعمى ،
ومع ذلك .. فانا غير واهم ، إذ اننى أحس بوجود المرأة التي
أحبها .. ان عينيهما مصوبتان إلى ، في اشتياق وعطف وأسى
.. إن حزنهما لمصابى عظيم إلى حد اننى أكاد أحس به يحتوينى
كما كنت أحلم بأن حبها يحتوينى ! .. أوآه يا إلهى ! إنها قريبة
منى .. ان هذا لفظيع ، لأننى لا أريدها بقربى .. بل أؤثر
أن يفصل بيننا ألف ميل .. ومع ذلك فأننى أوقن بأنه لا تفصل
بيننا سوى ياردات ! .. أهى رؤيا روحانية « أم أنها حقيقة
واقعية ! .. أم ترانى ساجن ! .. انك لن تكذبى على ،
يا آنسة جراى .. وما من إفراء ، أو وشوة ، أو حيلة لئينة
تقوى على دفعك إلى خدامى في هذا الصدد . بريك يا آنسة
جراى ، انظرى حولك وأصدقينى القول ، هل نحن
وحيدان .. ؟ وإذا لم تكن وحيدتين فمن هو الشخص الثالث
الذى يوجد بالحجرة « الآن سواك وسواى ؟

وكانت جين — طيلة الوقت — جالسة وذراعاها ممتودتان فوق المنضدة ، وعيناها الملهوفتان تحدقان في راس جارت المنحنى .. فلما أبدى أمينه بأن تكون على الف ميل بعيدا عنه ، دفنت وجهها في ثنايا ذراعيها .. فقد كانت قريبة جدا منه بحيث أنه لو مد يده اليمنى لمس حلقات شعرها الكثيرة الناعمة .. غير أن جارت لم يرفع رأسه ، وظلت « جين » صامته ساكنة ، ووجهها بين ذراعيها .. ثم ساد حجرة المكتبة سكون عميق لبضع دقائق أعقبت أسئلة جارت ورجاءه ... وما لبثت « جين » أن رفعت رأسها ، وأجابته المروضة روزماري : « ليس في الحجرة أحد يا سيد دالمين سواك وأنا ! » .



غير أن (جارت) لم يرفع رأسه ، وظلت (جين) صامته ساكنة ، ووجهها بين ذراعيها

الفصل السابع والعشرون

« إذن فانت تستطيعين ركوب السيارات ، يا آنسة جراى ؟ » .

وكانا قد خرجا في السيارة معا للمرة الاولى ، ثم عادا ، فاقبلا يناولان الشاي معا في المكتبة ، للمرة الاولى ايضا . وكانت الممرضة روزمارى تسكب الشاي في قدح مريضها ، للمرة الاولى كذلك . وكان هذا بعد ظهر يوم الاثنين الذي أعقب الأحداث السابقة مباشرة ، وقد أجبرت تجربة آخر الأسبوع امتيازات جديدة كثيرة على الممرضة ، التي قالت مجيبة : « اجل يا سيد دالين . . لا سيما في مثل هذا الجو البديع ! » . وإذا به يسألها : « وهل سبق لك التمريض في بعض الدور التي تملك سيارات ؟ » وترددت الممرضة روزمارى ، ثم قالت : « نعم . . لقد اقميت في دور كثيرة بها سيارات » ومنها دار الدكتور براند . ولقد استقبلنى مرة في محفلة (شيرنج كروس) ، وهو في سيارته الكهربائية ، من طراز بروجهام » . فقال جارت : « نعم أعرفها . . انها سيارة أنيقة . . اكان ذلك وأنت في طريقك إلى مريض ، أو عند عودتك بعد فراغك من تمريض إحدى الحالات ؟ » .

وأبتسمت الممرضة ، ثم عصت على شفتيها ، واجابت في وجوم : « نعم . . كنت في طريقى لتمريض حالة . . كنت ذاهبة

إلى دوره لآشاور معه بشأنها ولاتلقى منه التعليمات الوافيه . . فقال جارت : « لا بد ان العمل مع شخص مثل « براند » نعمة رائعة . ومع ذلك غانا موطن من أن أجل ما قمت به ، كان من تفكيرك أنت . . ومثال ذلك أنه لم يقترح ما قمت به في عطلة آخر الأسبوع . أليس كذلك ؟ . . است اظن . . ان التغيير الكبير الذى اخذته . . . ولأن خبرنى ، حينما كنا في السيارة ، لم يحدث ان تبليت فجأة لنتفادى شيئا في الطريق ، ولا انطلق بومها لتنبيه شخص كى ينادى عن طريقها ، إلا وكنت قد أخبرتنى قبل ذلك بما كنا مقدمين على أن نمر به ، أو ما كان يعترض طريقنا . فكنت نقولين : « سنمر بعربة مלאى بالدريس عند المنحنى التالي ، وسيكون في الطريق متنسج يكاد يكفى لكى نواصل سيرنا » ، أو مثلا : « أمامنا بقرة جبراء في وسط الطريق ، واعتقد أنها ستتحرك إذا انطلق البوق ! » . ومن ثم فانتى لم أكن أفاجأ بالتمهل المبالغت عندما يحين ، أو بصوت البوق عندما ينطلق . أتعرفين وطأة الانطلاق بسرعة ثم التمهّل فجأة على أعصاب الأعشى الذى لا تكون لديه فكرة عن السبب ، أو وطأة الانحراف فجأة ، دون أن يعلم من الذى كانت تنفاده المركبة ؟ . . لقد كانت تزهقنا — بعد ظهر اليوم — متعة خالصة ، لأنك لم تدعيني أتعرض لشيء من هذا . . كنت اعرف كل ما كان يجرى ، بنفس السرعة التى كنت خليقا بأن أعرفه بها أو انتى كنت مبصرا ! » .

فضغطت حين صدمها بيدها ، وقد اسعدها أنها كانت توفى دائما إلى أن تملا حياة فتاها بالسرور المصطفى ، وما أقبل

ما سيضطر إلى معاناته في العمى ، لو أنها فازت بحق البقاء بجانبه دوايما . وما لبثت الممرضة روزمارى أن قالت : « وعدا ذلك يا سيد دالين » فانتفى رافقت السير دريك في السيارة إلى المحطة بعد ظهر أمس « وقد شعرت بكل ما ذكرته أنت الآن ، وما سبق لى أن أحسست الارتباك العصبى أثناء سير السيارة ، ولكننى تحققت بالأمس مدى ما يترتب على هذه الحقيقة .. فان الراكب يظل يرقب الطريق دون أن يشعر ، ويقيس المسافات ، ويقدر السرعة ، ويعرف مرمى كل حركة لمجلة القيادة .. ولذلك فعندما نخرج في السيارة معا ، يجب أن تجعلنى عيّنين تجلوان لك كل هذا .

فاجابها جارث وفي صوته إشعار بمرفان الجميل :
« ما أطيب قلبك ! .. وهل رأيت السير دريك عند سفره ؟ »

— كلا .. فانى لم ار السير دريك طوال مدة وجوده ، وإنما ودعته ، وشعرت بقيضة يده القوية - اللطيفة - عندما تركنى في السيارة .. فبقيت جالسة حتى سمعت صوت القطار عندما تحرك ، وانذاعه مسرعا ، حتى ابتعد ..

— أو لم تشعرى بمشقة إذ تركته يحضر ويرحل دون أن ترى وجهه ؟

وابتسمت جين ، بينما قالت الممرضة روزمارى : « نعم لقد كان ذلك شاقا على نفسى .. غير أننى كنت قد عقدت العزم على أن أجتاز هذه التجربة القاسية » . فقال جارث : « أنها تبعث في الإنسان شعورا مبهما رهيبا .. ليس

كذلك » . وكان جوابها : « أجل ، أنها تكاد تجعل المرء يتبنى لو أن صاحبه لم يأت ! » . ففتهد « جارث » في شعور عميق بالرضى والارتياح . فشرع القلب الجرىء - الذى إبت صاحبه أن ترفع عن عينيها العصابة حتى الساعة المحددة - بجزء طيب في هذه الزفرة !

واستأنف جارث حديثه قائلا : « عندما ابليخ خليج الفراق في الأرض التى لا إيصار فيها » - في المرة التالية - سأقول : هنا « وقف من أجلى شخص عزيز ! » . فمغبت الممرضة روزمارى ضاحكة : « وما أقسى وجبات الطعام ! .. ألا تراها تجربة مشنية عظيمة ؟ » .

— حقا .. وقد فانتى أن اتنبه إلى أنك قد أصبحت ملحة بكل هذه النواحي الآن . وما كان في استطاعتى قبل ذلك أن أبين لك الدافع الذى دعانى إلى أن أتناول الطعام بمفردى .. فانت تعلمين كيف يتصيد الأعمى طعامه !

— نعم .. وكثيرا ما يصمم الطعام على الاختفاء من المرء ، ثم يعود فجأة ، دون توقع .. ولكنى يا سيد دالين قد توصلت إلى عدة أساليب تساعد كثيرا في ذلك ، وتجعل المهمة أكثر سهولة . فإذا قبلت أن تتناول وجباتك معى ، على مائدة صغيرة « فسوف ترى كيف تفلح هذه الأساليب . وعندما تستقبل ضيوفا ، فدعنى - إذا قدر لى أن أبقى هنا - أجلس إلى يسارك حتى يتيسر لى بوسائلى « مساعدة » - أن أعاونك دون أن يستبين أحد أى تدخل منى !

فقال لها جارت : « شكرا لك .. ان قلبي لينبض بالاغتراف لك بالجميل . لكم اذكرو بعنه سحيقه كنت نلعبها في (أوفردين) . أثناء تناوب الحلوى ، في حفلاتنا الخاصة المرحه ، في ضيافته ادوفه ميلدرم . اتعرفينها لا .. لا يد اذك سمعت عنها ، فان السير دريك يعرفها ، وقد دعتة مره لفحص بيغاتها . ولم تذكر له البيغاه في دعوتها التليفونيه . فظن السير دريك انه يدعو لفحص الدوقه ، والفى ميعادا ههنا ، وسارع إليها فوراً .. ومن حسن الحظ انها كانت تقيم - وفسد - في دارها بلندن ، ولو انها ما كانت لتتردد في دعوتة لفحص البيغاه في (اوفردين) .. ولدى وصول براند ، ونم يكن في ذلك الوقت قد بلغ أشهره التى يفتخ بها الآن - ولو انه كان في طريقه إليها - وكان للوقت قيمة كبيرة في نظره .. لدى وصوله إذا به يرى الدوقه في اتم صحة وقوة ، ولكنها في قلق جنونى .. وإذا بالبيغاه « تومى » يجلس على أرجوحته منكما ، لا يكاد يفتح سوى عين واحدة ، ولا يلفظ سوى كلمات نابيه ، في صوت واهن .

« واعتقد أن « براند » احتيل الموقف ، وقام بالمهمة بخير مسلك طبي ، فمقاس حرارة « تومى » من تحت جفاحه ، بيثما راح « تومى » يلمن مقياس الحرارة ، ثم كسره اخرا .. وقد منع « براند » تفذيته بمعجينة اللوز المنقوعة في النبيذ .. وهو الطعام الوحيد الذى كان تومى يتوق إليه في ذلك اليوم - ثم كتب له تذكرة العلاج ، وأصدر تعليمات مخلصه ، كما أكد للدوقه بأن لديه الكثير من مقاييس الحرارة غير الذى كسر .. ولما

تبين بأن ذلك لم يكن سبب ههنا . فقد أكتسها بأن قليلا من الزئبق قد تعمد المريض ، وهو - في هذه الحالات - يقدم في فدرح أحيانا . ثم أشار بجمع شظايا الزجاج المحطمة - بكل عنائه - من تحت سبتم « تومى » ووضعها جنباً إلى جنب للتأكد من عدم إعمال شيء منها . وتناول مبهته غير ان الدوقه أعريت عن رغبتها في جمع حطام مقياس الحرارة قبل رحيل « براند » ، حتى لا تضطر إلى استدعائه مره أخرى . ولذا افتخر « براند » « بيها زحف رئيس الختم على يديه وركبقيه » ووقفت الدوقه فوق رأسه تشير إلى كل قطعة من الزجاج بعضها السوداء .. وأعجب هذا النظر البيغاه المريض ، فارسى مخلبه الذى كان يرغمه ، وفتح عينيه معا ، وانحنى برسلا وأبلا من التعبيرات اللاذعه عن ماضى وحاضر ومستقبل الخادم المسكين ! فكانت الدوقه تبكى فرحا ، وأطرت البراهمة التى أبداها الطائر العزيز .. ثم سمحت للدكتور دريك بالانصراف ، كما وعدته بأن تتصل به تليفونيا قبل المساء ، لترفع له تقريراً عن صحة البيغاه . وانحنى على يدها وانصرف ..

« وعندما قدمت الأنسة شامبيون بعد ذلك بقليل ، وعلمت بما حدث - وهى كما قد تعلمين ابنة أخ الدوقه ، وتقسيم في دارها عندما تاتى إلى المدينة - غضبت أشد الغضب . فقد كانت والسير دريك صديقين حميمين من عهد الصبا ، وتمتد أن قليلا من الناس قد بلغوا من المكانة أو القيمة ما يؤهلهم لأن يكونوا من مرضاه .. وكانت في ذلك الحين شديدة الاهتمام

بما يكتب وما يلقي من محاضرات . وبلغ بها الأمر أنها كانت تحقق إذا استدعاه أحد أفراد الأسرة المالكة لعيادته في قصره . فما أن علمت بحلية الأمر ، حتى خلعت قفازيها ، ولطمت بهما « تومي » بشدة . وكانت الدوقة قد استقلت مركبتها وسارعت بنفسها إلى الصيدلية بذكورة السير دريك . ومن ثم فقد تلقت « تومي » اللطبات بينما وقف كبير الخدم والساعي يشهدان ذلك في سرور مكتوم ، مما دفع الببغاء إلى حالة عصبية ، فآخذ برقص ويتأرجح على مجتمه صارخا ببعض النعوت في وجه الأنسة شامبيون ، حتى أنماق من تأثير عجيبة اللوز المزوجة بالنبيذ !.. ولقد قصت الأنسة شامبيون على هذا الحادث ، وأضافت أنها اضطرت إلى أن تذهب بنفسها إلى الدكتور « براند » معذرة عما حدث ، وأنه كان رقيقا في تلقى اعتذارها ، وقد أخبرها بأنه سيبحث إلى الدوقة مطالبا بعشرين جنيهًا تعامًا ، علم أن يبحث بالملمة - بمجرد استلامه - إلى حديقة الحوان .

« وبينما كانت الأنسة «شامبيون» معه في مكتبه . ولم تهدأ بعد من سورة غضبها ، إذا بجرس التليفون يرن » وإذا بالدوقة المزيرة تتكلم في صوت يحكي شقشقة المصافير . مقدمة للدكتور دريك تقريرًا مسهبًا . فحاولت الأنسة شامبيون أن تمسك بوق التليفون ، لتسمع الدوقة كيلا من التقرير القاسي ، غير أن الدكتور حال بينها وبين ذلك ، وصد يدها بشدة . ثم ختم حديثه مع الدوقة بكلمات رقيقة .. وبعد ذلك كتبت له الدوقة تسالهما يطلب من تعام ، فأجابها السير دريك بخطاب

لطيف . ذكرا ان طرائفه علاج طائر بديع ونكى - كذلك الببغاء - كانت تفوق كل ما يبله من جهد ووقت . ثم وقع الرسالة كالآتي : « طيبب شرف ، في الحالات العادية للسير توماس » .. يعنى الببغاء . وما كان أشد سرور الدوقة بهذا الخطاب . حتى لقد اطلعت عليه كل أصدقائها ، ولم تترك سبيلًا لما كان يتنبأهم من ضحك عنيف .. وتكرمت بعد ذلك بدعوة أسرة براند إلى حفلة من حفلاتها الرائعة حقًا ! » .

وكانت الممرضة « روزمارى » تضحك بإفراط يكاد يكون هستيريا . فأردف « جارت » قائلا : « قصة أخرى عن الببغاء ما دمت معجبة بقصصه .. أن من عاداته أن يصيح بكلمات نابية يوجهها إلى الدوقة ، التي كانت شديدة الإعجاب بذلك . وفي أحد الأيام ، كان جاثما فوق أرجوحته في البهو الأسفل لقصر « اوغردين » ، بجوار الباب الكبير المؤدى إلى الشرفة .. وهبطت الدوقة من الدور الأعلى ، وعلى رأسها قبعة الحديقة ، وقد حملت في ذراعها سلة ، في طريقها إلى قسم الزهور بحديقتهما .. وكان ثمة عدد منا جالسا في جنبات البهو ، فهب صديق يدعى رونى انجرام من مقعد عميق ، وألقى سيجارته بعيدا . وفتح الباب الدوقة .. وفي تلك الأثناء ، كانت هي قد عرجت على منضدة ، بالهنة عن المقص والقفازين التي كانت تستخدمها في اقتطاف الزهور . ومن ثم ظل رونى واقفا إلى جانب الباب ، مسكًا به .. في حين أخذ الببغاء يتراقص صاعداً هابطا فوق مجتمه في الجانب الآخر الباب . حتى إذا طال بحث الدوقة في الأدراج ، مال الببغاء برأسه على

ناحية ، وهتف في لهجة وقحة : « هيا اسرعى اينها الفناء
المجوز ! » .. وكان رونى - الذى جبل على اخلاق سايبة
وعلى مراعاة آداب السلوك - ما يزال ممسكا بالباب »
فلتفت إلى الببغاء ، فى استنكار ، وقال له : « تومى .. يجب
ان تقول : فخامتك » .. فما كان من الببغاء إلا ان وضع مخليه
فوق منقاره ، واجابه مغمغما فى خشونة : « أقول ليا هذا فى
مقابل ما سنحصل عليه منها ؟ » .. وبوسعك ان تنصورى
كيف رحنا نقتفه .. ولا بد انه تعلم هذه الجيلة فى « غير »
ولكن وقعها كان مضحكا للغاية .

« وقد اعتدنا - بعد هذه الفكاهة - ان نطلب إلى الدوقة
ان تتركنا - عند خروجها إلى الحديقة وهى ترتدى قبعة
الحديقة - ونحن ننتبها ، حتى يشذ تومى قريحته ويطلق
صيحاته الوقحة مستحثا إياها ، فيتماعى الأصوات تعاليه
بأن يقول « فخامتك » ، فلم يكن تومى يخيب رجاءهم مرة .
وأؤكد اننى رأيت الببغاء يغمز بعينه وهو يسترق النظر من
بين مخالبه : » .

وسكت « جارش » لحظة ، ثم استعرد قائلا : « وفى أحد
الأيام كان معنا شخص أصر على أن « تومى » كان يفعل كل
ذلك آتيا ، دون إدراك .. وأنه سيردد الكلمات عينها ردا على
آية عبارة أو ملاحظة تبدي له . وكان من أولئك الذين يحلو
لهم دائما إفساد طرافة آية واقعة بايجاد تفسير لها ، أو
بالتشكك فى صحتها ، أو بالمجادلة فيها . فعرض عليه كثيرون

الرهان ، فتحداهم جميعا ليثبت صحة رايه .. وقد اشتدت
حماسة الدوقة لذلك ، فوضعت على رأسها قبعة الحديقة ،
واجتمعنا جميعا فى البهو الأسفل . وكان « تومى » فوق أرجوحته
رصينا ، وفى أبهى حمرة . وبين صمت الجميع ، هبطت
الدوقة السلم - وعليها قبعة الحديقة - ثم تقدم ذلك الرجل
المتشكك وفتح الباب ، ووقف مقربا مرور الدوقة ، بينما كانت
الدوقة تهتز لهفة ، وقد انتحت جانبا متظاهرة بالبحث عن
المقص .

« ولم يحدث شيء لفترة طويلة ، كان الببغاء - خلالها -
يترنح فوق أرجوحته ، وهو يقبضة لنفسه تهكما ، ثم صمت
وسكن فى مكانه ، وثبت عينيه على الدوقة - وهى تنقب فى
أدراج المنضدة وظهرها نحوه - وصاح بها بلهجته المعتادة :
« هيا أيتها الفتاة العجوز ! » .. فصاح الرجل المتشكك قائلا :
« تومى .. يجب ان تقول أينها الدوقة العزيزة » . وفى غمرة
السكون الذى ساد القوم ، رفع تومى مخليه . وقبل ان يصل
إلى منقاره رده ثانية ، ثم مال إلى الأمام نحو الرجل ، وصاح
به : « لتفجر غيظا ! » .. ثم انطلق فى قهقهة قاصفة .. وعلا
مما الضحك والتصفيق .. حتى لقد خشيت أن تصاب الدوقة
باختناق لتعسر أنفاسها ، لفرط الضحك . وانسحب الرجل
إلى مقعد كبير بعيد « وجلس صامتا ، ولكن .. آية قصص
رحنا ننسجها للتندر على مائدة المشاء ! .. لكم أحب الحديث
عن تلك الأوقات البهيجة ! .. لكم تبدو وكان الزمن تقادم
عليها ، وإن برزخا يتصل بينى وبينها ! » .

وأطرق « جارث » برهة ، ثم قال : « وددت لو أنك عرفت (أوفردين) . أن الدوقة تقيم « حفلات ممتازة » لا مثيل لها ، يلقي فيها كل الأصدقاء القواقين لأن يكونوا معا » فينعمون بفائز الطعام ، ويطيّب المقام ، ويفعلون كل ما يحلو لهم ، بينما تكون الدوقة في ذهاب وإياب ، تتفقد حيواناتها وطيورها العجيبة المنوعة ، وهى تغدق سبلا من الرقة والكرام أينما ذهبت . ولقد كانت - فى آخر مرة كنت هناك - تطلق فى قاعة الاستقبال بعد العشاء - فى كل ليلة - ستة برايمع ا جرابيع .. وهى حيوانات مصرية لطيفة ، مضحكة ، تشبه « الكانجارو » ولكنها صغيرة الحجم . فكانت هذه الحيوانات تقفز فى كل مكان على ساقيها الخلفيتين ، فتخيف بعض السيدات إلى حد الجنون ، إذ تخبىء تحت ملابسهن ، مما يؤدى إلى سقوط بعض الخدم باقتداح القهوة .. وكان آخر ما جلبته من أمريكا الجنوبية ، طائر من نوع « إلتوكان » . وهو طائر له منقار كقرن الموز ، وصوت كصوت نعجة عجوز حائرة . ولكن « تومى » - البقاء القرمزى - ظل صاحب الخطوة الأولى . وجدير بى أن أقول انه ذكى جدا ويعرف أكثر مما يخطر ببالك !

« وفى (أوفردين) اعتدنا أن نلعب بالزبيب لعبة مضحكة أثناء تناول الحلوى .. كان على كل شخص أن يضع خمس حبات من الزبيب حول طبقه » على مسافات متفاوتة ، ثم كنا نفمض عيوننا ، ونسابق فى تصيد الحبات بالشوكة ، فمن تمكن من تصيد والتهام الحبات الخمس - قبل سواه - كان هو الفائز . ولم تكن الدوقة تشاركنا هذه اللعبة ، بل كانت تسر بان تراس التحكيم ، لتصيح فى كل من أراد الفش بان

بحاول فتح عينيه .. وكنت والآنسة شاهييون - وهى كما تعلمين ابنة أخ الدوقة - نلعب بأمانة . وكنا نفوز معا بالأسبقية فى كل المرات تقريبا ! »

فأجابته الممرضة روزمارى : « أجل ، اننى أعرف هذه اللعبة ، وقد مرت بذاكرتى حينما كنت أتناول الطعام معسوبة العينين » .. تهتف جارث : « آه ! لو اننى علمت ، لما سمحت لك بذلك » . فقالت الممرضة روزمارى : « كنت أدرك هذا ، ولذلك قمت بالتجربة فى عطلة الأسبوع » .

ومد « جارث » يده بقدر الشاى لعملاء ثانية ، ثم مال نحوها ببقائه « حتى يسر لها بقوله : « والآن ، استطيع أن أتجاسر فأنبئك بإحدى تجاربى الصغيرة . فقد اعتدت دائما ان أخشى وجود ذباب فى الأشياء . وكنت - منذ طفولتى - فى غزع من أن أبتلع ذبابة فى الطعام ، دون أن أفطن . فلما بلغت السادسة من عمري ، سمعت إحدى زائرات أمى تقول : « لا بد للإنسان من أن يبتلع ذبابة فى كل عام » . وأضافت أنها قد ابتلعت ذبابة ، وهى فى طريقها لزيارتنا . فملقت هذه الفكرة الفظيعة بذهنى الصغير - بعد ذلك - واعتدت أن أحص بالارتياح كلها وقع لى شيء من هذا ، حتى لا أذكر اننى سارعت بالتهام لقمة من الخبز - مرة - إذ رأيت مسلطين وجناحين عالقة بها » شاعرا بان الابتلاع أسهل من المضغ ، واننى بذلك سأعفى من هذا الواجب اثنى عشر شهرا . ولكننى اضطررت لأن أجرى بطول الشرفة وعرضها ، وقد شددت قبضتى ، حتى قدر لى أن أبتلعها ، وعندما اكتشفت زيف

فكرة الضيافة السنوية ، تولاني خوف مغالى فيه ، من أن أبتلع ذبابة عفوا . ولا اذكر اننى قبلت اكل شرائع الخبز المكسوة بالسردين - في المطاعم - دون أن أتمع النظر تحت السردين ، بحفا عن ذبابة ! يرغم اننى كنت اشعر - وانا ارفع السردين - باننى كالمجوز التى تنظر دائما تحت فراشها ، خشية أن يكون ثمة لص ، آه ، لكم عذبتنى هذه الفكرة الحقاء القافهة ، منذ إصابتي ! فليس يوسى أن اقول : « واثق انت يا سمسون من عدم وجود ذبابة في الحساء » .. ليحيبني سمسون : « كلا ياسيدى .. لا ذباب هناك يا سيدى » ، ثم يضع يده على فمه ويسمل « فلا أقوى بعد ذلك على سؤاله » .

فانحنت الممرضة روزمارى في جلستها ، ووضعت قدامى الشاى بحيث يستطيع تناولها بيده بسهولة ، بمجرد أن يتحسس حافة الطبق . وقالت له في لهجة من تفهمه : « تناول طعامك دائما ملى ، واعدك بأن لن تكون ثمة ذبابة في اى شىء . الا تطمئن إلى عينى ؟ » . فابتسم « جارت » في شكر وأغترباط . وقال : « بل اثق في عينيك الرحيمتين اليمينتين في كل شىء .. آه ، ان هذا يذكرنى باننى أريد أن أعهد اليها بمهمة لا يمكننى أن اتحن عليها احدا .. هل بدأ نور الفسق يا آنسة جراى . او ما تزال امانا ساعة من النهار ؟ » . غاطلت الممرضة « روزمارى » خلال النافذة « ثم استشارت ساعتها ، وقالت : « لقد بكرنا في تناول الشاى .. إذ أننا عذنا من فزهننا جائعين . ان الساعة لم تبلغ الخامسة بعد ، والاصيل ساطع النور ، والشمس تقرب في السابعة والنصف . »

وإذا ذاك قال جارت : « إذن فالتور كاف .. هل فرغت من قدحك ؟ ستكون الشمس ساطعة على النافذة الغربية في المرسوم . هل تعرفين مرسى في أعلى الدار ؟ .. لقد أحضرت الصور التخطيطية لليدى براند من هناك . واعتقد أنك لاحظت اكاداسا من لوحات الرسم في اركان القاعة ، بعضها بغير استعمال ، وبعضها يحتوى على خطوط أولية أو تصبيات ، وبعضها صور اكتبت .. هناك - يا آنسة جراى - صورتان - بين الصور الأخيرة - أتوق إلى العثور عليهما وإتلافهما .. لقد جعلت سمسون يقودنى يوما إلى هناك ، ومتركى وحيدا ، وحاولت العثور عليهما باللمس ، غير اننى لم استطع ان اتأكد ، وسرعان ما ارتبكت بين اللوحات ، ولم أشأ أن اطلب مساعدة سمسون لأن هاتين الصورتين .. أهنى ! ليسنا كغيرهما ، وإذا رآنى أمزقهما ، فقد يعجب ويتكلم ، وانا لا احب ان اوقف فضول الاستطلاع في الخدم . كذلك لم اجسر على الاستعانة بالسرد دريك ، لأنه كان خليقا بأن يعرف شخصية صاحب الصورتين « لأنه معروف لديه .. وعندما رست هاتين الصورتين ، لم أفكر لحظة في أن أسمح - بآية حال - لمخلوق سواى بأن يراها .. ومن ثم ، فانى أعيد إليك وحدك - يا كاتبة سرى العزيزة - بهذه المهمة .. فهل لك أن تقومى بها ، الآن ؟ ! » .

ودفعت الممرضة روزمارى مقعسيها إلى الورا قائلة : « بلا شك يا سيد دالين .. اننى هنا لالسى كل طلبه وأفعل »

كل ما ترغب فيه ، وأزديه عندما تشاء ! » . فأخذ جارت
مفتاحاً من جيب سترته . ووضعته على المنضدة وهو يقول :
« ها هو ذا مفتاح باب الرسم » واعتقد أن الصورتين
— اللتين أقصدهما — هما في أبعد ركن عن الباب « خلف ستار
بياني . . وهما في حجم كبير . . خيبة أقدام في ثلاثة ونصف
.. فإذا لقيت صعوبة في حملهما « فضعيهما وجهاً لوجهه .
واستدعى سمسون ، على ألا تتركيه منفرداً بهما ! » .

وأخذت الممرضة « روزماري » المفتاح ، ونهضت فأتجهت
إلى « البيانو » وفتحته ، وربطت الشريط الأصفر الذي يهتدى
به جارت من مقعده ، ثم قالت له : « هيا اجلس واعزف ، بينما
أكون في الطابق الأعلى ، أؤدي مهمتي . ولكنني أرجو أن تخبرني
بشيء واحد . . أنك تعرف مدى اهتمامي البالغ بأعمالك « فهل
تسمح لي — إذا عثرت على الصورتين — بأن ألقى عليها نظرة
عابرة ، تكفي للتعرف عليهما ؟ أو هل لي أن أتأملهما في ضوء
الرسم الجليل ؟ . . ولك أن تطمئن إلى أنني سأنفذ ما نوافق
عليه ! » . فلم تقو شخصية الفنان على مقاومة الرغبة في أن
تتأمل العيون أعماله وتقديرها . ومن ثم قال : « لك أن تريهما
إذا أردت . . أنهما بلا مراء أبعد صورتين رسمتهما في حياتي .
مع أنني قد رسمتهما من الذاكرة فحسب أي . . أقصد أن هذه
كانت « فلتة » مني . على أنهما ليستا من وحي الخيال إطلاقاً ،
فقد رسمت فيهما ما رأيته بعيني تماماً . . لا سيما فيما يتعلق
بوجه وتكوين المرأة . وهذان كل ما في الصورتين . . أما ما عدا
ذلك فملاحظات ! » .

ونفض قسار حتى بلغ مقعد « البيانو » ، وبدأت أصابعه
تعزف — في رفق — أنغام « تعالى أيتها الروح الخالقة » . .
واتجهت الممرضة « روزماري » إلى الباب ، ثم توقفت لتسال :
« وكيف أستدل على الصورتين » . « فانخفضت النغمات ،
وارتفع صوت جارت من خلف البيانو جلياً واضحاً ، وهو
يقابل مع نغمات الأثشودة ، وكأنه يتحدث على الألحان : « امرأة
ورجل وحيدان في حديقة . . ولكن ما يحيط بهما لا يكاد يبين
إلا خفيفاً . . وهي ترتدي ثوباً للسهرة رقيقاً ، اسود ، جراراً .
وبه « دانتيل » فوق الصدر . . واسم اللوحة : « الزوجة ! »
.. أما الصورة الثانية ، فلنفس المرأة ، وذات المفطر ، ولكن
بدون الرجل . . إذ لم تكن ثمة حاجة لتصوير الرجل ، فهو
— في هذه الصورة — موجود « سواء أكان ظاهراً أو غير ظاهر
.. لقد توقفت نغمات البيانو الخافتة تماماً ، فشمم الصمت
كل الحجرة . ثم اتم قوله : « وهي تحمل على ذراعها طفلاً
صغيراً ، واسم اللوحة : الأم ! » .

وهنا علا صوت التشيد ، في دوى غير منقطع ، وهو يبتهل :
« أبعد عنا أعدائنا ، وهب السلام لبلادنا » ، وكانت الممرضة
« روزماري » قد بارحت الحجرة ، وأغلقت الباب خلفها !

الفصل الثامن والعشرون

سعدت جين إلى الرسم ، ففتحت الباب ، ودخلت . ثم أغلقته خلفها . . وكانت أشعة شمس الغروب تنساب خلال نافذة غربية ، مضيئة مزيدا من البهاء على الستائر الحريريّة والتحف المعلقة على الحائط : من قطعة يابانية بنفسجية اللون مطرزة ، وسجادة من اشغال الصين تمثل قتيّنا ذهبيا على رقعة حمرء ، وقد ألف ذيله الطويل حوله ، وبرزت مخالبه المسنونة من اجزاء من جسمه لا يتوقع أن تكون فيها مخالب . وكانت « جين » قد دخلت الرسم — من قبل — مرات متعددة، ولكنها كانت في كل مرة تسرع بالنقاط الأشياء التي سألها « جارث » أن تحضرها فلم تكن ثمة فسحة من الوقت وحرية للتأمل والبحث . . وكانت « مارجرى » تحلّ مغفاحا ثانيا للرسم ، إذ كانت تدخله يوميا لفتح التوائيد وتزيل الأتربة عن التحف الثمينة — بكل حرص ، وعناية — ثم تضع كل قطعة منها في مكانها ، الذي كان صاحبها يحب أن تكون فيه ، عندما كانت عيناه الحادتان تريان كل شيء . . وكانت « مارجرى » تحتفظ بذلك المفتاح في حلقة مفاتيحها ، فلم تكن « جين » ميسالة لأن تسألها إياه ، حتى لا تتعرض لرفض يؤلمها . .

أما الآن ، فكان في وسعها أن تقضي ما شاعت من الوقت ، فجلست في مقعد من تلك المقاعد الطويلة ، المنخفضة ذات المجلس العميق ، وقد زود بوسائد مريحة . . وكان مناسبا

لحبيبها ، وقد زود بمساند لذراعيها وركبتيها ورأسها ، حتى خيل إليها أنها لن ترضى في المستقبل عن مقعد « بعد أن استمتعت بكمال هذا المقعد . آه لو كانت لحبيبها كما كان هذا المقعد بالنسبة لها ! . . آه لو استطاعت أن تقي بكل حاجاته عن آخرها ، حتى يكون حضورها يبعث قوة وراحة وعزاء له دائما !

« جانت ببصرها في القاعة ، وراحت فيها طابع « جارث » . . كل دقة وكل عناية وكل كمال في كل شيء ! . . كان كل لون يلائم الآخر ، ويتلاءم معه ! . . وقامت توزيع الضوء — سواء من السقف أو النوافذ — وترتيب المقاعد ومناضد الرسم من كل نوع وكل حجم . والنظافة المتجلية في الأماكن الخالية ، العارية من الأثاث ، وظلوا المكان من الغبار . . وكلها أمور كان يتطلبها العمل ، كما تأملت أسباب الراحة المترفة حول المدفأة وفي كل زاوية ومنحنى وركن . . كان كل شيء كاملا ! . . وورق الجدران البني ، ذو اللون المتسق الذي لا يتخلله ظل من حبرة أو صفرة . . كان بنيا بلون البندق الصافي . . وعلى حامل بقرب النافذة القصية « كانت ثمة لوحة لم يتم إنجازها ، ويجوارها رقعة الألوان والفراجين ، تمايا كما تركها « جارث » صباح خروجه ، في ذلك اليوم المشنوم ، منذ ثلاثة أشهر . . يوم تسلق سياجا ، وتدلى فوقه لينقذ حيوانا صغيرا من آلام لا داعي لها ، غارنى في هذا التيه وهذا الأسى اللذين لا حد لهما !

ونهضت جين واخذت تتأمل كل تحفمه العجيبة التي كانت تملو رف المدفأة .. واستلفت انتباهها - وقتها بوجه خاص - تمثال نحاسي صغير لدب مكتنز جالس على عجزه في ثبات واسترخاء ، قابضا بمخالبه الامامين على قائم من النحاس ، قد مال برأسه إلى جانب ، وعيناه الصغيرتان الشبيهتان بالخرز تحديقان امامه .. وكانت في عنقه سلسلة الصلت بالقائم النحاسي ، كرمز للأسر وللشراسة المطبوعة . وادركت « جين » ان رأس الدب متحرك ، يمكن برفعه الوصول إلى فجوة تصلح لحفظ الثقاب ، وإن أيقنت « جين » أنها لن تجد بها ثقابا إذا نتحتها .. ولم يكن ثمة شك في ان هذا الدب الصغير من مخلفات أوائل العهد الفيكتوري ، فهو زميل طغولة « جارت » .

وتمثل لها « جارت » في عامه الأول ، يمد يديه الصغيرتين الكتزتين نحو النحاس اللامع .. ثم « جارت » الصغير : ابن الثالثة ، بشعره الأسود اللامع ، وعينيه الشديدتى البريق ، وهو يحملق بشغف في خرزتي عيني الدب الجامدين ، وينظر برهبة إلى السلسلة .. ثم « جارت » الفلام ، بقامته الطويلة الفحيلة ، وقد عاد من عطلة المدرسية ، ورأى الدب فوق رف المدفأة ، نهل له ، قائلا : « هالو يا برونو .. ما اطيب ان اراك ايها الصديق القديم . إني لأذكره يا أمي منذ مولدى ، وعندما شعرت بوحشة الغربة في دأمة السنة الدراسية ، أدركت مدى ما في رؤيته من متعة .. رؤيتك ورؤيته يا أماء ، فتصوري كيف أجمع بينكما .. ذلك لأنكما تمثلان .. البيت ! » .. ثم

تصورت « جارت » وهو في التاسعة عشرة من عمره ، وقد أصبح قارع الطول نحيلًا - رصينا في حزنه - إذ ألمى الدار خاوية ، موحشة ، بعد أن وورى الجسد الرقيق الغالى - جسد أمه - منواه الأخير .. ووقف واجفا « جامد العينين » بجانب رف المدفأة - في البهو الفسيح الساكن - حتى إذا مالح التمثال النحاسي الصامت ، في جلسته المألوفة مستسلما : مغلولا إلى القضيبي النحاسي . قال له : « آواه يا برونو ! .. آواه يا أماء ! » ثم ارتقى على مقعدهما الخالى ، حيث لقي راحة النفس الرحيمة التي كثيرا ما يضمن بها الزمن على الرجال في أحزانهم !

كل هذه التاملات أوحى بها الدب إلى « جين » ، وهى واقفة بجوار الرف ، والدب بين يديهما .. وحركت رأس الدب فاذا بالفجوة - التى كانت خلفه - خاوية . فاعادت الرأس إلى مكانه بكل حذر ، ووضعت الدب في مكانه فوق الرف .. وعادت إلى صوابها إذ أدركت أنها تعتمد الطكؤ في تنفيذ أمر مفروض عليها ! .. وكان دريك قد أخبرها عن اللوحتين اللتين رسمهما « جارت » للمرأة الوحيدة .. وهما « جارت » قد انبأها عنهما أكثر مما فعل دريك . ولقد حان الوقت « لسكى » تراهما بنفسها ، فلا جدوى من الارجاء . لذلك نظرت نحو الستار الصفراء « ثم سارت إلى النافذة الغربية ففتحتها على مصراعها ، وإذا ماشعة الشمس تنحدر تدريجا نحو التلال الأرجوانية ، وقد أخذت زرقاء السماء نبتت ، بينما غامت فيها سحابة وردية .. ثم رفعت « جين » بصرها إلى السماء .

ودست يديها في جيبي ثوبها » وقالت بصوت مرتفع : « اننى اشهد الله .. وإذا قدر لى أن أعجز عن الانضياء بهذا القول ، او تذكره ، فما انذا أفعل الآن .. اتشهد الله على اننى كنت على صواب ، وقد راعيت سعادة « جارث » في مستقبله « كما راعيت سعادتي . ومضيت في قرارى لخبرنا معا ، مضحية بالهناء الحاضرة .. ولكنى .. وأشهد الله على قولى .. كنت على يقين ثابت بصواب ما قررت .. وما ازال اعتقد ذلك ! » .

ولم تنخلق بهذه الكلمات بعد ذلك قط !

الفصل التاسع والعشرون

وجدت جين خلف الستار الصفراء كومة مكدسة من اللوحات في غير ترتيب ، مما لم عما فعلته بها اليد العمياء ، وهى تتحسس باحثة في غير جدوى ، ثم عن المحاولات العقيبة لإعادة اللوحات وتنظيمها .. واقبلت جين للتعطى لوحه بعد اخرى - في حرص بالغ - فتشميها . بحيث يكون وجهها نحو الحائط .. كانت لمسات وصور رائعة « بعضها تم رسمه ، وبعضها لم يتم . ووجدت بينها وجهها أو وجهين تعرفت عليهما ، وتأملت جمالها المرسوم . غير انها لم تعثر على اللوحتين .. فابت من جلستها ونظرت حولها ، حتى لمحت في ركن آخر - على بعد منها - كومة أخرى من اللوحات مغطاة بسقار مصرية ، فالتجته إليها . وسرعان ما عثرت على الصورتين المشودتين ، وكانتا اكبر حجما من اللوحات الأخرى . وقد نئى لها التحقق منهما بمجرد أن لمحت ثوب السهرة الاسود الذى كان يتوسط كلا منهما ! .. لذلك حملتهما إلى النافذة الغربية - دون أن تمنحهما اكثر من نظرة عابرة - ووضعهما بحيث يسقط عليهما اكبر قسط من النور ، وادنت منهما المقعد الذى كانت تجلس فيه ، وامسكت في يدها اليسرى بالذب النحاسى كتمية تعينها على ما كانت مقدمة عليه . ثم وضعت اللوحة الثانية على المنضدة ، مقلوبة على وجهها ، وجلست تتأمل مليا الصورة الأولى .

كان أول طابع تنقله العين منها إلى المخ ، هو وجه كريم المحتد ، رسم يبد لا تقل عنه كرما .. نبل ينبل ! أجل - كان النبل يتجلى أولا ، في وضع مهيب ، وجبين مرفوع في اعتزاز عارم .. حتى إذا أمنت النظر في الجسم الممتلئ - المنسق في أبدع تناسب ، وإن كان كبيرا ، مفرط النمو .. وحتى إذا تأملت طول الأطراف ، وثبات القدمين على الأرض - وفوه اليدين الكبيرتين ، تجلى لك الطابع الثاني الذي تحدثه الصورة في نفسك .. قوة في العمل .. قوة موجودة .. قوة مستمرة ! فإذا نظرت إلى الوجه - بعد ذلك - صادفت مفاجأة كبرى .. كانت الفكرة الثالثة - التي توحى بها الصورة - هي « الحب » .. حب من أسمى درجة ، واقدس نوع ، وارق وأرقى مثال ! .. وهي إلى ذلك ، تبين أوفر حنان أودع نفسا بشرية ! .. كل هذا تجده في الوجه !

كان الوجه كبيرا في تناسب تام مع الجسم « لا مخايل فيه تطابق الجمال العادى .. كانت القسمات حسنة ، ليس فيها أى اثر للدمامة ، ومع ذلك فقد كانت كل قسمة منها تفتقد الجمال .. وكان للطابع العام لها هو : وجه عادى ، ومنظر حسن ، في غير زينة ، ولا تستر ولا استحياء . ولكن الوجه كان يزداد اجتذابا لك ، كلما أمنت النظر فيه .. وكلما أغفلت تجرده ، ازدادت إعجابا بما اتسم به من نزاهة ، وطهر ، وقرة عزم غائقة ، وبساطة كريمة معترزة .. فاذا استوعبت كل هذه التفصيلات الخارجية ، وثابتت لتتأمل الوجه من بعد ، إذا بالمعجزة تحدث ، إذ يتسلل إلى الوجه « نور لم ينتشر

يومي على بحر أو على أرض » .. نور يتسع من العيين الرماديين الراضعين . وهما تطلان إلى خارج الصورة ، من غوى رأس الرجل الذي كان جاثيا أمامها ، وقد تجلى فيها استسلام علوى من روح انثوية لعاطفة جياشه ، قد تكون متسلطة مسيطرة ، ولكنها تنفت في المرء القدره على ان تكون أصدق احتفاظا بشخصيتها كاملة ، ومنها في أى وقت : من نبل .. وكأنت فيها - فوق ذلك - دهشة مليئة بالفرح ، وعجب من سر سامخى لم يتجل لصاحبيتها بعد « وحضان دافق .. ثم كانت هناك رحمة تكاد تكون سماوية ، نفيض على ذلك الشعور الجارف العانى الذى آلتى بأرجل جانبى على ركبتيه ، ودفعه إلى ان ينشد في صدرها ملاذا .. وكان هناك حين إلى المواساة ، وإلى البذل ، وإلى الأرضاء .. كل هذه المشاعر امتزجت في نظرة كانت تقطر منها عذوبة ، حتى ان لناظر إليها لم يكن يتمالك دموعه !

وكانت المرأة جالسة على حاجز رخامى عريض ونظرها مصوبا أمامها ، وركبتها مشيتين قليلا إلى الأمام ، وقد تهدأت أهداب ثوبها الأسود فحالت الفراغ الواقع إلى يمينها .. وعلى مقربة منها - إلى يسارها - جثا رجل ذو قوام مشقوق ، في ثياب السهرة ، وقد احاط ذراعاها بخصرها ، واختفى رجليه بأكمله في ثيابا « الدانيليا » التي تزين صدرها ، ولم يبين من ذلك الوجه سوى جزء خلفى من رأسه الأسود ، ومع ذلك فان الشكل الاجمالى للرأس ، كان ينم عن وجد متأجج ، وقد ضفته المرأة إليها ، بحركة رائعة ، توحى باستسلام المرأة ، وإشفاق الأم الحنون ..

خلف رأسه تشدانه إليها ، دون أن يتبدل كلمة واحدة ، فان الوجه المختبئ كان يلا شك صليما « كما أن شفتي المرأة كانتا تبدوان - من فوق رأسه السوداء - مطبقتين في قوة عزيمة ، برغم ما حام عليهما من إشراق بسمه هناء لا سبيل إلى وصفها .. وظهر في يسار الصورة عود من الورد الأحمر متسلقا بعض القوائم المصنوعة من الخشب - لا تسنين العين منها سوى القليل ، وقد تدلت الورد قائية متوهجة في أعلى الركن الأيسر ، فكانت تمثل اللون البهى الوحيد في الصورة ! ولكن العين كانت لا تلبث - بعد أن تستوعب كل هذه الدقائق الصغرى - أن ترتد إلى ذلك الوجه الهادئ الحنون ، وقد تالق بالحب .. وإلى البدين القويتين وهما تلعلمان - لأول مرة - كيف تدفسان العاطفة الواقعية التى ينطوى عليها حنان المرأة ، فإذا بالعقل يهمس بالاسم الوحيد الذى يصح إطلاقه على الصورة : « الزوجة ! »

وتفرست « جين » في الصورة طويلا ، في صمت بالغ ، ولو أن دب « جارت » الذى أمسكت به يدها كان من مادة أخرى غير نحاس أوائل العهد الفيكتوري المتين ، لالتوى وتحطم تحت ضغط يديها المتقلبتين ! .. ذلك أنها ما ارتابت لحظة في أنها كانت تنظر إلى نفسها . ولكن ، آواه ، رحماك يا سماء ! ما أبعد البون بين هذه الصورة وبين ما تعكسه عليها مرآتها ! .. لقد جمد عقلها - مرة أو مرتين أثناء تحديقها في الصورة - وكذب عن التفكير ، فظل نظرها ساهما في الدقائق الصغرى . غير أنها كانت - في كل مرة - تعود إلى التأمل ، وقد جذبها تعبير

العينين الرماديتين ، إذ أعاد إلى ذهنها صورة حية ملموسة لكل المشاعر التى اجتاحت كيائها ، والتى مرت بها حينما ارتدى ذلك الرأس المحبوب على صدرها بفتة ، لأنذا بملعبته الأمين .. وهبت قائلة : « انها صائقة ! .. نعم أنها صائقة ، ولا أملك أن أنكرها .. انها تهزل ما أحسست به تهما ، ولا بد انها تطابق ما ظهرت به إذ ذاك ! »

ثم خرت فجأة جاثية على ركبتيها أمام الصورة ، وهى تهتف : « آواه يا الهى ! هل كنت هكذا ؟ » .. لقد رفع - بعد هذا المنظر - عينيهِ البراقطين بخدقا في وجهى تحت ضياء القمر ، فكانت هذه هى الصورة التى تجلت له ؟ .. وهل كنت أبدو في هذه الصورة ؟ .. وهل كان في وسع المرأة التى كانت بهذا الشكل « والتى ضمت رأسه ثانية إلى صدرها - كما هو واضح - أن ترفض في الصباح التالى أن تتزوجه ، ارتكانا إلى صغر سنه ، وإلى كبرها ؟ ! آواه يا جارت ، يا جارت .. آواه يا الهى ! مساعده على أن يفهم الحقيقة .. أعنه لكى يصفح عني ! »

وتحت قدميها - في الغرفة السفلى - طرق مسامعها صوت الخانم « ملجى » تغنى « وهى تهيك الملابس ، وقد سرى صوتها حتى نفذ من النافذة المفتوحة واضح النبرات والكلمات ، ولكنه الاسكتلندية الصافية ، حتى بلغ مسامع « جين » وهى جاثية - وكان عقلها -

جمود كامل - قد تثبت في لهفة بنشيد « ماجى » ولحنه ،
وهو يجرى كما يلى :

« ايها الحب الذى لا يريد فكاكى ..

« ها انذى اسلم نفسى المرهقة إليك ..

« ها انذى اعيد إليك الحياة التى انا مدينة بها ..

« لتفوس في أعماق محيطك ..

« عساها تزداد غنى واملاء ..

« ايها النور الذى يقنو اثرى ..

« انى اسلمك مشعل الخافق المرتعش ..

« ان قلبى يختزن شعاعه المعار ..

« عسى ان يزداد بريقا وصفاء ..

« ويجد نهاره في وهج شمسك ! »

ثم اسكت جين بالصورة الثانية ووضعتها فوق الاولى ..
كانت تبث المرأة نفسها ، وفي نفس محلبيها في الصورة
الاولى .. ولكن الرجل لم يظهر معها ، وإنما ظهر بين ذراعيها
طفل صغير ، توسد راسه الاسود صدرها الناهد .. ولم
تكن المرأة ترسل البصر من فوق الراس الصغير ، وإنما كانت
تحقق في وجهه .. وكان عود الورد الاحمر قد نبا وانتشر
على جانب الصورة « مكوئا قوسا مزدهرا فوق الام والطفل ،
وقد تبث في كيان المرأة جلال الحنان .. ولم يكن الوجه - في
إطاره وتقاطيعه - اقل خلوا من الجمال من ذى قبل « ولكنه



كان - فى هذه الصورة ايضا - يبدو جميلا ، بما ارتسم عليه من حب الامومة . ولقد علمت ان صورة « الزوجة » حققت أكثر مما كان يرتقب منها . أما فى هذه الصورة فقد تجلت « الزوجة » فى أبهى حقيقتها ، إذ أضافت « الزوجية » عجيوبة « الامومة » ! .. فإذا كل الفواض تجلى ، وإذا كل المسرات قد عرقت ، وإذا الابتسامة على شففتيها الهادئين تنى بالهناء !

وكان ثمة فرع من الورد القرمزى قد نما ، وازدهر فوقها ، وتساقط منه وأبل من أوراق الورد القرمزية فوق الام والطفل .. وتشبهت أصابع الطفل بالدنتلا المسبغة على صدر الام . وقد سقطت ورقة من الورد فوق المعصم الصغير ، فرغمت الام يدها لتزيجها عنه . حتى إذا وقعت عينها على عيني الطفل البراقطين السوداوين ، توقفت يدها عن الحركة . واغتر ثغرها عن ابتسامة !

وانخرطت « جين » فى بكاء قانط ، وهى تتأمل المورتين .. ان « مجرد غلام » قد سبر غورها ، وأدرك أعماقها ، وفهم عظمة ما تملك من إمكانيات الامومة ، أكثر بمراحل مما كانت هى تفهم نفسها . فلما رآها - فى وضعة واحدة « الزوجة » ، قفز عقله ليقبّلها فى صورة « الام » . وإذا ذاك وجدت نفسها مضطرة لأن تردد : « إنها الحقيقة » ! .. أجل . هذه هى الحقيقة .. »

ثم عادت بذاكرتها إلى ما سبق لها ترديده من قوله : « لم

يكن بالوجه الذى يود المرء ان يراه دائئا على المائدة . . فهل وجهها هو الوجه الذى تطلو رؤيته ؟ وجهها . . هذا الوجه الذى رسمه جارث بعد عام من زواج افترض قباهه ! .. هل يسام هذا الوجه ، او يرغب فى أن يحول عينيه عنه !

والقت « جين » نظرة أخيرة على الصورة ، ثم أعادت الذب إلى مكانه ، ودفنت وجهها فى يديها وقد كسبت وجهها حمرة داكنة امتدت حتى مقبت شعر رأسها وخضبت أطراف أصابعها .. وإذا بها تسمع الخادم سادرة فى أغنيتها ... فى الفرقة السفلى - بصوتها الفتى الرخيم :

« أبها الفرح الذى تفقدنى خلال الآلام ..

« لست أملك ان أغلق قلبي عنك ..

« وما أئذى اتبع قوس قزح بين الأمطار ..

« شاعرة بأن الوعد ليس عابثا ..

« وان الصباح اليوم سيكون بلا دموع » .

وبعد قليل همت جين : « أواه يا حبيبى ، أصفح عني ! .. لقد أخطأت خطأ بليغا ، لسوف اعترف ، وليساعدننى الله على ان اشرح كل شيء ، وإذا ذاك .. أواه ، ستصفح عني يا حبيبى ! .. وعادت ترفع رأسها وتتأمل الصورة ، وإذا بها ترى بضغ ورققات من وردة قرمزية ، متناثرة على الأرض ، غفكرتها بوريقات الوردة الحمراء التى سقطت من صدرها ، وتناثرت على أرض الشرفة فى (شينستون) .. ربحا للآمال

الباسمة ، ولبهجة الحب التي مرغها قرارها - في تلك الليلة -
في تراب خيبة الرجاء - على أن فروعا زاهرة بالورود القرمزية
النامية ، كللت تتوج هذه الصورة - ومن خلال النافذة
المفتوحة « انصمت إلى الجزء الأخير من أغنية الخاتم :

« ايها الصليب الذى ترفع رأسى إلى العلا ..
« لست اجرؤ على الهرب منك ..

« اننى استلقى ميتة في تراب بهجة الحياة ..
« ومن الأرض نبقت الورود الحمراء ..
« انها الحياة التى لا نهاية لها !

ودهب جين إلى النافذة الغربية ، ووقفت وذراعاها
مرفوعتان فوق رأسها ، ناظرة إلى أشعة الشمس المائلة
للغروب ، وقد أحالت السماء إلى صفحة ذهبية وقرمزية ،
وامتد لهبها الأحمر على طول الأفق ، وهو يتدرج في الشحوب
إلى لون وردي باهت ، تظلمته غيوم حمراء .. بينما انبسطت
- فوق رأسها - صفحة زرقاء داكنة ، لا تدرك لها غور
ولا يحدها آخر ..

وارسلت « جين » بصرها إلى القلاع الذهبية ، فوق الريف
الحمراء . ثم رددت بعض عبارات من « الفؤارة » بصوت
متوسط الارتفاع : « وكانت المدينة من الذهب الخالص ..
ولم تكن في حاجة إلى الشمس ، ولا إلى القمر ، لينيرها ..

لأن مجد الله قد اضاءها - وهناك لن يكون موت ، ولا حزن ،
ولا بكاء .. ولن يكون هناك أى ألم ، لأن الأشياء السابقة قد
ولت » .

آه ، كم من أمور مرت بها منذ وقوفها في هذه النافذة
الغربية ، ولم تنقضى بعد ساعة ! .. كان الحياة بأسرها قد
اعتدلت إلى الوضع الصحيح « وتبدل مظهرها القريب ، كما
تغير مظهرها البعيد .. حقا لقد تجاوز « جارت » نطاق عيائها !

ثم رفعت جين عينيها إلى السماء الزرقاء ، وانفترت
شفتيها عن بسمة كلها توقع وارتقاب صابتان ، وغبضت
قائلة : « تلك الحياة التى ستظل .. دون ما نهاية » . ثم
التفتت حولها .. ورأت الدب النحاسى ، فأعادته إلى مكانه على
رف المدفأة ، وأعادت المقعد إلى مكانه « وأغلقت النافذة
الغربية ، وتناولت اللوحيتين ، ثم بارحت المرمم واخذت طريقها
هابطة السلم إلى الدور الأسفل في حذر .

الفصل الثلاثون

— لقد استغرقت المهمة منك وقتا طويلا يا أنسة جردى .
فقد كدت أرسل إليك سمسون ليرى ما حدث ؟

— يسرنى أنك لم تفعل ذلك يا سيد دالمين ، فإن سمسون
كان خليقا بأن يثمر على بالكية على أرض المرسوم .. وفى
استعانتى به — فى مثل هذه الظروف — مذلة أشد من مؤالاه
عن الذبابة فى الحساء !

فاجفل « جارت » ودار مسرعا فى مقدمه ، فان اذن الفنان
فيه التقطت اللهجة التى نمت عن فهم لعمله . وقال : « تبكين !
.. ولماذا ؟ » . فأجابته الممرضة روزمارى : « لائننى كنت
تحت سحر الصورتين ، فقد ناقنا كل وصف . انهما تحركان
اعبق أغوار النفس ، ومع ذلك فانهما تثيران الشجون ..
آه ، إلى أقصى حد ، لأنك قد جعلت من امرأة بسيطة الملامح .
امراة جميلة ! »

فنهض جارت على قدميه . وانجه إليها بوجه كانت عيناها
خليقتين بأن تطلقا شررا ، لولا انهما كانتا فاقدتى الابصار .
وهتف : « من .. ماذا ؟ » . فأجابته الممرضة روزمارى فى
هدوء : « امراة بسيطة الملامح ، فلا بد أنك كنت تدرك أن
النموذج الذى نقلت عنه كان امرأة خالية من الجمال . وهنا
سر الإعجاز فى الصورتين .. لقد جعلتها إلى أبعد حد فى
الزوجية ، ثم مجدها فى الامومة » حتى أن المرء يعمى فى نسيان

خلوها من الجمال ، كلما أطال النظر إليها ، لأنه يراها كمحبة
محبوبة ، ومن ثم فهي جميلة .. انه نصر كبير للفن ! » .

فجلس جارت وقد شبك يديه امامه ، ثم قال : « أنها نصر
للحقيقة .. فإنما رسمت ما رايت بعينى » . فأجابته الممرضة
روزمارى : « لقد رسمت روحها » فأضاعت وجهها البسيط !
.. فقال لها جارت بصوت يكاد يكون همسا : « لقد رايت
روحها .. وكانت تلك الرؤيا من الاشراف بدرجة أنها أضاعت
حياتى المظلمة . وان الذكرى لتضى ظلامى حتى الآن ! » .
وران على المكتبة صمت رقيق . واشتد الفسق إعتاما .
ونكلمت الممرضة روزمارى بصوت خافت : « لى رجاء يا سيد
دالمين .. اننى أرجوك الا تذل هاتين اللوحتين ! » ..
فرفع جارت رأسه قائلا : « بل يجب أن اتلفهما يا بنتى ..
لست أمك أن اتركهما ليراهما من قد يعرف ج .. السيدة
التي رسمتها ! » .

— مهما تكن الأحوال ، فهناك شخص واحد ، له الحق فى
أن يراها قبل أن تتلفها !

وسألها جارت : « ومن هو ؟ » . فأجابته الممرضة روزمارى
فى شجاعة : « السيدة المرسومة » . وإذا ذاك سألها : « وكيف
تعلمين انها لم ترها ؟ » . فمسألته : « هل رأتها ؟ » . وجاء
جوابه فى اقتضاب : « كلا .. ولن تراهما ! » . ولكننا قالت :
« بل يجب أن تراهما ! » .

واستم «جارت» من لهجتها الأصرار، فسألها : « ولماذا ؟ » .
ثم انصت باهتمام لردّها ، وهى تقول : « لأن أية امرأة تعرف
أنها عادية الوجه ، لا تقدر شيئا مثل تقديرها لأن ترى نفسها
وقد أضفى عليها الجمال بهذا الشكل ! » .

وجلس « جرت » لكنها لبرهة طويلة ، ثم قال : « امرأة
تعرف أنها عادية الوجه .. » . وكرر هذه الجملة فى دهشة
وفى صوته نبرة التساؤل . فاستأنفت الممرضة روزمارى
حديثها متشجعة : « أجل .. اغتظن لحظة .. بأن مرآة تلك
المرأة قد عكست لها — ولو مرة واحدة ، وبأية طريقة كانت —
ما سكبت عليها من جبال فى هاتين الصورتين ؟ .. اننا — معشر
النساء — عندما نقف أمام المرآة يا سيد دالمين ، نقابل فى علق
تبعاتنا ، أو أشرطة ثيابنا ، أو مفارق شعورنا ، نرى أنفسنا
دائما فى أسوأ صورة . أما تلك السيدة — فى أسوأ صورها —
فخليقة بأن تكون خالية من الجمال خلوا تاما ! » .

وجلس جارت فى صمت تام ، فواصلت الممرضة روزمارى
حديثها : « ثق من ذلك .. إنها لن ترى نفسها قط كـ «الزوجة»
أو « الأم » .. فهل هى زوجة ؟ .. فتبعل « جارت » نصف
ثانية ، ثم أجاب فى هدوء تام : « نعم » . فأسرعت يدا
« جين » إلى صدرها ، إذ أحسّت بأنها يجب أن تضغط
قلبها ، وإلا سمع « جارت » خفقانه ! .. وعندما قدر للممرضة
روزمارى أن تعود إلى الحديث ، كانت تشوب صوتها رجفة
خفيفة ، وهى تقول : « وهل هى أم » . فاجابها جارت :

« كلا .. لقد رسمت ما كان ينبغي أن يكون ! » . فتساءلت :
« إذا هى .. » ، واجاب جارت باقتضاب : « إذا هى كانت .. » .
وشعرت الممرضة « روزمارى » بأنه يويخها ، فقالت فى ذلة
تامه : « يا عزيزى السيد دالمين .. اتنى ادرك تملها يمدى
ما اظهر به أملك اليوم من تطفل » بما ألقبه عليك من
استفسارات واقتراحات .. غير أن لومك يجب أن ينصب على
الآثر الذى سيطرت به لوجحاتك الديدعان على عقلى .. اوها ،
إنهما جميلتان .. جميلتان ! » .. فهتف جارت : « آه ! » .
وقد عاوده سرور الفنان لدى سماعه المديح . ثم اردف :
« لا يا آنسة جراى .. لقد نسيت الصورتين بعض الشيء ..
نبل هما هنا ؟ حينا ارفيعهما فوق المنضدة ، وصفيهما الى
وصفا دقيقا .. دعبنى اسمع منك ما كان لهما من وقع عليك
كصورتين ! » .

ونهضت « جين » فسارت إلى النافذة وفتحتها على
مصراعها ، وبينما كانت تستشق الهواء النقي - هبت
بدعوات حارة ، حتى لا تخونها أعصابها وصوتها ورباطة
جاشها . فى هذه الساعة العرجة .. إن صورتى « جارت »
كانتا تدينانها — هى بالذات — فعليها الآن أن تقنع جارت بما
تصفيا به .. يجب أن يقتنع ويؤمن بالحلب الذى صوره !
وعادت الممرضة روزمارى إلى مجلسها . وبصوتها اترقيق
الساى ، الذى لم تؤثر فيه الإنفعالات العاطفية ، أخذت تسكب
فى أذنى الفنان الأعلى المرفعتين كل ما رآته جين فى الموسم
بدقة بالغة ، واجادت أداء المهمة ، فى غير رحمة لنفسها ولا لـ

وإذا بظلمها « جارث » نحو « جين » - الظلم القاسى ، المينوس من ربه - يستيقظ فى نفسه - واستيقظ معه إدراكه - الذى كاد يفقده عقله - بانها كانت له ، ومع ذلك غمى ليست له « وبأنه لو كان قد أصر على أن يلتقى ردها فى تلك الليلة لما كان الرد رفضا « فان التفكير الهادئ - فى الساعات التى تلت ذلك - لم يكن موجودا فى تلك اللحظات النشوانة . . ومع ذلك ، فهو قد فقدوها . . فقدوها ! لماذا ؟ أجل ، لماذا ؟ . . أكان هناك سبب آخر خلاف ذاك الذى تذعرت به ؟

واستمر صوت المرضة « روزمارى » فى هدوء ، غير مبالية بما يعانى من لوعة حارة . . وكانت قد أوشكت على إتياء حديثها ، حين قالت : « ويا لجمال عود الورد الأحمر المتسلق يا سيد دالين ! . . كم أنا معجبة بفكرة تصوير الورد براعم صغيرة لم تتفتح فى الصورة الأولى ، ثم متفتحة فى اكمل بهاء فى الصورة الثانية ! » . . فتجلد « جارث » قليلا وابتسم . . يجب الا يستسلم إلى هذه الفناء ! ومن ثم قال : « نعم . . اننى مفتنط بهذه الملاحظة التى تبديتها . . والان اسمعى لى . . اننا لن نلتفهما فوراً فلا داعى للعجلة ، ما دما قد وجدناهما . . واخشى ان اكون قد سببت لك إرهاقا كبيرا . . فهل لك ان تطلبى قطعا كبيرة من الورق البنى - ولقيهما فيها - واكتبى على الورق : « لا يجوز فتحه » ، ثم اسلمى اللقطة إلى مارجرى لتعيدها إلى الرسم . . حتى إذا ما أردت احضارها - فى أى وقت - فلن أجد صعوبة فى العثور عليهما » .

وأجابته المرضة روزمارى : « لكم أنا مسرورة بذلك ، فلعل السيدة البسيطة الملامح . . - ولكنه قاطعها قائلا فى حق : « لا أقبل أن يجرى ذكرها بهذه اللهجة . . غلست أدري رأيها

فى نفسها ، بل أشك فى أنها فكرت يوما فى نفسها . . ولست اعلم ماذا كنت ترين فيها لو أنك رأيته ، وكل ما يمكننى أن أقوله - فيما يتعلق بى أنا - هو أن وجهها هو الوحيد الذى ينير لى ظلمتى . . والذى أراه بوضوح فى كل لحظة . كل ما رسمته من حسن باصر . وكل جمال أعجبت به قد أخذ بتلاشى من ذهنى وكأنه قطرات الندى . . أنه يتطاير من ذهنى كأوراق الخريف . . أما وجهها هى « فهو الوحيد الذى يتربع فى قلبى . هادئا ، فى حالة قدسية » حنونا « جميلا . . إنه امامى دائما - . . وإنه ليؤلمنى ان يصفها امرؤ لم يرها إلا كما رسمتها يدي ، بانها بسيطة الملامح ! » .

فأجابته المرضة روزمارى فى خنوع : « سامعنى ! . . اننى لم أقصد ان أؤلمك يا سيدى . . ولكى أثبت لك ما حل بى إذ رايت هاتين الصورتين ، فسادلى إليك بعزم ، وطدت عليه نفسى وأنا فى الرسم . . ليس فى استداعى أن أفوت على نفسى ما يصفوته بأنه « أجمل مباهج الحياة » ، لمجرد افتقارى إلى الشجاعة للاعتراف بالخطأ « ولأن أخلع عنى كبريائى وأن أذرع بالصراحة والتواضع . . ساكتب اعترافا كاملا إلى صديقى الشاب ، عن نصيبى من سوء التفاهم الذى فرق بيننا . . اتراه سيفهم . . وهل تظنه سيصغح ! » . فابتسم جارث . وحاول أن يتصورها بوجه جميل مكشور ، يتوجه شعره شى ناعم متهدل ، فإذا بهذا الوجه لا ينسجم مع الصوت . . ولكن ، هكذا كانت المرضة « روزمارى جراى » كما يراها الآخرون ! . . وأجاب أخيرا : « إنه يكون حيوانا إذا لم يصغح يا بنتى ! » .

الفصل العاды والثلاثون

كان طعام العشاء - في ذلك المساء - هو أول وجبهه تناولها معا على مائدتها المستديرة الصغيرة ، فأسفر عن نجاح كبير « إذ أن الأساليب التي ابتكرتها الممرضة روزماري ، أفضت إلى نتائج باهرة ، واغتبط « جارت » سالتدابير التي قللت من شعوره بالعجز .. وكان الجهود الذي بذلاه بعد الظهر قد أحدث رد فعل من المرح . وادت بعض الأسئلة المتزنة ، إلى مزيد من القصص والنكاهات عن الدوقة وطيورها وحيواناتها « وورد اسم الأنسة شامبيون بكثرة أطربتهما معا !

كانت تجربة عجيبة لجين أن تسمح بأذنيها « جيارث » يصفها بكلماته التي تشبه رسمه ، فقد كانت خالية البال تماما من الشعور بذاتها « حتى تلك الأمية المنحوسة - في (شينستون) - ولم تكن لديها أية عكرة من أنها كانت تحدد في عيون الناس إذا كلمتهم ، وأن هذا كان سر ارتباك « ذوات المعقول الفجة ، اللائي كن يقرن امهن يرهيتها ، وأنها تغير اعصابهن « .. وانصت «جين» إلى « جارت » . وهو يسعى في تصويرها : « ذلك لأنها كانت تلم مباشرة بنفوسهن الخسلة المذبذبة المتقلبة ، المليئة بالغرور في الفسهن ، وبالاتكار العقيمة عنها .. فلا عجب إذا اصابهن الذعر ، وولين الأدبار ، وهي يتحدثن عنها بأنها « تلك الأنسة شامبيون الرهيبة » .. أما أنا ، فما شعرت يوما بأنها رهيبة ، بل انني كنت احمده الله

على أن ليس بي ما أخجل منه ، كلما سنحت لي الفرصة للتحدث إليها ، فإن تلكما العينين الصافيتين كانتا تسمان الأعماق في كل مرة ، كما يعبر أقرباؤنا الذين يمخرون البحار ! » .

كذلك لم يخطر لجين قط أنها كانت تتكلم وهي ممسكة بمحرك ثيران المدفأة في يدها ، إذا مكن .. وأنها كانت تنشق الوقود في المدفأة بينما تكون منصرفة إلى تنسيق الحجج في الجدال .. وأنها كانت تحرك النار بشدة وهي تهدم حجج مجادلها ، وكانت تحرك النار بمقدم قدمها ، دون أن تصاب أحذيتها الرشيقة بسوء ، وكانت تقف ممسكة بخنقها وهي تفكر في أية مشكلة .. كل هذه الخلال الصغيرة شرحها جارت بلسمات حبة « وارتكرت عليها ذاكرته في إصرار أدهش « جين » . وكشف عن حقيقته في علاقته معها - منذ ثلاث سنوات - في نسوء جديد ! .. لقد باح لها بحبه فجأة ، على أن تتخذ فيه قرارا عاجلا ، فيما القبول وإما النبذ ، لذلك فقد لاح لها - عندما قررت استبعاده - وكأنه لم يعيش وقتا كافيا لأن يصبح جزءا من حياتها .. فقد استعرضت الأمر ، وتثبتت من كل ما كان يعنيه ، ثم أبعده عنها .. أما الآن ، فقد فهمت تماما كيف كان الأمر - بالنسبة لجارت - نقيض ذلك . إذ أنه تحقق نهاما - أثناء الأسبوع الذي سبق إعلان حبه لها - معنى موتتها المطردة النمو . وأخذ يعن في مزجها بحياته ، كلما ترداد بقينا .. فقد صورها له خياله الخصصا حبة له منذ البداية .. فأجبتها وأرادها له ، في حين أن جارت لم تجاوب

— قبل ذلك — مجرد المعرفة ، والصدائة ، والزمالة الروحية .

لذلك غابها تأثرت كل التأثر ، إذ وجدت نفسها تعلى عرشا فديسيا في قلبه وذاكرته ، ولاح لها أن هذا يبشر — في نقمة عذبة — بأنه لن يكون من العسير أن تعود لتسفر على هذا العرش — بمجرد أن تزال كل الحواجز التي قامت بينهما .

وبعد تناول العشاء ، جلس « جارت » أمام البيانو ، وظل يملأ القاعة بالألحان ، وفنا طويلا ، ولقد انسابت انغام انشودة « المسبحة » — مرة واثنين — خلال عرقه . فكانت حين نصت لها في شغف وشوق لسماعها ، متوقعة ان يستمر . ولكنه — في كل مرة — كان يتحول إلى قطعة أخرى .. حتى لاح اللحن أشبه بطيف يلاحق الألحان الأخرى ، دون أن يكون له وجود واقعي ..! حتى إذا بارح « جارت » البيانو ، واهتدى بالشريط الأصفر إلى مقعده ، قالت له الممرضة روزماري بكل لطف : « يا سيد دالين .. هل تستطيع أن تستغني عن بضعة أيام في نهاية هذا الأسبوع » . « ما جابيا جارت : « آه ، ولماذا » .. إلى أين تذهبين ؟ وكم تتقيبين ؟ .. آه ، اعرف أنه كان خليقا بي أن أقول لك : « طبعاً » بكل سرور ! » ، بعد كل ما أسديت لي من صنيع ، ولكني — في الواقع — لا أقوى على ذلك ، فليست تفرين كيف كانت حياتي بدونك ، حين تقيبت في عطلة الأسبوع الماضية ..

لقد لاح لي كأنك غبت أشهرا ، برغم وجود براند هنا .. إنه ذنبك ، إذ جعلتني لا استغني عن وجودك ! » .

وابتمت الممرضة « روزماري » وقالت : « أؤكد لك أن غيابي لن يطول ، وإذا رقيت في عودتي فساعد ، ولكن يا سيد دالين .. لقد انتويت على أن أحرر الليلة ذلك الخطاب الذي أخبرتك به ، وسأضعه غدا في صندوق البريد ، ولابد من أن أتبعه قورا ، إذا استطعت ، لأكون بجانب فتاى عند استلامه الخطاب ، أو بعد استلامه بلحظات .. واحسب . بل أرجو أن يستدعيني قورا .. اليوم الاثنين ، فهل يمكنني أن أسافر يوم الخميس ؟ » . فبدت على وجه « جارت » المسكين إمارات الهلع ، ونساءل : « أمن عادة الممرضات أن يتركن مرضاهن ، ويهرعن إلى قتيانين ليستوثقن من وقع خطاباتهن عليهن ؟ » . وكان الاستفسار يجمع بين الاحتجاج والتحكم . فاجابت الممرضة روزماري بأدب واضح : « ليس هذا من عادتنا يا سيدي » ولكن هذه حالة استثنائية ! » .

— سأبعث ببرقية إلى براند !

— وسبوغد إليك ممرضة أخرى أكثر كفاءة وتهسكا بعلمنا مني !

— آواه ، يالك بن صغيرة شريرة ! .. لو كانت الأنسة شامبيون هنا . لهزتك هذا . فأنت تعلمين جيدا بأن أحدا لا يستطيع أن يملأ مكانك !

— ظرف منك يا سيدي أن تقول لي ذلك . ولكن .. هل كانت الأنسة شامبيون قد بن هز الناس ؟

— لا تنادينى بباسيدى .. أجل ، كانت كلما اصطدمت بأشخاص مزعجين ، قالت إنها تود أن تهزمهم هزا ، فلا يتمالك المرء أن يتخيل كيف تصطك أسنانهم من ذلك . وهناك سيدة صغيرة — من معارفنا — اعتدنا أن ندعوها السيدة : « اعمل ولا تعمل » . وهى ليست من ثلثنا ، ولكنها كثيرا ما كانت تقحم نفسها عليها ، وأحيانا كانت تدعى لتناول الغداء . لمجرد الضحك والتسلية . فإذا سألتها عما إذا كانت تحب شيئا معيناً ، أجابت دائماً : « اتنى أحبه ولا أحبه » .. وإذا سألتها عما إذا كانت ستذهب إلى عمل ما ، كان جوابها : « حسناً ، سأذهب أو لا أذهب ! » . وإذا أرسلت إليها في أمر ، وسألتها رداً حاسماً صريحا ، وأذاك الجواب : « نعم ولا » .. ومن ثم فقد كانت الآنسة شامبيون تقول دائماً إنها تود أن ترفعها من ياقة معطفها الفرائى ، وتهزها وهى تسألهما بين كل هزة وأخرى ، « هل لك عن هزك ؟ » ، إلى أن تنتزع منها زدا حاسماً .. ولو لمرة واحدة !

— وهل كانت الآنسة شامبيون قادرة على تنفيذ هذا التهديد ؟ .. أكانت ضخمة البنيان ؟

فقال جارث : « أجل ، كانت قادرة ، ولكنها ما كانت لتفعل . إذ أنها على جانب عظيم من الرقة ، حتى مع النواغم الذين كانت تصطك منهم . كلاً إنها ليست ضخمة . إن هذه الكلمة لا تتفق مع وصفها مطلقاً . وإنما هى أوتيت وفرة في الحجم مع تناسق بديع بين الأعضاء . هل تعرفين تمثال « غينوس ميلو » ؟ . أجل ، في « اللوفر » . يسرنى أنك ذهبت إلى

باريس .. حسناً « تصورى « فينوس ميلو » في معطف من أحدث طراز وثوب مماثل .. هكذا كانت الآنسة شامبيون ! » . وضحكت الممرضة « روزمارى » ويبدو أنها لم تستمع « فينوس ميلو » ، أو الآنسة شامبيون ، أو الجمع بينهما ! .. بينما أودف جارث قائلاً : « لقد وصف ديكى براند الصغير السيدة « اعمل ولا تفعل » خير وصف . فقد زارت دار الطبيب بشارع (ويمبول) ، في اليوم الذى خصمته الليدى براتشر لاستقبال الضيوف . وكان « ديكى » الصغير يحدثنى ، وهوى في سترته المصنوعة من المخمل الأسود وصدرية بيضاء — فكان بذلك صورة مصغرة لوالده سير دريك — فما إن لمح عن بعد السيدة « اعمل ولا تفعل » ، وقد جلست في مقعد كبير ، حتى أبدى ملاحظته البارعة بقوله : « هذه السيدة لا تعلم شيئاً البتة ، وإنما هى دائماً تظن .. فقد سألتها مرة عما إذا كان لابنتها الصغيرة أن تحضر حفلتى ، فقالت : « ربما » .. ولو أنها سألتنى عما إذا كنت أحضر حفلتها لأجبتها : « شكراً سأذهب ! » . ما أسخف أن « يظن » من أجل أمور هامة كحفلات الأطفال أو غيرها ، لأن الحفلات تقام سواء « ظنوا » أو « لم يظنوا » ! .. وليس لأبيهم في الأمور الجارية العادية — مثل الطقس — قيمة ، لأن أحوال الطقس تحدث سواء أبدوا الراى أو لم يبدوه . ولقد سألت أُمى تلك السيدة مرة ، عما إذا كانت قد صادفت مطراً عند حضورها فاجابتهما : « ليست أظن ! » . ولا أعلم لم تكثر أُمى من الاستعلام عن المطر ، فقد سمعتها — بعد ظهر ذلك اليوم — تسأل مبع سيدات على التوالي عن هطول المطر .

— إذا أردنا أن نعرف إذا كان الجو ممطرا أو لا — أكثر من أن نخطو إلى النافذة وننظر إلى الخارج ، ثم نعود ونستأنف الحديث في أمور أكثر أهمية .. اما أمي . فانها تسألهم عصا إذا كان المطر يهطل « أو إذا كانوا يعتقدون أن المطر كان يهطل . أو سيهطل بعد ذلك .. فاذا أبدئي واحد لها رايًا . سارعت إلى توجيه السؤال ذاته إلى الآخرين . ولقد سألت مرة تلك السيدة « افعل ولا تفعل » عما إذا كانت تعرف والدي الشاب التي تزوجها « قابيل » ، فاجابتنى : « اعرف ولا اعرف » .. فقلت لها : « إذا كنت تعرفين فارجوكم أن تخبرينى ، وإذا لم تكونى تعرفين . فالأفضل أن ترافقينى للتلقي السؤال على الأسقف ، وهو الرجل ذو الساقين النحيلتين : الذي يحمل صليبا ذهبيا ويتحدث إلى أمي . غير أن السيدة تملصت منى بحجة أن لديها أمرا هاما . فودعتها . ووجهت سؤالى إلى الأسقف » .. وإنك لترين أن « ديكى » الصغير قد رسم صورة دقيقة لهذه السيدة ! » .

فضحكت الممرضة روزمارى ، وقالت : « ما أدق ما قلت ديكى ، حتى لا أكاد اسمع صوته الرصين وأراه وهو يشهد عديريه الصغير إلى أسفل ! » . فسألها جارت : « ماذا ؟ ! » اتعرفين الفلام ؟ » . وكان جوابها : « أجل ، فقد أقيمت معهم غفرة . أن الحديث مع « ديكى » نوع من التعلم ، في حين أن الطفل « بلوسوم » مرح ولعوب . ها هو ذا سمسون قد أقبل . ما أسرع ما انقضت السهرة ! .. أفيهكتنى السهرة يوم

الخميس ؟ » . فاجابها جارت : « لا حيلة لى ، فليست امك أن أرد لك طلبا .. ولكن ، حتى أنك لا تعودين ؟ » . فقلت : « أبرق — إذا ذاك — للدكتور برانك » .

وهنق جارت بلهجة العتب : « أعتقد أنك ترغبين في أن تتركينى ! » . فضحكت الممرضة « روزمارى » ، واجابت وهى تسرع خارجة لتفادى مصافحة يديه المبسوطتين : « أرغب ولا أرغب ! » .

وعندما أغلقت جين حقيبة البريد في ذلك المساء ، وسلمتها إلى « سمسون » ، ألقت فيها خطابين منها ، إلى :

جورجينا ، دوقة ميلدرم ، بيدان (بورتلاند) — لندن .

والسيدة دريك برانك — شارع (ويمبول) — لندن .

وكتبت على كليهما : « عاجل — وفي حالة غياب المرسل إليه ، يلحق به في مقره » .

الفصل الثانى والثلاثون

مر يوم الثلاثاء ساكننا دون اية احداث بارزة ، ولم يدر « جارت » أن الممرضة كانت قد قضت معظم الليل ساهرة ، تكتب .. فاذا شاعت أن تسرع ، قضت لحظات طويلة في تأمل لوحية اللتين وجدتا مكانا آمينا مؤقتا - قبل إعادتهما إلى الرسم - في خزانة كبيرة في حجرتها ، كانت تحرص على إغلاقها والاحتفاظ بمفتاحها . وإذا كانت الممرضة « روزمارى جراى » قد لاحظت - والام يمزق قلبها - ما اعترى وجه « جارت » من شحوب وإنهاك ، دلا على ما عاناه في ليلته - هو الآخر - من أرق شديد واضطراب نفسى ، فاتها لم تبداه ما يتم عن ذلك .. وهكذا مر يوم الثلاثاء على وتيرة هادئة .. وفى الصباح ، تسلمت الممرضة جراى برقيتين .. تلقت الأولى وهى تقرأ صحيفة « التايمز » لجارت بصوت مرتفع ، إذ أحضرها إليها سيمسون قائلا : « برقية لك يا آنسة » .

وكان من بواعث زهو سيمسون بعد ذلك - أنه انساق منذ بداية الأمر ، لما كان يسميه « غريزة لا خطيء » ، فجاهل لقب « الممرضة » ولم يكن يدعو « جين » إلا باللقب المصطلح عليه « آنسة » . وقد أوشك أن يقنع نفسه بأنه اكتشف تقريبا أنها « نبيلة » ، ولكن « مارجرى جراى » أبت في إصرار أن تصدقه . فاتها - من ناحيتها - قد ساورتها الظنون ، بيد أنها احتفظت بها في دخيلة نفسها ، في حين أن تخمينات سيمسون كلها كانت مثار نقاش مستمر في حجرتها ، ولم يحدث أن ورد يوما ذكر « النبيلة » على لسان سيمسون !.. لهذا

فقد عنته مارجرى لادعائه شيئا لم يحدث . أما الخادم « ماجى » ، فقد كانت دائما على ثقة من أن سيمسون يضرر أكثر مما يظهر . ولكن مارجرى كانت تصدها بقولها : « تقصدين أنه يقول أكثر مما يعرف ! » . فتصيحها ماجى محتجة : « لا ، انسى أعرف ما أقول ، وقد قلت ما أعنيه » . فترد مارجرى في إصرار على رأيها : « ربما قلت ما تعنين ، ولكنها لم تعنى ما تعلمين .. وإذا سمعت كلمة أخرى عن هذا الموضسوع ، فسأتلوا صلاة اختتام المائدة ، وأرفع الطعام ! » . وهكذا وضعت نهاية للنقاش بما كان لها من سلطان ، الأمر الذى وصفه سيمسون وماجى - فيما بعد - بأنه « وضع » ، لأنها كانا ما يزالان راغبين في مزيد من الطعام !

ولكن هذا لم يحدث إلا بعد وقت طويل من يوم الثلاثاء البادئ ، الذى دخل فيه سيمسون إلى حجرة المكتبة وبيده صحيفة ، فقال لجين وهى مسفرة في قراءة « التايمز » : « برقية لك يا آنسة » . فتناولت الممرضة روزمارى البرقية ، واستأقنت « جارت » في الانقطاع عن تلاوة الصحيفة ، ثم فقت البرقية .. وكانت من الدوقة ، وقد جاء فيها : « آسفة لهذا الارتباك كما تعلمين جيدا . ولكننى سأبرح (أيستون) الليلة وانتظر تعليمات أخرى في أبردين » .

وابقست الممرضة « روزمارى » « ودست البرقية في جيبيها ، ثم قالت لسيمسون : « لا رد هناك . شكرا لك يا سيمسون » . فسألها جارت : « أرجو ألا تكون أخبارا سيئة » . فأجابته الممرضة روزمارى : « كلا ، وإنما أحسن سفرى يوم الخميس .. فالبرقية من عملى العجوز ، تبلغنى

الفصل الثالث والثلاثون

يزرغ فجر يوم الأربعاء أول مايو - فكان يوما رائعا ..
وهبط جارث في الحديقة قبل تناوله الفطور . وسمعتة جين
- أثناء مروره تحت نافذتها - يغنى :

« ليس لى أن اتغنى أنشودة مالبها المهيبة .

» الذى تشعه روح حبيبتي السامية على وجهها ! »

فاطلت من نافذتها ، ورائته يسير تحت نافذتها - فى أحدث
حلة بيضاء - بخطوات خفيفة مرنة ، وفى كل حركة من حركاته
رشاقة لدنة ، وليس ما يتم عن عيائه سوى عصا من خيزران
المتقا (كان يحملها فى يده) ، مظلما بها الحاجز الأخضر أو
جدار القصر .. ولم يكن يوسمها أن ترى سوى قمة رأسه
الأسود الشعر ، تماما كما حدث حين أطلت عليه وهو فى شرفة
قصر (شينستون) ، منذ ثلاث سنوات . وتاقت إلى أن
تناديه من النافذة : « حبيبى .. يا حبيبى ! عم صباحا ..
بارك الله يومك ! » .. آه ، ترى ما الذى يتمخض عنه هذا
اليوم .. اليوم الذى يتلقى فيه اعترافها الكامل . وأيضاحاتها
وتوسلاتها كى يصفق ؟ - لقد كان فتى يافعا فى كثير من عاداته
.. كان مرهف القلب : موفور الحب ، ذا روح فنية ، شاعرية ،
لا تقبل الضيم .. كان صغيرا برغم حبه العظيم . أما فيما
يتعلق برجلته « وحيه » ، وحقه المطلق فى الاختيار وفى البيت ،
وفى تمسكه بالرأى الذى يكونه بعد دراسة مسقة ، « فارتاحت
كل رأى للغير متى بدا له أقل قيمة . كان فى كل هذا مليا

بأنها ذاهبة إلى دار فتاى .. ويقتضى الأمر وجودى هناك
قبل وصولها ، وإلا حدثت مضاعفات وإشكالات لا نهاية
لها ! » . فعلق « جارث » على الأمر ، قائلا فى كبد ظاهر :
« لا اعتقد أنه سيسمح لك بالعودة بآية حال ، متى رآك
هناك ! » . فأجابته وعلى قمها ابتسامة عذبة . « اتعتقد
ذلك ؟ » .. ثم تناوت الصحيفة ، وعادت إلى تلاوة ما بها .

ووصلت بعد الغذاء برقية أخرى ! .. كان جارث جالسا
على البيانو يعزف لحن بينتوغن « مارش جنائزى فى وفاة
بطل » ، وقد راحت الحجرة تهتز بالتغيمات العالية . وإذا
سمسون يظهر بوجهه المليح والشعر النامى على نمديه إلى
منتصف خديه . ودخل دون حيلة ولا صوت ، فوضعت
الممرضة أصبعها على شفثيها محذرة ، وتقدمت إليه بخطواتها
الصامتة الثابتة ، فتسلمت البرقية ، ثم عادت إلى مقعدها ،
وانتظرت حتى انتهى تشييع جنازة البطل على البيانو ، وهمد
صوت دقائق الطبول المدوية ، ثم فضت غلاف البرقية .. وفى
اللحظة ذاتها : حدث ما لم يكن فى الحسبان . فان جارث بدا
يعزف « المسبحة » .. وأخذت حبات الآلىء تتساقط من
يديه ، بينما كانت « الممرضة » روزمارى تتلو برقيتها وتبين
أنها من الدكتور دريك . وكان فحواها : « من السهل الحصول
على ترخيص خاص . سأتى وفلاور متى رغبت . أبقى ثانية » .
وعند ذلك كانت معزوفة « المسبحة » قد قاربت ختامها
المحزن ، فسالها جارث : « ماذا أعزف بعد ذلك ؟ » .

- أعزف ترنيمة .. « تعالى أيتها الروح الخالقة ! »

ثم أحننت رأسها وهى تصلبى .

لا ينتنى . وكأننا كان الآلم نفسه بردا وسلاما ، بل كان الآلم يحوله من عاشق مصهور القلب ، إلى قضيب من الصلب .

وعندما جئت « جين » امام نافذتها - في هذا الصباح - لم يكن ليدور بخلدنا أو تدرك ما الذى سيتكشف عنه المساء . . هل ستكون في طريقها إلى « أبردين » ، لتستقل قطار الليل إلى الجنوب أو تستقر نهائيا في مرفأ حب « جساوث » ؟

وكان الصوت الحبيب ما يزال يغنى في الحديقة :

« إننا لى ان أسير في ركابها ..

« وانفذ مشيئتها في الفرح والآلم ..

« وأحرق على مذبحها بخور الحب الشذى ..

« وأعبدوها عن بعد في خشوع » .

فهمست جين : « اواه أيها المحبوب . ليس عن بعد إذا كنت تريدها .. وما عليك إلا ان تناديبها فتكون لك » على أقرب ما يمكن للحب ان يقرب بين حبيبين . ولئن يعود بينك وبينى أى بعد ! » . ثم - وبالطريقة المجيبة التى تقفز فيها إلى العقل كلمات ذات قيمة قديمة - في غير مناسباتها الأصلية - لتوحى بمعان تختلف تماما عن معانيها - هجئت الكلمات التالية على ذهن جين منطلقت بها : « لأنه هو سلامنا ، الذى جمع الاثنين في واحد ، وهدم الجدار الفاصل بيننا .. عسى ان يصلح بيننا ، بفضل الصليب » . وأردفت هامسة : « يا يسوع الحبيب ! إذا كان حبيبك قد فعل هذا لليهودى والوثنى ، أفلا يمكن للصليب الثقيل الذى حمله لنأى في شجاعة ،



فأطلت من نافذتي . ورائته يسير تحت نافذته - في أحدث حلة

بيضاء - بخطوات حفيضة مرنة .

أن يفعل ذلك له ولى ؟ .. وبذلك يشننى لنا - أخيراً - أن
" نقبل الصليب " معاً ! » .

ودوى ناقوس الفطور في الدار ، فقد كان سمسون يحب
نوافيس إعلان أوقات الوجبات ، ويعتبرها « تقليداً تاريخياً » ،
فكان يصير على التمسك بها ! .. وهبطت الممرضة « روزمارى »
للتناول الفطور . ورائها جارث من الثرفة ، وهو يقيم
لحن : « ألف جمال أعرفها جيد المعرفة » . وكان في أقصى
حالات التنبلة والمزاج المطلق ، وقد انقط من بين الزهور
برعوم وردة ذهبية اللون ، وغرسه في عروة سترته ، بينما
جبل في يده وردة صفراء . وما أن دخل حتى قاتل لها :
« سعدت صباحاً يا آنسة روزمارى .. يا له من يوم جميل
من أيام الربيع .. لقد خرجت مع سمسون حين غادرت
الطيور أوكارها .. اليس كذلك يا سمسون ؟ .. بسكين
سمسون ، فلقد أزعجه رنين جرسى الكهربائى في حجرته .
في الساعة الخامسة صباحاً ، فأننى لم أحتمل البقاء طويلاً في
الفرش .. لقد استيقظت وفي نفسى شعور بأن شيئاً يوشك
أن يحدث . وقد اعتادت « مارجرى » أن تقول ، عندما
كنت استيقظ بهذا الشعور في صغرى : « انفض يا سيد
جارث ، فكلما عجلت بالنهوض ، عجل الأمر بالحدوث ! » .
سألهما يا سمسون تبتك ! .. هل تنكرين يا آنسة جرائى .
ذلك القول المشهور : « إذا استيقظت مبكرة ، فابقظينى .
ابقظينى يا أمى العزيزة ! » .. لقد اعتدت أن أكره الشابة
ساحبة هذا القول ، إذ يخيل لى أنها في أنفعالها كانت
تستيقظ قبل أمها المسكينة التى كانت ولا بد مضناة مرهقة ! » .

وانتظر سمسون حتى قادت إلى مقعده بجوار المائدة . ثم
رفع الاغطية عن الصحاف ، وخرج . وما أن أغلق باب الحجرة
خلفه . حتى اتصنى جارث في مقعده ، وبنقة وضع الوردة
المتفتحة على طبق الممرضة روزمارى وهو يقول لها : « الورد
لروزمارى .. شيتها على صدرك إذا كنت واثقة من أن متاك
لا سترخى على ذلك . لقد شغل بالى بالتفكير فيه وفى العمة .
وتمنيت لو أنك دعوتها للحضور إلى هنا ، بدلاً من السفر
إليها يوم الخميس ، فكننا نقضى أبهج وقت حافل بالمرح
المساخ . كنت اللعب مع العمة ، بينما تلهين أنت مع الشاب
خارج الدار . ومن السهل أن اتحابل على حجز العمة من
القتل خلفك في الأركان والمخابىء ، بما أوتيت من موهبة
السمع المرفف الذى يفوق سرعة نظرات العبات .. فإذا
سمعت منك سعة لطيفة سارعت إلى التشبث بالعمة ، مصراً
على أن تقودنى إلى ركن آخر بعيداً عنك . وقد أراقمتها في
نزهة بالسيارة بينما تذهبين مع الشاب في نزهة بالغارمب .
وبعد أن يقضى معنا مدة . تتم فيها تسوية كل الأمور على
أحسن وجه ، نصزم امتعتهم ونودعهم ، ثم نعود معاً إلى
هنا .. آواه يا آنسة جرائى ، فلا كتبت لهما كى يحضرا بدلاً
من سفرك يوم الخميس ؟ » .

فاتحنت الممرضة روزمارى ، وقالت له في لهجة مشبعة
باللوم وقد لمست يده بحافة طيحتها : « يخيل لى - يا سيد
تالين - أن هذا الصباح ، وهو يوم مايو الجميل ، قد أثر في
عقلك .. وسأطلب مارجرى فوراً كانت قد أتت من منذ

القدم ! » - فقال لها جارث وقد انحنى بقمته إلى الامام ،
 واخذ يحدثها وكأنه يبوح لها بسر : « ليس الامر كما تخالين ،
 فان شيئا سيحدث اليوم يا صغرتى روزمارى ، غما من مرة
 ههنا بى هذا الاحساس الدافق إلا حدث شيء ما .. وكانت أول
 مرة منذ خمسة وعشرين عاما ، إذ كان لى حصان متارجع فى
 البهو الكبير » أقفز عليه كلها نزلت إلى البهو . ولست أنسى
 أول مرة امتطيت فيها هذا الحصان المتارجع .. كنت اشعر
 بابتهاج يشوبه خوف كلما مال إلى الوراء ، وكنت اخشأنى
 أغوص فى الهواء كلما مال إلى الامام ، وكنت اشعر بخيلاء كلما
 تمكنت من أن اكف عن التشبث بمقبضه الجلدى .. ومرة
 كدت أمتك بابن عمى لانه خلج ذيله » فرحت أسوطة بالذيل
 .. وما اسخف ما فعلت ، فقد اطلقت الذيل فضلا عن أننى قد
 آلمت ابن عمى . وفى مرة أخرى .. آه ولكنى اشعر بأننى قد
 ضابقتك « بثررتى » . فأجابته الممرضة روزمارى بكل لباقة :
 « أبدا .. كل ما أرجوه هو أن تتناول إفطارك » فسوف يصل
 البريد بعد لحظات ! »

وبدا وجه جارث متألعا ، شديد السسورة .. يا لهذا
 الغلام المرح العزيز ، وقد تاه بريطة عنقه البنية المشوية بظلال
 ذهبية ، ويوردة صفراء أثبتتها على صدره . وشعرت جين بما
 اقتابها من شحوب ، وبما كان فى صوتها من توجس حين
 قالت : « فسوف يصل البريد بعد لحظات » . ولكن جارث
 صاح : « آه ، دحك من البريد ، ولتقضى يوما مرحا ، نستريح

فيه من فض الخطابات أو تلاوتها .. ان اليوم « يوم مايو » ،
 وستقومين أنت بدور « ملكة مايو » ، وتجعل من مارجرى
 الام العجوز ، بينما أمثل أنا دور « روبين » ، ذى القلب الكبير ،
 الذى مال برأسه على حافة الجسر ، تحت شجرة البندق ..
 أما سيمون فسيقوم بدور العسى الكبير .. ونذهب جميعا
 لنقطف الزهور والبراعم ونصنع منها أكاليل زاهية بهجة ! » .
 فأجابته الممرضة روزمارى « وهى تضحك بالرغم مما كانت
 تحس به : « يا سيد دالين » يجب ان تعود إلى رزانتك وإلا
 لجأت إلى مارجرى لاستشيرها فى الامر ، فما عهدتك قبيل
 اليوم فى مثل هذا المزاج » . فأجابها جارث : « لأنك لم ترينى
 قبل اليوم فى يوم كنت أرتقب أن يحدث فيه امر هام » .
 وصمتت الممرضة روزمارى « ولم تحاول التضييق عليه أكثر
 من ذلك » .

وبعد انتهاء الإفطار ، ذهب « جارث » إلى البياثو ، فعزف
 بعض الألحان الراقصة الخفيفة ، التى سرت عداوها فى الجو ،
 حتى أن سيمون لم يمالك نفسه ، فأخذت قدماء تخطوان
 فى انتظام موسيقى ، وهو ينظف أدوات المنضدة . أما الممرضة
 روزمارى ، فقد كانت فوق مقعدها شاحبة الوجه قلقة البال «
 وإمامها حزمة من الخطابات شغلها عن تحريك قدميها ..
 وحمل « سيمون » غطاء المنضدة » وسار إلى الباب - على
 نغمات الموسيقى - ثم خرج ، وأغلق الباب خلفه .. ولم تكن
 الممرضة روزمارى قد تلت جوابا عما ذكرته على مائدة الإفطار
 عن حزمة الخطابات وفضها وتلاوتها .. وما لبثت أن انساب فى

أرجاء الحجر صوت البيانو وهو يمزق قطعة « تألقى أيتها
الخبيلة المضيفة الداكنة » ، كرتين أجراس من الفضة . وإذا
بالباب يفتح وتظهر مارجرى المجوز في فراغه ، وعليها مرولة
حريرية سوداء ، وقبعة زرقاء . وتقدمت نحو البيانو .
فونعت يدها على ذراع جارث وقالت : « يا سيدى جارثى
- فى هذا اليوم الجميل - أول مايو - هل لك يا سيدى جارثى
أن تصطحب مارجرى المجوز إلى جولة فى الغابات ؟ » .
فتوقف « جارث » عن عزف البيانو ، وقال لها : « طبعاً .
سأفعل ذلك يا مارجرى .. وبهذه المناسبة يا مارجرى ،
أخبرك أن شيئاً ما سيحدث اليوم ! » . فقالت مارجرى
المجوز بحنان ، وجهها يشرق - وهى تنظر إلى الوجه الأسمى
الحبيب - بتعبير ملامح عيون « جين » بالدموع : « أعلم ذلك
يا صغرى ، فقد استيقظت اليوم وأنا أحس بذات الشعور
يا سيدى جارثى .. والآن هيا بنا إلى الغابات لنصفى إلى
صوت الأرض والأشجار والزهور .. فأنها جيمعا ستنبئنا
عما إذا كان ما سيحدث اليوم أمر مفرح أو محزن .. هيا
يا ولدى الحبيب ! » .

ونهض جارث وكأنه فى حلم .. وبدأ - رغم عماه - غش
الشباب ، مغرط الجبال « حتى أن قلب « جين » كاد يجمد
ساكناً ، وهى تتأمله .. وعند النافذة ، توقف عن السير وهو
يقول بلهجة مبهمه : « أين هى كاتبة السر تلك ؟ .. لقد كانت
تلح على فى أن أبقى سجيناً بين الجدران ! » . فقالت له مارجرى
المجوز ، وهى تومئ فى اعتذار نحو جين : « أعلم أنها فعلت

ذلك يا بنى ، ولكنك تعلم بأننا لا نعرف شيئاً عن اليوم الذى
تستيقظ فيه شاعراً بأن شيئاً ما يوشك أن يحدث ! » .

وقالت « جين » لنفسها ، وهى تنفذ إلى الشرفة : « أحقا
هى لا تعرف ؟ » .. ثم أردفت : « ما دام حبيبى جارث قد
فقد رأسه العزيز - واسلم قهاده إلى مربيته لينطلقا إلى
الخارج ، فإن « الشيء الذى سيحدث » لن يحدث بعد .. » .
ثم جلست جين إلى البيانو - بعد خروج جارث ومارجرى -
ومرت بأصبعها عليه ، موقعة لحن « المسبعة » . ثم نهبت
إلى الشرفة ، وظلت عينيها بيدها ، حتى استوثقت من أن
القوام المشوق المنف فى ثياب بيضاء ، قد أوشك أن يبلغ قمة
القل ، مطابقاً ذراع المرأة القصيرة السبراء .. وإذا ذاك ،
عادت إلى البيانو ، وبدأت تعزف « المسبعة » .

وخرجت - بعد ذلك - فى نزهة عند برك الماء ، ريثما
استردت هدوء أعصابها بالسير بخطوات واسعة ، واستنشاق
النسيم العليل بعمق .. وأعادت تلاوة البرقية - التى كانت
فى جيبها - مرات ، ثم أسرعته الخطى إلى جوف الغابة وهى
تردد العبارة : « يسهل الحصول على ترخيص خاص .. » ..
آه ، قد يكون الترخيص أمراً ميسوراً ، ولكن .. ماذا عن
الغفران ؟ .. يجب الظفر به أولاً . فلو أن الأمر اقتصر على
هذا الفتى العزيز ، فى ثيابه البيضاء ووروده الصفراء « وهذا
الجنون الذى يث فى عروقه أول أيام مايو ، لحاز الحصول
على ترخيص الزواج فوراً ، ولا يمكن تحقيق كل رغباته فوراً
.. ولكن هذه الناحية من نواحي شخصية « جارث » ناحية

عابرة . ولكنها كانت مضطرة إلى أن تعالج الأمر مع الرجل صاحب الوجه الأبيض الشاحب ، الذى قال فى عزم وتصميم : « سأحمل صليبي » ، وسار مغادرا كنيسة القرية ، وابتعد عنها طوال تلك السنوات . . ذلك الشخص الذى كان يحبها حبا ملاً قلبه ونفسه ، ولكنه - مع هذا الحب الجارف - تركها دون كلمة أو إشارة ، ثلاث سنوات طويلة . . إلى هذا الرجل يرمع الاعتراف ، وستكون كلمته هى القرار الحاسم . . وكيفيا يكن الأمر ، فإنها لم تدهش عندما رآته جالسا إلى المائدة - عند عودتهما لتناول الغداء - وقد تأخرت قليلا ! .



وإذ شعر بها تاج القاعة ، قال فى لهجة رسيئة : « يجب أن اعتذر لك - يا آنسة جراى - عن مسلكى فى هذا الصباح . فقد كنت « مسوقا وراء المجهول » . . ومارجى نفهم تماما هذه النزعة ، وقد استمعنا - هى وأنا - إلى أمنا الأرض ، ولمسنا بأيدينا طراوتها الحنون « وكاشفتنا بكنون سرها . . ثم اضطجعت تحت أشجار الأشربين ، واستسلمت إلى نوم عميق استيقظت منه هادى ، النفس ، موفور الصحة ، مستعدا لاستقبال ما يأتى به اليوم من أحداث ، غلبوف يأتى اليوم بأمر ما ، وليس هذا بوهم ، فاليوم يوم أحداث جسام . . كل هذا نعرفه مارجى هى الأخرى ! » . فأجابت الممرضة روزمارى : « ربما . . وقد يكون فى بريد اليوم أنباء هامة » . فقال جارث : « آه ، فانتى ذلك . . أننا لم نقض

بريد اليوم ، فلتقم بذلك بعد الغداء مباشرة . . هل الخطابات كثير د ؟ » . فأجابت الممرضة روزمارى : « أنها حزمة كبيرة ! » . وبعد نصف ساعة ، جلس « جارث » فى مقعده فى هدوء وترقب ، موليا وجهه شطر كاتبة أسرار . . وتناول خطاباته ، فتقصصها ، وإذا بينها خطاب مختوم بخاتم يحمل شارة القبة والريشة وقناع حديدى . . ولحت الممرضة روزمارى وجهه يشحب لدى تحسسه الخاتم . ولم يبد أية ملاحظة . . ولكنه وضع الخطاب فى آخر الرسائل ، لكن يكون الأخير فى القراءة . . فلما تم الإطلاع على الخطابات الأخرى ، أمسكت الممرضة روزمارى بالخطاب المختوم « فساد الحجرة مسكون عميق . . وكأنا وحيدى ، وهذين النحل ينبعث من الحديقة ، وغبير الزهور يتسلل من النافذة . . ولم يزعج وحدثهما أحد . ثم تناولت الممرضة روزمارى الخطاب ، وقالت : « هذا خطاب مختوم بالنمى الأحمر يا سيد دالين ، وعلى الخاتم شعار قبة وقناع و . . » . فقاطعها جارث : « أعسر كل هذا ، فلا داعى لإيضاح . . الا تفضلت بنفسه ! » .

نفضت الممرضة روزمارى الخطاب « وقالت : « انه خطاب طويل جدا يا سيد دالين » . فتهتف : « حقا ؟ » . هل لك يا آنسة جراى أن تقرئيه على ! » . . وأعقبت ذلك لحظة من الصمت الممض ، ثم رفعت الممرضة روزمارى الخطاب . غير أن صوتها أبى - فجأة - أن يستجيب لإرادتها ، بينما كان « جارث » ينتظر فى إصغاء . وما لبثت أن قالت : « بلوغ يا سيدى انه خطاب شخصى سرى ، وأرى من البصر على

ان اقراه عليك ! » . وادرك جارث من صوتها مدى حرجها ، فاتجه إليها بلطف ، وقال : « لا بأس يا بيتى العزيزة ، فليس هذا من شأنك . انه خطاب خاص بى ، ولكن وسيلتى لمعرفة محواه ، هي استماع ما تراه عينك وما تنطق به شفاهك . ثم ان السيدة صاحبة الشعار ذى القبة والريشة ، لا تملك سرا خطيرا تبلغنى إياه ! » .

وقالت الممرضة روزمارى ما يأتى فى صوت متهدج : « آه ، بل لديها ! » . فوجم جارث برهة ، ثم قال لها : « إذن ، فأقلبنى الصفحة وأقرئنى التوقيع » . فكان جوابها : « إن الخطاب من صفحات عديدة » . وهنا قال فى حدة : « أقلبنى كل الصفحات » ولا تدعبنى انتظر طويلا .. ما هو توقيع الخطاب ؟ » . فاجابته الممرضة روزمارى فى همس : « زوجتك ! »

وشمل المكان صمت رهيب ، وكأنما احوالت الكلمة - التى همست بها الممرضة - جارث الأعلى إلى جهر صلد . وما لبث أن مد يده قائلا : « هل لك أن تعطينى هذا الخطاب يا آنسة جراى ؟ شكرا لك ! » . أحب أن أخطئ بنفسى نحو ربع ساعة ، وأكون ممثلا لو تفضلت بالانتظار فى قاعة الطعام ، على ألا يزعجنى أحد .. وبعد انتهاء هذه البرهة أرجو أن تعودى ! » .

وكان يتكلم فى هدوء واتزان وجف لهما قلب جين ، ولو أنه أبوى شيئا من الانفعال ، لأطمان بإلها .. فهذا هو الرجل الذى أحنى رأسه ذا الشعر الأسود اللامع ، أمام صورة الصليب - على نافذة كنيسة القرية - قائلا : « اننى أقبيل

الصليب » .. وهو الرجل الذى لم تتعثر خطواته حينما سار من عتبة الهيكل ، وتركها .. هذا هو الرجل الذى أوتى القدرة - من ذلك الحين - على أن يعتبر تلك الفترة من علاقتهما منتهية « فلا كلمة استعطاف ، ولا اثر للذكرى ، ولا إشارة لوم . هذا هو الرجل الذى وقعت خطاياها له بكلية : « زوجتك » .

ولم تكن جين قد شعرت بخوف طوال حياتها ، ولكنها عرفته إذ ذاك . وعندما نهضت فى سكون وتركتها « اختلست نظرة إلى وجهه ، فإذا به يجلس جامدا والخطاب منشور بين يديه . ولم يكن قد ولاها وجهه حين تسلم منها الخطاب ، فلاح المنظر الجانبى لوجهه كما لو كان تمثالا جبليا منحوتا من العاج الأبيض . فلم تكن شمة لحة من لون فى وجهه .. مجرد عايج شاحب ، يخلله أبفوس تمثل فى حاجبيه وشعره الأسود الفاعم ! .. وى رفيق ، غادرت الحجرة « وأغلقت الباب خلفها .

ومرت بها أطول خمس عشرة دقيقة فى حياتها .. كانت تعلم رهبة المعركة الهائلة التى تحدث داخل تلك الحجرة الساكنة ، فقد كان جارث يسعى إلى البيت فى الأمر ، دون أن يسمع أية حجة . أنه لم يسمع - فى إصراره الفريب ، الرهيب - سوى كلمة واحدة من خطابها ، وهى عقدة الخطاب .. هى التى صيغ الخطاب كله بعناية ليفضى إليها . ولا بد أنها كشفت له - فوراً - طابع الخطاب ، وهدف السيدة التى حررتة !

وأخذت جين تذرع حجرة الطعام في خطوات سريعة ، وفي هم وتغوط . وهي تذكر الساعات التي قضتها في التفكير وفي صوغ الجمل . لتبني عقله - في حذر - لما سينكشف عنه التوقيع .

وفي غمرة اضطرابها الذهني ، وانتهت ذكرى حديث دار بين الممرضة روزماري وبين جارت عن الصورتين . إذ تساءلت الأولى : « أهى زوجة ؟ » فأجابها جارت : « نعم » . فأدركت جين لتوها ما كان هذا الرد يكسفه وبفضه . ذلك لأن جارت كان قد استوثق من أنها له ، في تلك اللحظات الرائعة التي قضياها في شرفة قصر الشينستون ، إلى درجة أنه تطلع إليها « وناداهما » : « يا زوجتي » . لا بلهجة المستفسر . وإنما تقريراً لمر واقع قاطع . وهو لا يزال يضمها في هذا الموضع ، لا يحلها منه . نيلها كما لو أن قسا وكتاباً وخاتماً تضافروا على توحيد حياقهما بالزواج . . .

لقد كان اتحاد الروحين - في رأيه - مقدماً على ما عداه . فإذا ثم هذا الاتحاد ، فكل ما يتبعه من إجراءات التوقيع ليست سوى مراسم تعزز أمراً تم فعلاً . ولقد أدنى خوفها ، وعلم اطمئنانها ، وتغريب أفكارها بها ، أن الإجراءات لم تعقب الاتحاد . فانتزعت حيانهما ، وذبحت كل منهما في وجهة غير وجهة الأخرى . أما هو ، فقد اعتبر أنه لا يعدو - في نظرها - أن يكون مجرد فرد من معارفها . وكان خلال السنوات الثلاث يعتقد أن دورها في ذلك القران الروحي - الذي عقدها في تلك الليلة - لم يوجد إلا في خياله هو فقط ، فهو لا يقيددها

بشيء . . أما هو - جارت - فقد ثبت على عهده ، لأن الكلمات التي قالها في تلك الليلة ، كانت من ناحيته حقيقة وصدقا ، ومن ثم فقد قالها . . ولأنه قالها ، فقد أصبح يعتبر « جين » زوجته في الحياة وما بعد الحياة . . وكان تفهم هذا المنطق - بالغريزة - هو الذي شجع جين على أن توقع الخطاب بتلك الكلمة ! . ولكن ، كيف السبيل إلى التوقيع بين ذلك التوقيع ، وبين الفكرة التي أوحى إليه بها نصرعها ، فلم تدع له أي أمل في أي تحول ؟!

وتكررت جين - إذ ذاك - بارتياح . ذلك اللاحاح الذي أبداه « الصديق » فلم تقو على مقاومته روح الفنان . . صدق الخطوط . وصدق الألوان . وصدق القيم والمقاييس . . وفي عالم الصوت ، صدق النغم ، والتوافق ، والتردد ، والغاية . . فلما وصفت الممرضة « روزماري » صورة « الزوجة » بأنها نصر للفن ، أجابها جارت بقوله : « بل هي نصر للصدق والحقيقة ! » . وكان تعليق « جين » - في نفسها - على النظرة التي استنصها في وجهها : هو : « اهذا حق . . أجل . انه حق ! » . فهل يعز عليه الآن أن يتبين صدق ذلك التوقيع . ماذا تبينه ، أفلا يفرح - في وحدته - بأنه تعود إليه زوجته ؟ . . ما لم يدفعه ما في خطابها من اعترافات : إلى أن يقصدها عنه ، ولا يحسب لها حساباً !!

ونجاة تبادر إلى ذهن جين أن هناك ميزة عظيمة ، وهي أنه سيطلب ولا ريب سماع كل كلمة وردت في خطابها ، عما كان عليه بختام الخطاب ليحول دون إطلاقه على شخصها . . عند

ذلك تجلى لها أن يدا علوية قد ربت كل ذلك ، ثم قالت في نفسها ، وهي تحصى الدقائق التي كانت تزحف في بطن شديد : « لقد هدم الجدار الفاصل بيننا ! » غشيتها طمانينة ناعية ، واستكن السلام في روحها .

ومر ربيع المساعة .. واجتازت « جين » البهو بخطوات ثابتة صامتة ، ثم تمهلت قليلا خارج الباب ، ريثما استعادت حواسها ورباطة جأشها . وفتحت الباب .. وعادت الممرضة روزمارى إلى المكتبة !

الفصل الرابع والثلاثون

كان « جارت » واقفا امام النافذة المفتوحة - حين عادت الممرضة روزمارى إلى الحجر - فتمهل قليلا قبل ان يعود إلى مواجهتها .. وتفتقد الخطاب في تلقى ، فوجدته منشورا لها على المنضدة ، امام مقعدها . وتبينت عليه آثار تفضن ضقت شديد « وكان بدا كورته وألقت به إلى سلة المهملات . ثم اعيد نشره وسويت اوراقه بعناية ، ووضع حيث كان مجلسها .. وكانت تجلى على وجه جارت - حين ارتد من النافذة إلى مقعده - علامات سراع شديد ، وظهر كرجل يجاهد في نضال ليرى ما امامه ، ورغم أنه لما قد الابصار . وقد اختفى السحاب العاجى ، إذ احمر رجهه .. كسا ثعبث شعره الذي كان غزيرا « يحيط بجبينه وأعلى صدغيه بعناية .. غير أن صوته كان مژمزا حين التفت إلى كاتبة سره قائلا : « امامنا مهمة شاقة ، يا عزيزتى الانسة جراى .. لقد تسلمت خطابا ارى من المحتم على أن اسمع فحواء ، وأنا مضطر إلى أن اسالك أن تقرنيه على .. إذ لا يمكننى بأى حال ان اعيد إلى شخص سواك بذلك . ولا يسعنى ان أنكر ان هذه المهمة ستكون قاسية واليمة عليك ، إذ ستجدين نفسك وسيطة بين قلبين جريحين كسيرين . ولكى أيسر عليك احتمال المهمة يا فتاتى الصغيرة ، العزيزة ، أؤكد لك اننى لا أعرف فى العالم شخصا سواك استطيع أن اسمع من شغيتي - بأقل الم ممكن - ما سيتلى على .. ولا توجد - بعد -

فقدانى بصرى - عينان غير عينيك تسمح لهما بأن تلبا بيوده
السطور « وأنا غير كاره .. ولا يوجد عقل آخر غير عقلك .
أضع فيه كامل ثقى - ذون تردد - لينتفخ في الحكم على
وعلى كتابة الخطاب . ثم ينسى في إخلاص صادق . كل
ما لا يقبل كلانا أن يصل إلى علم شخص ثالث . مما جاء بهذا
الخطاب .

فاجابته الممرضة روزمارى : « شكرا لك يا سيد
دالين » « وإذ ذاك ، اضطلع « جارث » في مقعده وقد حجب
وجهه في راحته ، وقال : « إذن . فارجو أن تشرعى .. »
وبدأت الممرضة روزمارى تقرأ في وضوح وهدهو :

« عزيزى جارث : « أما وقد رفضت حضورى إليك ، لادلى
إليك - فبما بيننا ، على انفراد - بكل ما يجب أن يقال ، غانى
أرأى مضطرة لأن أسطره لك .. انها غلطتك يا دال . وها
نحن نحصل العقاب بما « إذ كيف يمكننى أن أكتب لك بكل
حرية « وأنا أعرف أنك إذ تنصت إلى تلاوة هذا الخطاب .
ستبين - عند كل كلمة اكتبها لك - أننى أتحم شخصا
نالنا على ما كان ينبغي أن يبقى سرا دفينا بينك وبينى وحدنا!
.. ومع كل ، فلا بد لى من أن أكتب لك بصراحة تامة ، وأن
أجعلك تفهم كل الفهم ، لأن مستقبل حياتك وحياتى يتوقفان
على ردك عن هذا الخطاب . سأكتب لك كما لو كنت ستأخذ
الخطاب بين يديك وتقرأه بنفسك ولنفسك . ومن ثم - فما لم
يكن بوسعك أن تطحن تماما إلى كاتبة سرك ، وأن تاتهمها على
إسرار قلبك وقلبي . فاطلب منها أن تعيد الرسالة إليك قبل

أن تتمكن من تلاوة الصفحة الاولى ، ودعنى أحضر بنفسى
لاخبرك بكل شئ .. » .

وهنا قالت الممرضة روزمارى : « هذه نهاية الصفحة
الاولى » . وظلت تنتظر ، فلم يحرك جارث يده ، بل قال :
« انى اتق بكاتمة سرى تمام الثقة ، ولا أريد حضورها هى ! » .
فقطبت الممرضة روزمارى الورقة وبدأت تقرأ الورقة التالية :

« أحب أن تذكر يا جارث أن كل كلمة اكتبها ، هى الحقيقة
المجردة من كل تزيين . ولو عدت بفكرك إلى ما تذكره عنى .
فستلم بأننى لست - بطبيعتى - كاذبة . ولست منافقة .
برأوة .. غير أننى كذبت عليك - يا جارث - مرة واحدة ،
وهذا الاستغناء المشنوم يؤكد الالتزام التام للصدق ، وهو
ما كان دائما رائدنا معا . وما أضرع إلى الله أن يبقى بيننا ابد
الدهر . واعترافى الذى أسطره هنا ، خاص بذك الأكذوبة
الوحيدة .. ولا حاجة بى لأن أسالك أن تقر ما فى اضطرابى
إلى أن أغضب رجلا رفض أن يتقبلنى صديقة زائرة ، على أن
يسمع اعترافى . من إذلال لكبرىائى . ولا بد أنك تذكر أننى
لست ذليلة بطبيعتى ، وأننى على قدر كبير من الكبرياء الحق
.. ولعلك تستطيع أن تتخذ من ضخامة الجهد الذى أبذله
بقياسا لتعرف مدى حبى . فليساعدك الله فى هذا يا عزيزى
.. يا حبيبى .. يا فتاى الوخيد المسكين ! » .

وتوقفت الممرضة روزمارى عن القراءة فجأة ، إذ أن جارث
نهض من مكانه - لدى هذا الفكر المباحث للحب ، وليسدى
سماعه كلمات جين العاطفية : غير المرتفعة .. وأخطأ خطوتين

نحو النافذة وكأنه يريد الفرار من شيء أضخم من أن يقوى على مواجهته . ولكنه هناك نفسه - بعد لحظة - وعاد إلى مقعده ، وغطى وجهه بيديه . ومضت الممرضة روزمارى فى تلاوة الخطاب :

« آواه .. يا للخطأ الجسيم الذى ارتكبته بالنسبة لك ولنفسى معا ! .. هل تذكر تلك اللمسية التى التقينا فيها ، فى شرقة قصر (شيسنسون) يا عزيزى ، وساللتنى « أن أكون ، بل دعوتنى .. فكنت .. زوجتك ؟ » .. ها أنذى يا جارث أستبقى هذه العبارة الأخيرة كما هى ، بما حوته من محاولتين نحو بلوغ الصديق .. لن أحذفها أو أعدلها ، بل أتركهما ليقرأ عليك .. لأننى - كما ترى يا جارث .. قد وصلت إلى ما أهدف إليه .. لقد كنت زوجتك ، ولم أدرك هذه الحقيقة وقتئذ ، إذ أن المفاجأة كانت شديدة ، وكنت جاهلة - إلى درجة لا تصدق - بالمسائل العاطفية .. فإذهلنى فيض المشاعر الذى جرفنى « وأوشك أن يحتمىنى . ومع ذلك ، فقد أدركت - إذ ذاك - أن روحى قد هبت ونادت بك البقا وسيدا . وعندما ضمهتنى ، واستندت رأسك المحبوب فوق قلبى « عرفت - لأول مرة - معنى النقشوة والافتتان .. وما كنت لأسأل السماء نعمة أكرم من أن تطول تلك اللحظات إلى ساعات ! » .

وتهدج فجأة صوت الممرضة روزمارى الهادى « فتوقفت عن القراءة . وكان جارث يميل إلى الأمام « ورأسه دفين فى راحتيه « وقد انبعثت من خلفه شهقة خفيفة ، فى ذات اللحظة التى تداعى فيها صوت الممرضة روزمارى .. على أن جارث

كان الأسبق إلى استرداد جأشه . فبسط يده عبر المنضدة ، فى عطف وحسان ، وهتف دون أن يرفع رأسه : « يالك من مسكينة ! انى شديد الأسف ، فالامر أتسى من أن تحطليه . ليت الخطاب قد وصل فى وجود براند هسا . وإن أسفى ليشند إذ اضطر إلى أن اطلب منك الاستمرار فى القراءة .. ولكن « حاولى أن تقرئى الكلمات دون استيعاب معانيها ، ودعى هذا لى ! » . فعادت الممرضة روزمارى القراءة :

عندما رفعت رأسك فى ضياء القبر وصوبت نظراتك - بشوق ولهفة - إلى . آواه ! يا لقلبك المينين ! .. لقد جعلتنى نظراتك افطن إلى نفسى فجأة . فاجتاحنى إدراك لما أنا عليه من بساطة بالغة فى الملامح ، ولدى ضالكة ما كانت تنطلق إليه تلكها العينان المميزتان .. لم يكن فى وجهى ما يستحق النظرات الالهة ! واجتاحنى الحياء ، فضممت رأسك ثانية إلى حيث تحتجب عنك . وانى لأبين الآن ذلك الناويل الذى أولت به هذه الحركة .. انى أؤكد لك - يا جارث - بأن المرة الأولى التى فطن فيها عقلى إلى أن هذا الامر العجيب - الذى كان يجرى - إنما يعنى « الزواج » ، وهى فى اللحظة التى رفعت فيها رأسك للمرة الثانية ، وقلت : « يا زوجتى ! » . وانى لأعرف أن قولى يكاد يبدو بعيدا عن أن يقبله العقل ، بل واجد بان يصدر من فتاة فى الثامنة عشرة ، وليس من امرأة فى الثلاثين . ولكن عليك أن تذكر أن كل علاقاتى مع الرجال - حتى الساعة - لم تتمتع النحية . وعز اليدين ، والزيمالة الخالصة القلبية ، أو ضربة على الكتف من حين إلى حين .

آخر .. ولا نفس - يا أعز ملك لقلبي - أنك ، إلى ما قبل ذلك الحدث بأسبوع واحد ، كنت من الشبان الذين يطلقون على : « جين العجوز الطيبة » ، وكنت تهاديني في أحاديثنا الخاصة بيا « سديقتي العزيزة » .. كما لا تنس أنني كنت أنظر إليك دائما على أنك تصفرتي بعدة سنوات . ومع أن رابطة عجيبة عذبة ، نمت بيننا - منذ ليلة الحفلة الموسيقية في (أوفردين) - إلا أنه لم يخطر ببالي لحظة : أن هذه الرابطة .. حب ! وإنك لتذكر كيف سألتك مهلة لاثنتي عشرة ساعة ، لتأخير الرد . وقد رضخت أنت لهذه الرغبة فوراً - وما كان أنبل موقفك في هذا الأمر يا جارت ! - ثم تركتني حين طلبت منك أن تتركني وحيدة .. غادرتني بحركة لم أنسا قط - فقد كشفت عن الطريقة التي يسوق فيها حب الرجل بالمرأة التي يلصق عليها .. لقد أصبح ذيل الثوب - الذي كنت ارتديه - مقدسا عندي منذ الحين . واني لأخذه معي أينما ذهبت ، ولكني لا ارتديه قط . واني لأمل أن أروى لك يوما دقائق ما جرى في الساعات التي أعقبت ذلك - يا حبيبى - فليست أقوى على كتابتها .

ودعني أسكب على الورق ، الواقع الشمس الذي فرق بيننا ، بكل قبحه وبشاعته ، والذي أحال هنامنا المشرق إلى أمسى وخيبة أمل .. أفنى لم أكن أعتقد - يا جارت - بأن حبك يقوى على محنة خلوى من الجمال .. كنت أعلم جيدا ما فطرت عليه من عبادة للجمال ، وكيف كنت تسعى دائما لأن تكون محوطة به في كل أشكاله .. ولقد تصفحت مذكرتي اليومية ، حيث

سجلت حرما بحرف حديثا دار بينك وبينى عن النفس البسدى اشرق وجهه بهاء ، بفضل الجلال القدسى الذى كان يفسر نفسه . وكنت قد عقيت على القصة ، بأنك لم تعد تراه قبيح الشكل ، ولكنه سيظل دائما ذا وجه بسيط ، خلو من الجمال .. وثلث أنه لم يكن من الوجوه التي يرغب الإنسان في أن يراها أمامه دائما على مائدة الطعام ، وأنه لم يكن مفروشا عليك أن تحتمل امرا كهذا - هو - بالنسبة إليك - ضرب من الاستسهال !

« لقد اهتمت بتلك القصة عندما قصصتها على ، وعجبت لك وأنت تشرحها ببساطة - دون أن تظن - لامرأة هي أشد معارفك من النساء ببساطة في الوجه والملامح . ولذلك سجدتها تفصيلا في مذكراتي اليومية .. وبما حسرتاه ! فلقد تصفحتها في تلك الليلة الخطيرة ، وقرأت الكلمات التي جسامت على لسانك كلمة فكلية ، مرات عديدة ، حتى انطبعت على صفحة فكرى « بصورة قاسية . وعند ذاك ، استيقظت في أعماقى غريزة الشعور بالنفس . وهى الغريزة التي تتيقظ في المرأة حين تعلم انها محبوبة ومرغوبة . فاضأت جميع الأنوار المحيطة ببرأة الزينة ، واخذت أفحص - بدقة ونقد - قسمت الوجه الذى ستضطر إلى أن تراه أمامك كل يوم ، خلف قدرج القهوة على مائدة الإفطار ، لسنتين طويلة - إذا أنا أجبك في الصباح التالى بالقبول ..

« يا حبيبى ، أفنى لم أتخلر إلى نفسى - إذ ذاك - بمعينك ، كما أصبحت أفعل ، والله الحمد .. لذلك لم أطمئن إلى أن حبك

سيصمد للتجربة ، ولاح لي اننى - إذا تفرغت بالشجاعة ،
وغضضت النظر عن السعادة الحاضرة ، تفاديا لتعاسة
مؤكدة - فسانفك وأنقذ نفسى من خيبة الأمل والشقاء فى
المستقبل . وقد ترى - يا حبيبى - فى هذا تفكيراً ممتعاً .
مبيناً ، لا يتكافأ مع الحب العظيم الذى كنت تفدقه على . ولكن
تذكر أن جمالك الباهر ، وبهاك الشخصى ، ظل سنوات ينبوع
«سرة» لى . فكنت أتصورك وأنت تزف إلى « يولين ليستو »
- مثلاً - فى بياضها الناصع وشبابها الناعم المتللق . ومن
ثم ، فإن ضميرى القاسى هتف بى : « عجباً ! .. أربط هذا
الشباب الشبيه بأبولو ، إلى خلقتى المجردة من الجمال ، فيزداد
حسناً عاماً بعد عام ، بينما أزداد كبراً وقبحاً ! .. اواه !
ايها العزيز .. إنه لمنطق يبدو الآن تافهاً ، بعد أن أدركنـا
عمق حبنا .. ولكن هذا المنطق كان ذا رنين سليم منبجج فى
تلك الليلة .. وأخيراً ، استقر رأيى على الرفض ، وقلبى
يتمزق ! وذراعائى تنضجان بالألم لحرمانهما من كل هذا
الهناء .

« اواه ! الا صدقنى اذ أقول إنه لم تكن لدى فكرة عما كان
يعنى هذا القرار لك ، بل خيل لى بأنك ستسارع بتوجيهه
رغبتك فوراً إلى هدف آخر ، فتحول حبك إلى أخرى أقبح
على أن تشجع حاجتك من كل النواحي . وقسماً - يا جارث -
إننى ظننت ، حين اتخذت قرارى ، أننى الوحيدة التى ستتروى
للوحشة والحرمان ! .. ثم تعرضت لمسألة أخرى : أى سبب

أضلل به للرفض ؟ .. كنت أعرف بأنك ستجادلنى - إذا ذكرت
لك السبب الحقيقى - حتى تثبت خطئى بملكائك المسبولة
البراقة ، التى ما كنت أملك أمامها إلا الرضوخ .. فى حين اننى
كنت قد عقدت العزم على ألا أتركك تجسازف فى هذا
المسبيل « وعلى ألا أجازف أنا الأخرى . ومن ثم رأيت أن
أكتب عليك يا حبيبى .. عليك أنت يا من توجتلك ملكاً على
قلبى ، وسيداً على إرادتى « ورفعتك عالياً فى الحب وفى الحياة
.. فقلت لك إننى لا أستطيع أن أتزوج من « مجرد غلام » ..
اواه ، يا حبيبى ! لست أنتحل لنفسى عفواً .. ولست أذامع
عن نفسى ، وإنما أنا أعترف فحسب ، واضعة كل ثقتى فى
كرمك ، لتقضى على أنه لم يكن ثمة جواب آخر لبردك عن
رغبتك .. اواه ! وهكذا بقيت حبيبتك المسكينة جين وحيدة
كئيباً ! ليكن رايها فى الكنيسة الصغيرة ، وهى تنادىك فى أوعية ،
وقد تراجعت عن قرارها ، وراحت تقطع على نفسها الوعود ،
وترهف السمع عسى أن تلتقط خطواتك عائداً إليها . وقد
أضناها الحزين ! .. ولكن حبيبى جارث لم يخلق من طينة
الرجال الذين يقفون عند عتبة الباب فى انتظار امرأة مترددة !

« ولقد حملت أعمامى أولى سنوات الوحدة ، حتى أنذرتنى
دريك باتمنى كوشك أن أتهار ، وأمرنى بالسفر إلى الخارج .
قد سافرت - كما تعلم - ولقيت فى الأوساط القوية الحياة
التي احاطت بى - اينما ذهبت - ما صحح نظرى إلى الحياة .

« وفى مصر - فى شهر مارس الماضى - على قمة الهرم
الأكبر « استقر رأيى على اننى لم

بدونك ولم أر أنني كنت على خطأ ، ولكنني صبحت إلى حبك ، وإلى أن أقرنه بحبي - يا حبيبي - ومن ثم وطلبت النفس على أن أقدم على المجازفة ، وديرت امرئ بحيث استغل الباخرة التالية ، عائدة إلى الوطن « فاكذب إليك واستدعيك . ثم .. أواه ، يا فتى ! .. ثم ، سمعت النبا ! .. وكتبت إليك ، ولكنك لم تسمح لي بأن أزورك .

» وبعد ، فانا اعلم تماما أنك ستقول : « إنها لم تظمن إلى وأنا مبصر ، اما وقد حرمت من الابصار ، فلم يعد لها ما نخشاه ! » .. قد تقول ذلك يا جارت ، ولكن ليس في ذلك شيء من الصواب .. لقد توفرت لدى في المدة الأخيرة كل الدلائل التي تثبت أنني كنت مخطئة ، وأنه كان من الواجب ان اتق بك ثقة كاملة .. اما تلك الدلائل ، فساظلمك عليها فيما بعد .. وكل ما يمكنني قوله الآن ، هو أنه لو قدر لعينيك الحبيبتين البرافنتين أن تبصرا ، لأبصرنا الآن امرأة هي مملك يمينك وكلها ثقة وبقين فيك . وإذا ساورتها الهواجس بشأن وجهها أو جسمها ، فسوف تقول ببساطة : « لقد أعجب بهما من قبل ، وهما الآن ملك له . فليس من حقى أن انتقدهما .. وإذا كان يريد هما فانهما ليسا ملكي ، وانما هما ملك له وحده ! » .. أيها الحبيب ، لا ينبغي أن أخبرك الآن كيف امكنني الوصول إلى هذا الرأي القاطع ، بل يكفي أن أفكر لك انني ايقنت - بما توفرت لدى من أدلة تفوق كل كلام - من صدق وقائك وحبك .

» ومن ثم تتطور المسألة في : هل تغفر لي ؟ .. إذا استطعت

أن تغفر ، فساخضر إليك فوراً .. اما إذا كان الأمر قد تجاوز الصنع ، فلا بد لي من أن أقرر أن أعيش حياتي في الخارج . ولكن ، أواه يا حبيبي الأوحى ! .. إن الصدر الذي وسدته رأسك يوماً « يرتبك في شوق مضن » زادته سنوات الوحدة استعاراً . فاذا كنت في حاجة إليه ، فلا تصدده عنك !

» اكتب لي كلمة واحدة بخط يدك : « صفحت » . هذا كل ما أطلبه . فاذا بلغتني - فسأتيك فوراً . لا تمل خطاباً على كاتبة ترك ، فليست أطيق ذلك ، وإنما اكتب - إذا شئت حقاً - كلمة : « صفحت » وابعث بها إلى : زوجتك .

وساد الحجره يكون رهيب ، بعد أن فرغت الممرضه روزمارى من نلاوة الخطاب ، ثم وضعته على المنضدة ، وانتظرت في صمت ، وهي تفكر في نفسها ، اتسعى .. دون أن ترعجه - لتحضر نفسها قدحاً من الماء ؟ .. ولكنها قررت أن تنتظر بدون الماء .. وأخيراً رفع « جارت » رأسه ، وقال جارت وقد أضاعت وجهه ابتسامة خفيفة : « إنها تسألني أن أعمل مستحلاً ! » - فضغطت جبين صدرها بيديها ، وما ، وقالت بصوت متهدج : « ألا يمكنك أن تكتب كلمة : صفحت ! » .

وأجاب جارت : « كلا .. لا يمكنى .. أعطنى ورقة وقلماً يا صغيتى ! » - فأسرعت الممرضه روزمارى بوضعها بجوار يده . وأمسك جارت بالقلم ، وتلميذ بيديه الورقة فتتحقق من حدودها ، ووضعها بيده اليسرى « ثم هدته واستطاعها

بأصابعه ، وكتب كلمة واحدة بحروف كبيرة ثابتة .. ودفع الورقة إلى الممرضة روزمارى سائلا : « هل هذا الخط مقروء ؟ » . فأجابته قائلة : « مقروء تماما ! » .. وقد نظمت بالكلمتين قبل أن تلمس دموعها الكلمة المكتوبة .. فان « جارث » كتب كلمة « متبوبة » ، بدلا من « صفحت » !

وسألها جاورث بصوت خافت مخلوف : أيمكنك إرسالها بالبريد بأسرع وسيلة ؟ .. اترينها سقائي ؟ أو اه يا الهى ! .. ستأتى .. إذا امكن إرسال الخطاب ببريد الليلة ، فقد تحضر إلى هنا بعد ياكرا ! .. فتناولت الممرضة روزمارى الورقة . وبعد ان بذلت جهدا جبارا لتحكم في أعصابها ، قالت : « يا سيد دالمين .. هناك نائيرة ملحنة بالخطاب تقول : اكتب إلى فندق بالاس بأبردين » . فقفز جارث واقفا ، وقد دبت في وجهه وكيانه روح متحمسة جديدة . وصاح : « في أبردين ؟ .. جين في أبردين ؟ .. أو اه يا الهى ! .. إذا تسلمت هذه الورقة صباح ياكرا » فقد تصل إلى هنا في أية ساعة من النهار . جين .. جين ! .. أيتها العزيزة الصغيرة روزمارى ، هل تسمعين ؟ .. ان جين ستحضر ياكرا .. هل تفكرين ما قصصته عليك من أنها لطمت البيضاء بقفازها ؟ .. هل تعتقدين بانها تميل إلى لطم سمسون بقفازها ؟ .. إنهم يحبونها دائما ، هؤلاء القوم ! .. اما قلت لك بأن شسيئا ما سيحدث .. انت وسمسون كنتما - بطبيعتكما - إنجليزين ، ولا يمكنكما فهم ذلك . أما ماجرى فقد فهمت ، وقد أجبائنا الغاية بأن هناك فرحا قادمًا من خلال الالام ! .. والآن هل يمكنك أن تبعثي بهذا الخطاب حالا يا أنسة جراى ؟



وكتب كلمة واحدة بحروف كبيرة ثابتة ..

الفصل الخامس والثلاثون

نالت الممرضة روزمارى ذلك فى إلحاح صبور : ارجو كل الرجاء - يا سيد دالين - أن تجلس وترى أنتباهك فى مائدة الشاى .. فكيف سيتسنى لك أن تذكر مكان كل شئ .. إذا ظلمت تغفّر وتحرك مقعدك فى مختلف الأوضاع ؟ .. لقد ظلمت تدق المنضدة بقضبتك - فى المرة السالفة - لتجذب انتباهي - وقد كان موجها إليك فى قلق - وكنت تقلب قدحك بما فيه .. كما أنك أرقنت كثيرا مما كان فى قصصى فى الحلق .. وما لم تحسن التصرف ، فسأطلب إلى مارجرى أن تأتيك بمرولة ، وتجلسك على مقعد عال كالأطفال ! .. فبعد جارت قدميه أمامه ، وشبك ذراعيه خلف رأسه - وسنّاهيا فى مقعده - وأخذ يضحك فى مزح ، ثم قال : « وإذ ذلك أبكى مستعظما : » أرجوك يا مربيتي .. هل تسمحين لى بالنزول عن المقعد ؟ .. يالك من صغيرة متبردة ! .. لقد كنت من قبل مؤدبة إلى درجة التزمت .. هل تعرفين قصة : « يجب أن تلتو صلاتك يا فوسى » ؟ .. ناجابت الممرضة روزمارى فى ضجر : « لقد سمعتها منك مرتين فى الثمانى والأربعين ساعة الأخيرة .. » وإذ ذاك هتب جارت : « يا للخسارة ! .. وددت أن أقصها عليك .. ولو أنك كنت حقا سمحة الخلق - مثل السير دريك - لقلت : لا ، وكم أحب أن أسمعا ! .. »

فقالت الممرضة روزمارى : « لا ، وكم أحب أن أسمعا ! .. »
- لقد غانت الفرصة ، فقيمة مثل هذا الرد فى أن يقال نوا

وعاوده ابتهاجه بأول أيام مايو .. وسطح وجهه بنور ياهر .. « وتكهرب » جسمه بلهفة الانتظار ، وجلست الممرضة روزمارى إلى المنضدة تراقبه . وقد أسندت فخذيها إلى يديها . واشترقت على شفتيها ابتسامة رفيقة ، غمرت كل وجهها وكيانها بنور الارتقاب المظفر ، لحب تاضج كامل . ثم قالت : « سآذهب بنفسى إلى مكتب البريد لأبعث بالرسالة يا سيد دالين .. » ولسوف أغتبط بهذه النزهة : واعدود فى ميعاد تتساول الشاى ! .. »

ولما بلغت مكتب البريد لم تبعث بالخطاب المكتوب بخط « جارت » ، وإنما خبأته فى صدرها .. ثم بعثت ببرقيتين . وكانت الأولى إلى الفوقه ميلدرم ، بقندق بالاس ، بابردين : « تعالى إلى هنا بقطار الخامسة والدقيقة الخمسين مساء الليلة ، دون إرجاء .. » أما الثانية « فكانت إلى السير دريك براند . شارع ويمبول بلندن : « كل شئ على ما يرام » .

.. وقد لا يكون حقيقيا ، ولكنه يجب أن يقال في التو . وبهذه المناسبة ، أراني أذكر : « اواه ، يا شعري المستعار ! » .
 اتفهمن .. هذا هو التعبير الذي اعتادت الدوقة أن تردده إذا راقبت لها مكالمة .. وعندما تقول : « يا شعري المستعار » ، يجب علينا ألا ننظر إلى شعرها - فكثيرا ما يكون منكوشا لأن طائرها « التوكان » يجذبها بمناقاره بين حين وآخر .. كم هو طائر جميل ! » .

فقال له المرأة روزماري : « الآن ، ناولني الخبز المقدد والزبد ، وكذلك هزلا عن الدوقة .. كلا ، هذا الخبز مكسو بزبد خفيف . قلت لك بانك تكاد تفقد اتزانك ! الخبز المقدد موجود في طبق دافئ إلى يمينك .. والآن ، هب أنني أذا الأتسة شامبيون ، وناولني الخبز بكل لباقة ورقة ، وكذلك تناولها إياه في مثل هذه الساعة من غد ! » فقال جارت : « من السهل أن تتصور أنك « جين » مادام لك هذا الصوت .. ومع ذلك ، و .. لست أدري ، فالحق أنني لم أحاول الجمع بينكما في فكري . فإن جملة واحدة من الكهل « روب » جعلتني أباعد بينكما ، إذ قال لي إن شعرك هني متهدل وحريري ناعم ، في حين أن جين لم تكن كذلك . واعتقد أن هذه الجملة هي التي أنقذت الموقف ، وإلا فإن صوتك كاد يدفعني إلى الجنون في الأيام الأولى من وصولك إلى هنا ، وكثيرا ما وددت إبعاد صوتك عني . وما انتدني قد فهمت السبب لذلك . ومع كل ، فإن صوتك يختلف عن صوتها بشكل ما . إن صوتها أكثر عمقا ، وهي تتكلم عادة بشيء من التراخي

المحبب إلى النفس . وكثيرا ما تستعين بالكلمات الدارجة »
 أما أنت فعلى جانب عظيم من دقة التعبير ، ولك إلمام واسع بها يدعى .. « العبارة الصحيحة الكاملة » .. ما أعترف أن اسمك وجين تتكلمان معا . ومع كل ، قد .. لست أدري .
 انني أنتظر هذه الفرصة في قلق ! » . فسألته : « ولماذا ؟ » .

— أوجس خيفة من أن ألا تميل إحداكما إلى الأخرى ..
 أنك أصبحت .. في الواقع ، ومن ناحية معينة — أقرب إلى من أي شخص في الدنيا . أما هي ، فأنها دنياي . ولهذا أخشى ألا تدرك قيمتك على الوجه الأكمل ، أو ألا تفهميها أنت حق الفهم . فإن لها طريقة فريدة في نوعها ، حين تقف وترى الشخص من أملاه إلى أسفله .. وأكثر النساء لا يرضين عن ذلك « لا سيما الفتيات الجيلات المراهقات ، إذ يشعرن أنها تحصى عليهن ما يصدر منهن !

وهنا غمغمت المرأة روزماري قائلة : « أما أنا فلا يصدر مني شيء ما ، اللهم إلا إذا أبى مريض أن يستقر في مقعده » .
 بينما استأنف جارت حديثه بتلك الرنة المبتهجة التي تشوب صوته كلما سرد حديثا به ذكر لجين : « حدث مرة أن كانت في ضيافة قصر (أوفردين) سيدة على جانب كبير من السخانة والتفاهة . وكنا حينذاك جميعا في (أوفردين) . ولم تكن ندرك ما يفرض الدوقة العزيزة بدعوتهنا إلى حفلاتها المبهجة ، اللهم إلا شغفها بكشف أخطاء تلك السيدة وتقليدها . وما كنا لنناكذ من دقة التقليد ، لولا أننا رأينا الأصل ! .. وكانت السيدة على شيء من الحسن ، ذات شعر خفيف يجمع في لفات كشعر

الدمى المصنوعة من الشمع . وكان من عاداتها ألا تحضر كفراد عادي ، وألا تسمح للحاضرين بقض الطرف عنها . بل كان دأبها أن تحاول اجتذاب الأنظار ، في كل جملة من حديثها . ولما ضيقنا ذرعاً بها ، طلبنا إلى « جين » أن نسكتها ، ولكن جين كانت تقول لنا : « إنها لا تلحق بكم أذى يا أولاد : وإن مسكها ليروق لها . فدعوها وشأنها ! » . إذ أن من مزايها جين أنها مفرطة اللطف مع الناس الذين تلمس تأمراً بهم . يسكنونها بمبت فكاهة للدوقة ، فيما بعد . وكانت جين تمقت مثل هذه الأعمال ، ولكنها لم تكن تملك أن تجادل عمتها في الأمر . ومع ذلك ، فقد كنا نلزم جانب الحذر في تحريضنا للدوقة « إذا كان الحديث على مسامح من جين !

وفي إحدى الأمسيات ، اجتمع فريق منا - بمسند تداول النشأى - حول المدفأة ، في البهو لتحدث مع جين - وكان ذلك في أيام عيد الميلاد - والنار عالية الأوار في المدفأة . وقد اسدلت الستائر الحمراء حتى حجب باب الشرقة ونواذرها من الجهتين . وكان « تومي » كما دته جالساً على أرجوحته وسط الجماعة ، يثلث بالحلقة في رمد المسجائر . وفي انخارج كان الطلج قد كسا كل شيء ، وساد الكون سكون بديع ، بما زاد من بهجة الحديث والضحك ، في الداخل . إنك تعرفين ذلك الصمت النفاذ ، عندما تكتسى الأشجار والحقول والطرقات بقدم من الثلج الناصع اللامع . . . وكان بلذ لي أن أطلع إلى الشتاء لأحظى بشهد أول هذه المناظر . . . وها أنذا لن بقدر لي أن أرى الطلج مرة أخرى ! . . لا بأس !

فإن في ذلك حافزاً لأن أذكر أشياء كنت أراها من قبل . كما أنني أستطيع الآن أن اسمع سكون الطلج في وضوح أشد من ذي قبل .

« والآن ، ماذا كنت أقول لك ؟ نعم ، كنت أذكر تلك السيدة المحبة للمظاهر . . . حيث أن صعدت كل السيدات إلى حجراتهن لارتداء ملابس السهرة ، عدا جين ، إذ أنها لم تكن في حاجة لأكثر من نصف ساعة لذلك . فلما رأنا تلك السيدة متجمعين في البهو ، خيل لها الفرور أننا ما نجتمعنا إلا من أجلها ، في حين أننا كنا ننتظر قرصة مواتية ، لنروى لجين أخباراً خاصة عن شاب في الحرس - يدعى « بيللي » - قبض عليه لإحداثة بعض الشغب . . . وكان رئيسه الكولونيل صديقاً حميماً لجين ، فرأينا أنها قد تتوسط له لدى الكولونيل . وهكذا كانت السيدة بعيدة عن بالنا ، وإن لم تدر . أما جين فكانت تجلس مولىة ظهرها إلينا جميعاً ، وقدمها مسندة إلى حاجز المدفأة ، وثوبها منحصر على ركبتها . . . وكان تحت ذلك الثوب ثوب آخر من الحرير الثمين ، له طبقات من الثنيات الدقيقة ، خيل إلينا بأنه يصلح رداء خارجياً ، لجسالة . غير أن طبيعة جين لم تكن تحب إليها إبراز أئمن ما لديها !

« وكانت السيدة المحبة للمظاهر « تترقر في تلك الأثناء - وقد غاب عن بالها أننا كنا في ضجر من حديثها - بينما انصرفت جين إلى قراءة صحيفة المساء . بيد أنها شعرت بأن جو البهو أمسى متوتراً ، فقد أخذ ضيقنا يشتد مما كانت ترويه السيدة المغرورة عن إعجاب الرجال بها . وأزاد

تدمرنا دتململنا ونحن نرجو أن تبادر جين إلى إقناذا من هذه المحنة .. حتى « تومي » - فوق أرجوحته - بدا محققا ، بلولا .. وأخذ يرفع مظهره إلى منقاره ويبيده ، مصطفا في السيدة بغيظ .. وأخيرا ، انتفض غرصة حديثها عن معجب من أبطال التجديف في النهر ، فصاح : « ليرسلها إليه أحدكم ! » .. ولم تفمالك أنفسنا ، فانطلق ضحكنا جميعا في مقهمة غالبة ، وهرج صاحب .. حتى « جين » ، أخفت وجهها في صحنيتها وأخذت تهتز لشدة الضحك . وذهبت كل سجانرنا إلى البغناء مكافاة له إذ خلصنا من السيدة المغرورة .

« وقد كان لدينا وقت كاف للتفريع .. أما جين فقد سارعت لإعداد الخطاب الذي طلبناه منها لمساعدة « ييللى » ، لترسله في بريد المساء . ومع ذلك فقد وافقتنا في ميعاد العشاء صباحا ، وهى في ثياب السهرة اشد رواء من غيرها اللائى قضين الساعات في استكمال زينتونهن .. ما كان أبدع تدخل « تومي » ! بيد أن جين طلبت منا ألا نقص ما حدث على الدوقة ، فرحنا لتتملئ من هذا الحرمان القاسى ، لأن كلا منا كان يتمنى أن يسبق الباقيين في رواية القصة للدوقة .. ولكن المرء لا يملك إلا أن يصدق بما تأمر به جين ! » .

وهنا تساءلت الممرضة روزمارى : « ولماذا ؟ » . فقال : « آه ، لمست أدرى ، ولا يسمنى أن أشرح السبب . فلو أنك كنت تعرفينها لما كنت فى حاجة إلى التساؤل .. هل لك فى كعكة يا آنسة جراى ! » . فأجابته : « شكرا .. سأخذ

شيئا منها هذه المرة » . وإذ ذاك ، هتف : « هكذا .. ان هذا التعبير يطابق ما كانت جين تعبر به .. » سأخذ شيئا منها هذه المرة » .. اليس عجيبا أن أظل - بعد أن مرت علينا هذه الأسابيع - أثبتته فى صوتك وصوتها .. وبأكثر سافكر فى الشبه العجيب بين صوتها وصوتك ! » .

وأجابته الممرضة روزمارى : « كلا لن يحدث هذا .. فلن تشغل افكارك بغيرها عندما تكون معك » « فصاح جيمارث : « صحيح ، ولكنى مشغول بك ، فليسوف أفتقدك كثيرا يا عزيزتى روزمارى الصغيرة ، إذ لن يقتضى لفرك - ولا لها هى - أن يسد فراغك .. ولكن هل تعلمين ؟ » .. وأنحنى إلى الأمام وقد غامت على وجهه محابة من التلق اخفت البهجة التى كانت تنفجر منه ، واستطرد قائلا : « لقد بدأت أشعر بانفعال وقلق من جراء هذا الأمر .. انها لم ترنى منذ وقع لى الحادث ، وكم أحس بالرهبة مما قد يحدثه منظرى من صدمة لها .. هل تعتقددين أنها ستلتمس تغييرا كبيرا فى شكلها ؟ » .

ونظرت جين إلى الوجه الفاقد الابصار ، الذى اتجه نحوه فى قلق « فارتد فكرها إلى ذلك الصباح الذى دخلت فيه فرقة المريض لأول مرة ، وقد ظن ان ليس بالفرفة سوى الدكتور روب ، فاعتدل فى جلسته ، بعد أن كان موليا وجهه شطر الحائط ليخفيه عن الانظار .. وذكرت كيف رأت وجهه لأول مرة ، وكيف أدارت وجهها نحو المدفأة حتى لا يلمح الدكتور روب الدموع التى انهمرت على وجهها .. عاودت

انتظر حضورها - فلمست احتمل ان أتركك ترحطين .. ان وجودها معي سيكون السعادة العظمى التي تمنحها الكلمات عن ومنها ، ولكن هذا يختلف عن وجودك هنا معي ! » .

وبذلك حصلت الممرضة روزماري على المكافأة التي كانت جديرة بها ، ولاح انها وجدتتها مثيرة لمواظفها . وما ان تبالكت نفسها ، حتى قالت له بكل لطف : « لا تزعج نفسك بالأمر يا سيد دالمون .. صدقني فيما أقول من انك لن تلبث ان تثبين - قبل ان تنقضي خمس دقائق على وجودها بجوارك - انها ستكون كما كنت انا معك .. ومن ادراك انها لم تذهب مثلى إلى عالم العميان . ان الممرضة قد تمارس ذلك بدافع من شغفها بمهنتها .. أما المرأة التي تحبك ، فانها تمارسه لأنها تحبك ! » . فاجابها جارت : « إنها اهل هذا ! » . ثم اضطلع في مقعده ، وقد كست وجهه امارات الرضى القام ، وهتف : « اواه يا جين ، يا جين ! .. انها قادمة ! .. انها قادمة ! » .

والقت الممرضة روزماري نظرة على الساعة .. ورددت عبارته : « أجل انها قادمة ! » . ومع أن صوتها كان ثابتا ، فان يديها كانتا ترتعشان . ورددت قائلة : « ولما كانت هذه آخر أمسية متقضيتها معا ، فهل تقبل اقتراحا مني ؟ .. أريد ان اصعد الآن إلى حجرتي . لأبدا في إعداد حقيبتني . وأقوم ببعض إجراءات أخرى . فهل لك ان ترتدي ثياب السهرة مبكرا ؟ .. وسأحذو حذوك . وإذا امكنك الاستعداد في الساعة السادسة والنصف ، فقد تنضم لنا الفرجة المنزف شيئا من الموسيقى قبل العشاء ! » . فاجابها جارت :

النظر إلى « جارت » فتبدى لها جليا - لأول مرة - مبلغ المشويه الذي أحاق به .. وعند ذلك ، بحثان دافق يجتاح فؤادها . وتطلعت إلى الساعة ، ثم شعرت انها لن تقوى على الصمود طويلا ! .

وبالها جارت بصوت متهدج : « هل هو قبيح جدا ؟ » . فاجابت الممرضة روزماري : « لست أملك أن أجيب عن امرأة أخرى ، ولكنني أعتمد بأن وجهك .. كما هو الآن - سيكون مصدر غبطة دائمة لها ! » . فتوردت وجنتا « جارت » ، وبدا عليه السرور والانشراح ، مع قليل من الدهشة .. فقد استبان في صوت الممرضة روزماري رنة لم يستطلع ان يدرى ماها ولا كنهها . وما لبث ان قال : « ولكن لا تنسى انها لن تكون مدربة على عادات الأعمى ، وأخشى أن أبدو عاجزا بتخيلا ، فهي لم تذهب إلى عالم العميان - كما هو الحال معك ومعى - وهي لا تدري شيئا عن التقابير التي ابتكرناها بالشرطة والعلامات وغيرها .. اواه يا صديقتي روزماري . عديني بالأا تتركيني باكرا ! .. اني أريدها ، والله وحده يعلم عظيم شوقى إليها .. غير اننى قد بدأت اشعر بشيء من الخوف من جراء ذلك .. سيكون وجودها معي نعمة رائعة ، لما تشبعه من رغبات عظمى . اما حاجاتي اليومية البسيطة : لننى يجعل لها الظلام قيمة ، فكم احتاج إليك من أجلها با دليلنى الرقيقة التي لا أبصرها .. كيف أقوى على الحياة بدونك ؟ لقد خيل إلى .. في بداية الأمر - ان من حسن الحظ أنك دبرت أمرك للرحيل عند حضورها هي . اما الآن - واذا

« فكرة حنة ! .. ساعمل برايك فليس يهمنى اى وقت ارتدى ملابسى .. كما اننى ارحب بكل فرصة تتيح لى عزف الموسيقى .. ولكن اسمعى ! كم اود لو انك لا تبدئين إعداد حقائبك يا آنسة جراى ! » فقالت : « لست أعزم إعداد حقيبتي بالمعنى الكامل ، ولكنى سأجمع بعض الأشياء المتناثرة ! » .

— يتساوى الأمر عندى ، مادام لا يعنى سفرك .. وافكرى انك وعدتني بانك لن تذهبي قبل حضورها !
— لن اذهب قبل حضورها .

— وستظلمينها على كل شؤونى ، وكل ما لا بد لها من معرفته .

— ستعلم بكل ما اعرفه ، مما سيضعاف من راحتك .

— ثم انك لن تتركينى حتى اشعر تماما بالراحة فى كل شئ .

— لن اتركك مادمت فى حاجة إلى ..

وعاد جارث إلى التفكير العميق فى طبيعة صوتها ، ثم نهض وسعى إلى المكان الذى صدر منه صوتها . وكانت واقفة ، فقال لها فى انفعال عاطفى : « هل تعلمين انك نادرة المثال ؟ » . وبسط إليها كلتا يديه « وقال : « ضعى يديك فى يدي ولو مرة يا صديقتى روزمارى .. فكم اود أن أحاول ان اوفيك حقل من الشكر ! » . وسادهما الصمت برهة ، ثم امتدت بداه قويتان .. قويتان ، قديرتان ، وان لم تلبثا ان ارتجفتا وقد أوشتكا ان تتناولوا يديه .. غير أنها سحبتهما فى الوقت المناسب ، قبل ان تلمسا يديه . فان موعد «جين» لم يحن بعد .. وهذه هى ساعة النصر والنجاح للهرضة

روزمارى ، فيجب الا تضيقها عليهما ! .. وقالت لسه فى نومة : « ستصافح الليلة » بعد الموسيقى . اما الآن فأرجوك يا سيدى ان تكون حريصا ، فقد ضللت .. تهمل ! هالك شريط الحديقة على يسارك ، فاذهب واستنشق قليلا من الهواء فى الشرفة .. واعد إنشاد الاغنية العذبة التى سمعتك تغنيها تحت نافذتي فى هذا الصباح .. اما الآن وقد انضج ما سيحدث ، فان هذا المساء الوديع سيفعم قلبك سعادة وغبطة ، استمتعا بترقب سعادة مرموقة . واستودعك الله يا سيدى إلى ساعة فقط .

ما الذى دهم الصغيرة روزمارى ؟ .. دار هذا التساؤل فى رأس جارث وهو يتحسس بحثا عن عصاه فى الركن المجاور للنافذة . وقال لنفسه : « انما لم نعد منسجمين كما كنا قبل ذهابها إلى مكتب البريد ! » .. وسار إلى الشرفة وقد ارتسمت على وجهه موجة من القلق ، ما لبثت ان تبخرت . وجهد واقفا دون حراك ، ثم أغرق فى الضحك قائلا : « يا للغباء ! .. حقا اننى غبى ومغرور .. أنها تفكر فى فتاهها ، فلنوف تذهب إليه باكرا ، ومن ثم غفلتها مليء به ، كما ان عقلى مليء بجين .. يا لروزمارى المزبزة ، الماهرة ، الصغيرة ! انتهى أن يكون جذيرا بها ! .. ولكن لا .. ليس بوسعه ! أمل ان يعرف أنه غير جذير بها . هذا التعبير أدق ! .. وارجو ان يلقاها بما تتوقع .. ومع ذلك ، فانا اكره فكرة ذهابها إليه ! » .

الفصل السادس والثلاثون

كان مسمون يجتاز البهو الكبير - قبيل الساعة السادسة والنصف بدقائق - بعد أن أراح مخدومه في حجرة المكتبة . وإذا به يسمع حفيف ثوب على السلم الخشبي ، فتطلع إلى أعلى ، وإذا بفقاة طويلة القائمة تهبط الدرجات .. وجسد مسمون مبهوتا . وما تآثر بثوب السهرة الحريري الأسود . ذي الأكواف العديدة و « الدانتيل » التي تكسو الصدر . تذر ما تآثر بما لاح على الوجه الهادئ - الذي كان يملو هذا الثوب - من أمارات الاعتداد والسلطان !

وقالت له جين : « مسمون .. أن عمى دوقه بيلدرم . ووصيفتها ووصيفها وقدرًا كبيرًا من الأمتة ، سيبصلون في منتصف الثامنة من هذا المساء ، من (أبردين) . والسيدة جرايم (مارجرى) تعلم كل ما يختص بإعداد الغرف لهم . كما أنني أصدر التعليمات لجيبس كي ينتظرهم في المحطة . لكي يعد للدوق مركبة لأنها لا تحب ركوب السيارات . وعليك أن تقودها إلى حجرة المكتبة لدى وصولها ، وستتناول العشاء في قاعة المائدة في الثامنة والربع ، وحتى ذلك الوقت . فإن السيد دالين وأنا مشغولان في حجرة المكتبة ، ولا نريد أن يزعجنا أحد ، مهما تكن الأسباب .. أتفهم جيدًا ما أقول ؟ » . فقال مسمون متلعثمًا : « نعم يا آنسة .. يا ليدى » . فقد تضى سنوات صباه في قصور الدوقات ، وتعلم أن من الواجب إحناء الراس لبينات أخوة الدوقات ! . ولكن جين ابتسمت

وقالت : « بل آنسة وكفى يا مسمون » . ثم أسرع إلى حجرة المكتبة .

وسمها « جارت » وهي تدخل وتطلق الباب . كما سمع بأذنيه المرهقين خفيف ثوبها ، فقال : « أهلا بالآنسة جرائ . هل حزمت رداء العمل ؟ » . فقالت له جين : « نعم .. فقد أعددت لثمتي ، كما أخبرتك » . ثم سارت في تان وعبرت الحجرة ووقفت فوق بساط المدفأة ، وهي تمنع النظر فيه . إذ كان مرتديا ملابس السهرة كاملة ، مما أعاد إلى ذهنها ليلة سهرة قصر (شينستون) .. وكان جالسا في مقعده الكبير . وقد وضع إحدى ركبتيه فوق الأخرى . ولحقت طسرفا من الجيوب الأحمر الحريري الذي كان يفضل ارتدائه مع ملابس السهرة . وظلت « جين » برهة تتأمله .. لقد أزلت ساعتها أخير .. ولكن الأمر كان يقتضي الحرص والصبر - حتى في هذه اللحظة - مراعاة لمصلحته وخيره . وقالت له : « لم اسمع الانشودة » .

- كلا ، فقد شغلت عن ذلك في البداية .. وعندما تذكرت ، شغل فكري بأمر أخرى . ومع كل ذلك .. آه يا آنسة جرائ ، ليس يوسعى أن أغني الليلة ، فإن الحنين قد أخرج روحى ! وأجابته جين بكل رقة : « اننى أدرك هذا ، فدعنى أغني لك ! » . فارتسمت على وجه جارت دهشة خفيفة ، وقال : « اتفنى ؟ .. إذن ، فلم لم تضى لى قبل اليوم ؟ » . فقالت له جين : « لقد سألنى الدكتور روب - عند وصولي - عما إذا كنت أعزف الموسيقى ، فقلت له : « اننى أعزف قليلا » .

وقد استنتج من ذلك أننى لا أجيد العزف ، ولا الفناء . فأشار على بالا أعزف ولا أغنى ، حتى لا نسوقك إلى الجنون ! » .

فانفجر جارت ضاحكا وهو يقول : « تباه .. هذه أخلاق روى الكهل . ومع ذلك » فهل تنتوين المجازفة الليلة ، بأن تغنى لى قليلا ؟ » . وكان جواب جين : « لن تكون مجازفة .. سأغنى لك الليلة أغنية واحدة . هك الشريط الأصفر على يمينك ، ولا شيء فى طريقك إلى البيانو .. فإذا أردت أن اكف عن متابعة الفناء » فتعال إلى ! » .

ثم خطت نحو البيانو وجلست .. ولحنته - من خذ البيانو - وقد اضطلع في مقعده ، ولاحت على شفتيه ابتسامة خفيفة تفيض بالنبطة والسرور .. ولعله كان ما يزال متأثرا بما روته من الدكتور روب !

وكأنت تعلمة « المسبعة » تبدأ بدقة واحدة . وقد دقتها « جين » وعيناها تحدقان فى وجهه ، فرائه يستوى فجأة فى جلسته « وقد تجمعت على سيماء أمارات المعب والترقب والحيرة .. ثم بدأت الأغنية بصوتها العميق الغنى ، منخفضا متهدجا مع الموسيقى الخافتة الناعمة :

« ان المساعات التى قضيتها معك يا قلبى العزيز ..

« هى عندي بمثابة عقد من اللآلىء ..

« أحصيتها مرات .. كل حبة على حدة ..

« مسبحتى .. مسبحتى .. لكل ساعة لؤلؤة ..

ثم توقفت جين عن الاستمرار « إذ أنتفض « جارت » واقفا . ولم تنبى شفتاه بكلمة واحدة ، ولكنه أقبل فى عماه نحو البيانو . فدارت على مقعد البيانو ، وبسطة ذراعيها للقباه .. وما هو ذا قد بلغ العزف .. ولمست يده أصابع البيانو .. ثم وصل إليها .. وإذا به يجثو على ركبتيه ، وإذا بذراعيه تلتفان حول خصرها ، وإذا بذراعيها تلتفان حوله بكل ما احتسته مليلة المدة السابقة من شوق وحنان وظلم !

ثم رفع إليها وجهه ، ونظر إليها برهة ، بعينه اللتين لم تكونا تبصران ، ثم هتف : « أهذه أنت ؟ أنت طوال الوقت ؟ » .

ثم دفن وجهه بين ثنايا « الدافتيلا » « فوق صدرها .. ولم تتمالك جين موافقها بل ضمت رأسه المحبوب بقوة إلى صدرها فى حنان ، وهى تقول له : « أواه يا فتى .. يا حبيبى !

اجل ، أنا طيلة الوقت .. طيلة الوقت بجواره ، فى وحدته وآلامه .. أفكان بوسمى أن أظل بعيدة عنه .. ولكن ، أواه

باجارت ! أية معجزة مكنتنى أخيرا من أن أضلك وأتقصك ، واحس بك ! .. نعم ، أنا هى . أواه أيها المحبوب ، السبت

واثقا ؟ .. من التى تستطيع أن تحتضنك هكذا ؟ حذار يا حبيبى ! تعال إلى الأريكة الكبيرة ، واجلس بجائى ! » .

ونهض جارت ورفعها من فوق مقعدها فلم يفلتها « بينما تولت هى إرشاده إلى الأريكة . وهناك ماد بجثو امامها وقد

لف ذراعيه حول خصرها وخبا وجهه فى أخضانها ، ففتفت جين بصوت ناعم خافت : « أواه يا حبيبى ، يا حبيبى ! » .

ثم التفت يداها خلف رأسه تحميه فى حنانه ، وعادت تقول : « لقد أيقنت أن احلى أيامى هى التى أقضىها بخدمتك » .

فتأى ، وأساعده في نياجه ظلمته ، وأحبه ما استطعت من
أى ألم لا داعى له ، وأبقى بجواره دائما لأؤدى كل حاجاته .
ولكنى لم أكن أملك أن أتى بنفسى ، ما لم يعرف هو ، ويقم
وبصفح .. ولكن لا .. ليس ليصفح . وإنما ليذكر ثم .. يعلن
حبه .. وما هو ذا قد فهم .. وما هو ذا قد صفح .. أواه
يا جارث ! .. اسمعت يا حبيبى ! .. إن أتركك بعد الآن أبدا ،
أبدا ! .. إلا تذكر ما أقول يا محبوبى ! إذن فسأزيدك صراحة
أيها الحبيب ، أصبر قليلا وانصت .. سنبقى هكذا لبضعة
أيام ، كما كنا في الأيام التى قضيتها بجانيك ، فلا يعلم سوى
فتأى أن التى بقرية هى أنا ! ولسوف تحضر العمه « جينا »
هذا المساء ، فتكون هنا بعد نصف ساعة . وسنحصل في أقرب
فرصة ممكنة على ترخيص خاص بالزواج ، ثم تنزوج
يا جارث .. وإذ ذاك .. « . وتوقفت جين وهى تنظر إلى
الرجل الجانى أمامها وقد حبس أنفاسه لينصت إلى كل كلماتها
.. وما لبثت أن استطردت في صوت رقيق خافت جمع في
أعماقه مجزة مقدسة ، دون أن يهتز : « وإذ ذاك ، ستكون
أسمى هناء لى ، أن أبقى مع زوجى ليلا ونهارا ! » .
مرت لحظة صمت عذبة ، وهمدت العاصفة العاطفية
الجياشة التى كانت بين ذراعى جين ، فصارت طمانينة وراحة
.. ثم همس صوت الحب الأزلى الكامل : « ويدوم السلام » .
ثم سادتهما سكون شاملة !

وأخيرا رفع جارث رأسه وقال : « دائما .. دائما معا .
نعم » ، وسيكون ذلك هو النور الدائم ! » .

وعندما فتح سمسون الباب وأعلن مقدم « صاحبة
الغمامة الدوقة ميلدرم » . كانت جين جالسة إلى البيانو
تعزف أنفاسا خفيفة حاملة .. وكان شبة شاب جميل ، يرتدى
ملابس السهرة . قد تقدم في شوق وحفاوة . ليستقبل الدوقة
.. ولم تر هذه - أو لعلها تجاهلت - الشريط الذى كان
يهدى به : فاخدت يده المدودة بين راحتيها بحرارة ، وهى
تبتف : « يا إله السماء ! يا عزيزى دال .. أنك تدهشنى ..
ظننت بأننى سألقى شخصا أعمى » وإذا بك تتهدى من مكان
إلى آخر كما كنت بذاتك المتألفة الجميلة ! » . فاجابها
جارث : « أهلا بك يا عزيزتى الدوقة ! » . ثم اتحنى وأثم
اليدى الرفيقتين وهما ما تزالان تقبضان على يده .. واستطرد
يقول : « لست أراك ، وأسف إذ أقول ذلك .. غير اننى لا أشعر
- الليلة - بأننى أعمى تماما .. إن ظلمتى قد تبددت بأشعة
فراج بالغ يفوق كل تعبير ! » .

.. أوه .. أو هكذا تتطور الأمور ! .. نبئنى الآن ، أيهما
سنزوج : المرضة التى بلبنى أنها شخصية شابة محترمة .
طبيبون في امتدادها .. أم تلك البليطة « جين » ، التى أمرت
عمتها المسكينة - في غير إشفاق - بتجشم مشاق السفر من
أول المملكة إلى آخرها ، إشباعا لنزواتها ؟

وعند ذلك أقبلت جين من مقعد البيانو ، وغدت ذراعها
في ذراع حبيبها ثم قالت : « أنك لتقربين يا عزيزتى العمه
جيننا ، بأنك كنت شديدة الرغبة في الحضور .. لأنك
تستطيعين القصص الغامضة ، والمجاز التى يرسلها الله في

الوقت المناسب . ولسوف يجمع « جارت » بين الفتاتين — المهرضة وابنه أخيك — لأن كلا منهما تحبه حبا لا يدعها تفارقه ثانية .. ويبدو أنه يرى أن ليس بوسعه الاستغناء عن أي منهما ! » .

ونظرت الدوقة إلى الوجهين المتألمين .. أحدهما وجه رجل لا يبصر ، والآخر يوغر له الإبصار في زهو واغترباط .. ثم اغرورقت عيناها بالدموع . وهتفت في دعاية : « أجمل » لقد كنا نوقن دائما من أن فتاة واحدة لا تكفي لدال ، فهو يصبو إلى نواحي الكمال التي لا تتوافر إلا في عدد من الفتيات .. ولكنه — على ما يبدو — قد وجدها .. باركها الله معا ، يا أسخف سمعيدين .. وسابارككما أنا الأخرى .. ولكني أزيد — قبل ذلك — أن اتناول العشاء .. هيا استدعيا رئيس الخدم العصبي ، ذا السوالف المسدلة على صدغيه « وأخبراه بأنني في حاجة إلى وصيفتي وحجرتي ، كما أريد أن أعرف أين قد وضعوا طائري « التوكان » العزيز ، فقد اضطرت إلى أن أسطحبه يا جين .. أنه عصفور عزيز ومحب جدا ! » .

الفصل السابع والثلاثون

كانت أعمدة الاجتماعات في الصحف ، خليقة بأن تصف حفل قرآن جارت وجين — عندما تم بعد أيام قلائل ، في الكنيسة الصغيرة القائمة بين التلال — بأنه « قرآن هاديء جدا » . ولعله كان — في رأي من شاهدوا الحفل — « غير عادي » أكثر منه « هادئا » . على أن كل ما كان يهم « جارت » و « جين » في الأمر ، هو أن يقزوجا ، وأن يتركا معا دون ما كثير إرجاء . فلم يفلح أحد في إغرائهما على الاستماع إلى التفصيلات التي كانت تؤدي إلى هذه الغاية المنشودة . فقد وكلت جين إلى الدكتور دريك بكل ذلك ، قائلة : « كل ما أرجو أن يتحقق يا دريك هو أن يكون عقد الزواج صحيحا من الناحية القانونية .. وأرسل إلينا قائمة الحساب ! » .

أما الدوقة — وهي مثال السيدة المحافظة على التقاليد القديمة — فقد أثارت زوابع من النقاش حول إعداد خمار العروس ، وزهر البرتقال . والحرير الأبيض الناصع ، في حين كانت جين ترفض كل ذلك بقولها : « يا عمشي العزيزة .. تصوري منظري وأنا أضع زهرة البرتقال ، كأنني إحدى دمي عيد الميلاد .. كما أنني خلعت أئفرا دائما من الخمار .. أما الحرير الأبيض فهو السذي درجت على أن اتحاشى أن ارتديه ! » . فصاحت الدوقة : « إذن ، فما الذي ترغبين في أن ترتدي في حفلة زفافك ، أيتها الفتاة الشاذة ؟ ! » . فأجابتها جين وهي تعقد خيطا من الحرير الأحمر كانت تحبكه : « أي

ثوب يطو لي أن ارتديه في ذلك الصباح . وكانت عيناها تنظران خارج النافذة ، إلى حيث جلس « جارت » في الشرفة يدخن سيجارته . فما كان من الدوقة إلا أن نهضت قليلة في لهجة الوعيد : « الديك دليل بمواعيد القطارات » وهل لك أن تعملي على وصولي إلى المحطة بعد ظهر اليوم . »

وأجابته جين ، وهي منهكة في عملها : « نحن دائما على استعداد لراحة كل من يريد السفر . في اللحظة التي يطلب فيها ذلك . ولكن » إلى أين أنت ذاهبة ، أيتها العمة العزيزة جينا ؟ .. أنك تعلمين أن دريك وغلاور سيصلان الليلة ! » . فقامت الدوقة ساخطة : « انني انفضي يدي من أمرك » وريدت العودة إلى الجنوب . « وجنحت جين إلى الملاحظة قائلة : لا تفعل شيئا من ذلك يا عزيزتي . . لقد نفضت يدك من سرات كثيرة . ولكنني مثل دم الملك دكان - ملك اسكتلندا - الذي يبقى دواما عالقا باليديين ! » . ثم رفعت صوتها قائلة : « جارت ، إذا أردت أن تربص لفترة وجيزة ، فنادني . إنني هنا ، أبحث مع عمتي الدوقة شؤون جهازي ! » . وواتها رد جارت متسائلا في مرج : « وما هو الجهاز ؟ » . فأجابته : « شيء ترتديه لتتزوج ! » . فصاح جارت بحماسة شديدة : « إذن ، فلنسارع إلى ارتدائه ! » .

وعند ذلك قالت جين : « يا عمتي العزيزة .. تعالى نفقو على أمر سواء بيننا . لدى في حجرتي بعض الثياب البديعة ، ومنها ما هو من حياكة أشهر الحائكين . . فأطلبيني من صيفتك إن تلقي نظرة على كل ثيابي ، واختاري ما تربينه منها ، ولنعد

هي لارتديه في صبيحة زواجي . . واعدك بانني لن استبدله بغيره . »

وكانت نتيجة هذا الجدل ، ان ظهرت « جين » في الكنيسة في ثوب أزرق طويل ، ومطلف من لونه مزرعش بالذهب ، يتناسق مع جسمها السموري إلى درجة الكمال ، وقد تمنطقت بحزام أصفر داكن ، من الحرير الثمين . . و احاطت عنقها وممصميتها بدانتيل قديمة ثمينة ! . . وبقدر ما كانت « جين » غير مكترثة بلباسها ، كان « جارت » يتقد تصمما لبلوغ أقصى درجات الأناقة . ولما كان كثيرا ما دعى لان يقف شبيها في حفلات الزواج في لندن ، فان سمسون اكتسب دراية بكل ما يرتبط بهذه المناسبة ، فلم يجد صعوبة في تمكين مخدومه من أن يظهر في اقصى آيات الأناقة .

وما كان أباه وهو يقف على عتبة المذبح ، في انتظار عروسه ! ولم يكن يراها ، ولكنه ظل بنصب إلى وقع خطواتها . حتى إذا جاءت مستندة إلى ذراع الدكتور دريك ، أمال جارت راسه قليلا نحوها وابتمس !

أما الدوقة ، فقد اختالت في ثوب حريري أحمر ، محلى بالفراء ، بينما ازدانت قبعتها بالريش الأبيض ، وقد تدلى منها كثر من السلاسل المرصمة بالجواهر ، والتي كانت تحدث صلصلة ورنينا وسط سكون الكنيسة ، كلما تحركت الدوقة التي جلست في مقعد خاص بالصف الأمامي ، في انتظار ابنة أخيها لتسلمها إلى زوجها . . وفي مقعد مقابل - من الجانب الآخر - جلست « مارجرى جرايم » . . ثم أتربى يكن للبريس ،

مرتدة ثوبا من الحرير الأسود ، وقبعة صغيرة من الحرير
الطرز ومندبلا أبيض استقر عند قلبها الكبير المخلص الذي
ظل يخفق - في حثان بالغ - لجارت منذ طفولته .. وكانت
فلقت في قلب كل ما تبعث الصليل من الدوقة ، وفيما عدا
ذلك ، كان عينيها لم تحيدا عن متابعة المراسم الدينية لعقد
القران ، وفي يدها كتاب صلاة .

وكان الدكتور « روب » هو الأعزب الوحيد الذي استطاع
أن يحتل مركز الشهبين (١) . وقد أصرت جين على أن لا يهد
إليه بالاحتفاظ بالخاتم . فان ما لاحظته عليه من قبل ، جعلها
توجس خوفا من أن يضع الخاتم حول أصبعه وهو ساه ، ثم
بروح يبحث عنه - عندما يطلب منه - في كل جيوبه وجيوب
جارت وجيوب الحاضرين . وقد يقلب أبسطة الكنيسة قبل
أن يفكر في البحث عنه حول أصبعه !! .. وهكذا وضع الخاتم
في جيب صدرية جارت وظل به منذ أحضرته « جين » من
أبردين . وقد اضطلع الدكتور روب بدفع أجور الكاتب
والمجل وفارعي الأجراس « وكل خدم الكنيسة .. ووضع
النقود التي عهد بها إليه « جارت » لذلك - في سخاء - في
جيوبه ، وأخذ يصلصل بها عندما بدأ القس يوجه الوصايا إلى
المروسين . وقد بلغت به حماسة الفرح حدا تعددت عنده

(١) ذكر الدكتور روب - في فصل سابق - أن له زوجة وفيه ، لا تكلفه
نقعات ما ، ولا تطالبه بأزياء ، ومع ذلك فهي شديدة الوفاء .. وكان يرمز
بذلك إلى كلبه !

هفواته ، دون أن يفتن إلى ما كان يفعل . وبذلك عمل هو
من ناحية ، والدوقة من ناحية ، وراحتا يفتاويان الرنين
والمصلحة .. وكل منهما ينزعج مما كان يصدر عن الآخر .
دون أن يفتن إلى ما كان يصدر منه . فأخذت الدوقة تحلق
في الدكتور روب ، والدكتور روب بعبس في وجه الدوقة ..
بينما كانت مارجرى ترقعها معا بعينين دامتتين !

اما « دريك براند » فكان أطول الحاضرين في الكنيسة .
وقد زان قوامه المشوق حلة سوداء ذات صدرية من الحرير
اللامع ، أعدتها اللادي براند وأصرت على أن يرتديها في هذه
المناسبة . وبعد أن قاد « جين » إلى جانب « جارت » ، عاد
إلى مقعده بجوار زوجته ، خلف مقعد مارجرى .. فلما
سحبت جين يدها من ذراعها ، أدارت وجهها إليه ، وافتت ثمرها
عن ابتسامة شكر .. وفي النظرة السريعة التي تبادلها
نجحت كل ذكرياتها الماضية ، وكل ما كان متبادلا بينهما من
ثققة وعواطف طوال السفين التي مرت عليهما . وثبتت اللیدی
براند عينيها على كتاب الصلاة الأبيض اللينق .. لها كان
للغيرة ظل في حياتها الزوجية ، لأن الطبيب لم يدع فرصة لهذا
الشعور كي يتسلل إلى قلبها ، وكان بهاء زهرته (وهو المعنى
الحرفي لاسمها .. فلاور) هو وحده مصدر سعادته ، وما كانت
الحسان الأخريات - في نظره - سوى كائنات حية لا يهم بها
إلا من الناحية العلمية فحسب . على أن « فلاور » لم تستطع
أن تصل إلى أعماق أغوار « سداقة التي تلت بين « جين »
و « دريك » منذ الطفولة . وزمالتها في شمسيتها « سوزر »

دعائهما تشابه عجيب في الخصال والأخلاق . ما كان ليسانس على زواجهما ، ولكنه صار إلى ود وزمالة كانت لكثيرها خير مشجع . وقد حاولت فلانور - في السنوات الأخيرة - أن تشاركهما مودتهما صادقة ، ولكنها عجزت عن أن تسبر عمقهما تماما . وبدأت الصلاة . . وكان القس قصير النظر ، عصبى المزاج ، زاد من انفعاله ما لا يس هذا القرآن الهام من ظروف لم يعتدها : فمن ترخيص خاص ، إلى « عريس » أعشى ، إلى وجود دوق في الحفل . . كل هذه الأمور زادت من توتر أعصابه ، فراح يقرأ بسرعة فائقة ، وبصوت خافت لم يتمكن العجوز مارجرى من تتبعه ، مع ما بذلته من جهد . ولما فطن القس إلى ارتباكها ، بدأ بتريث في التلاوة ، ويمط في النطق بالالفاظ ، ويتوقف طويلا عند آخر كل جملة ، فتوترت أعصاب الحضور . . فوق ما تخال ذلك من صلصلة سلاسل الدوقة ورنين النقود في جيوب الدكتور روب !

ومسارت المراسم على هذا النحو ، حتى بلغت نهايتها بالاستقبال عما إذا كان هناك معترض على صحة زواج العروسين وشريعته . . وطال انتظار الرد ، مما ضاعف من توتر الأعصاب . فما لبثت العجوز مارجرى أن هبت صائحة : « كلا . ثم شهِقت في انفعال عصبى ، فأدار « العريس » رأسه نحو مصدر الصوت وابتمس ، بينما وضع الدكتور دريك يده على كتف العجوز مارجرى وهي ترتجف ، وهمس قائلا لها : « تجلدى يا صديقتى ، فكل شيء على ما يرام ! » .

ولم لبثت « جين » أن وجدت يدها اليمنى مضتبكة بيد

جارت بقوة . وما كان لأي إجراء من إجراءات الكنيسة أن يفسد روعة الكلمات الكنسية التي وجهت إلى « جارت » للاستيناق من قبله « جين » زوجة له . . ورد « جارت » - ومعه العجوز مارجرى - بالإيجاب ، في عاطفة حارة متحمسة . ثم سلّلت جين بدورها ، وكأنها كانت الكنيسة تبقى - ولو بطريقة إيحائية مرفقة - أن تنبهها إلى أنها تقبل الزواج منه وهو أعشى . فاجابت جين : « نعم أقبل ! » . . وأنبعث الصوت العميق المعطوف كما كان ينبعث منغموما في أنشودة « المسحاة » . وما أن نطقت جين بالرد ، حتى رفع جارت اليد التي كان ممسكا بها ، ولثمها بكل احترام . ولم تكن هذه الحركة الأخيرة مدونة في الطقوس الكنسية ، مما أدخل في روع القس شيئا من الحيرة ، ثم رفع رأسه نجاة سائلا : « من منكم يمنح هذه المرأة زوجة لهذا الرجل ؟ » . . ولما مرت لحظة لم يسمع ردا « أعاد السؤال بحدة ، وهو يحمق بنظرة في أرجاء الكنيسة . وإذا ذاك غطت الدوقة إلى أن دورها قد حان ، فنبضت عن مقدمها الكبير » وتقدمت إلى عتبة المذبح ، وقالت للقس : « أيها الرجل العزيز الطيب ، أقرر بأنني أمنح ابنة أخى لهذا الرجل ، وقد قدمت إلى الشمال ، بتحملة مناعب السفر من أجل هذا القرض » . وكان السام - لطول الإجراءات - قد أودى بأعصابها ، فهتفت : « وآلآن ، استمر . . ما الذي ستفعله بعد ذلك ؟ » . وهنا انفجر الدكتور روب ضاحكا ، غرمت الدوقة مظهرها وراحت ترمقه !

ولم يكن بين الحضور - على تبليغ استناده - من

لم يحفل بالإجراءات ، قدر العروسين نفسيهما . لقد فاز كل منهما بصاحبه ، أمام الله وأمام الناس ، فأنصرف كل منهما إلى الآخر بكل نفسه ، وقد وقفنا أمام الله .. أما « أمام الناس » فهذا ما لم يكتروا له كثيرا . وكانت « جين » قد قالت لجارث لم يسمع ردا ، أعاد السؤال بحدة ، وهو يحمل بنظرة في من قبل : « كل الناس يتصرفون تصرفات غريبة في حفلات الزفاف ، ولن تشذ حفلة زفافنا عن القاعدة ، وما علينا سوى أن نعلق عيوتنا ونقف معا في « الأرض لا أبصار فيها » ، تاركين لغريك أمر مراعاة كل الأصول المتبعة وقانون الزواج ، حتى لا نشوب زواجنا أية شائبة ! » . فأجلبها جارث : « ليس في الأرض التي لا أبصار فيها يا محبوبتي .. ولكن في عالم لا حاجة فيه للشموع ولا لأشعة الشمس .. وأينما وكيفما اتخذك زوجة ، فأننى سأصبح في ذروة سماء الله ! » . وبذلك وقفا معا ، وقد بدا لهما - في سكينتهما - أنهما محوطان بصمت شامل . واستمرت المراسم الكنسية .. وراى القس في حيرة ، أنه لا يدرى كيف يقوى على فك يديهما بعد أن انتهى الموقف الذى كان يقتضى اشتياكهما . ولكن اللحظة التالية كانت تتطلب أن يضعأ أيديهما معا ، رمزا لأنها تسلمه نفسيهما ولأنه يتسلمهما . وهكذا ظلت بدا العروسين ينماسكتين ، في شعور عميق رهين محتشم .. وفى حنان أخذ كل منهما الآخر أمام الله ، طبق حكمته وأوامره المقدسة ! وعندما فرغت المراسم ، أخذت جين ذراعه ، ومالت عليها لبشعر بأعنيادها عليه ، وقادته سائرته إلى داخل الهيكل .. حتى إذا استقلا سيارتهما - بعد ذلك - واحسا لأول مرة

بلدة الانفراد معا كزوج وزوجته ، التفت جارث إلى جين بشوق فطرى ألهم قلبها بشوة تفوق ما تحدوه الكلمات أو الخطب المنمقة . فلم يقل لها « يا زوجتى » لأن تلك الدالة قد نوجت اللحظة التي سبعا فيها من ثلاث سنوات في سحر شامل .. وقال نيا : « ما أعز شيء لى - متى سيرطون لى - متى نصبح في خلوة قامة ! ولم لم يستتلوا القطار عقب خروجهم من الكنيسة ؟ » . فالتفت جين نظرة على الساعة ، وقالت له : « لأن من الواجب أن يتناولوا طعام الغداء على مائدتنا يا عزيزى .. ويكنى أن تفكر نيا قالموا به جيعا لنا . فلا يحق لنا أن نبدأ حياتنا الزوجية بالتقصير في إكرام ضيوفنا .. الساعة الآن الواحدة » وقد حددنا للغداء الساعة الواحدة والنصف . وسيربح قطارهم المحطة في الساعة الرابعة والنصف .. ثم نصبح يا جارث وحينئذ نهما ، بعد نحو ثلاث ساعات ! » . وصاح جارث في فرح صبياني : « وهل ساقوى على الاحتفاظ بضمن السلوك واللياقة لمدة ثلاث ساعات ؟ » فأجابته جين : « بل يجب عليك . وإلا احضرت لك الممرضة روزمارى ! » . وإذا ذاك هتف : « آه ، حذار ، فإن كل حديث في هذا اليوم آثم من أن يتناول هزلا .. يا جين ! » ثم التفت لها فجأة . ووضع يده على يدها قائلا : « جين ، هل تعلمين أنك الآن قد صرت زوجتى ؟ » . تنهست جين بيده . وضغطت بها قلبها وهي تحاول أن تهدى خفقانه . وقالت له : « يا حبيبى .. أنى لا اعلم بحسب ، ولكنى أتهم تماما وثله الحمد إنه أصبح حقيقة رائعة ! » .

الفصل الثامن والثلاثون

كان وصول غلامه دوقه « بيلدرم » إلى قصر « جنينش » حدثا كبيرا أوجد به الكثير من الحركات غير العادية . فقد هان على « سمسون » كل الفزعاج « بكل انفعالات » أمام الزهو الذي لم يكن يحلم به يوما . . الزهو بوجود دوقه تخرج وتدخل وتذهب في القصر . أما « مارجرى » . فإن حداث وصول الدوقه لم يشمرها بشيء . من الزهو . بل قابلت غلامه الدوقه كما لو قابلت زوجها النفس . وأدت لها ذات التحية التقليدية التي أدتها لبقية الناس . . احترام في غير فضل . وتودع دون ألفه . . بل أن تسألها طارئا دار بمخيلتها عن السبب الذي كان يستدعي حضور دوقه إلى « جنينش » . غير أنها لم تتساهل مرة عما استدعى حضور وجه القصر مثلا . ولم يظن « مارجرى » التساؤل عما جاء بالدوقه . بل سرعان ما اكبرتها — برغم ما سببه وجودها من مقاعب — حين علمت أن وجودها كان ضروريا لاستكمال المراسم والمظاهر المطلوبة لحفلة الزواج . بما بيعت البهجة في قلب ابنها المحبوب . .

أما تابع الدوقه ، فكان شابا طيب الخلق . لا يميزه سوى عجزه عن أن يتولى حراسة « بيلدرم » فتطقت « مارجرى » بالحراسة اللازمة ، فكان التابع إذا أراد أن يستريح في سرد قصصه اللاذعة عن أعمال الدوقه في قصر « أوغردين » — أو أي مكان آخر — لجأ إلى غرفة « سمسون » وأطمأن إلى أن الأبواب موصدة : . . أما الوصيفة ، فقد رأت « مارجرى » أنها

نفاة مكينة ليست من الغباء بالدرجة التي تتجلى عليها ، بل كانت على شيء من الذكاء واللفظ ، فمنحتها صداقتها . . في حين أنها وصفت طائر « الفوكان » — منذ النظرة الأولى — بأنه « طائر نحس من الطيور السكاسرة » . فلم تسمح لاحد من الخدم بأن يشير إليه في حديثه ، وكلما أصدرت الدوقه أوامرها بإعداد إثناء مملوء بالأرز المسلوق مع الزبيب — في أية ساعة من ساعات النهار — كانت « مارجرى » توافيها بفضلة من الأرز الذي كانت تعده لجارت ، وهي تقول ل« سمسون » : « هذا لأجل القفص الذي يحلو لصاحبه الغفامة أن يكون مملوءا في أسفاره ! » . ثم تقول للخدمة ما هي على نفراد : « يا لذنب أولئك الذين لم يتركوا هذا المخلوق في أعماق غاباته البدائية ! » .

أما « جنين » ، فقد كسبت منزلتها في أعماق قلب « مارجرى » قبل أن تتجلى شخصيتها الحقيقية . وقد قالت « مارجرى » لجارت ، وهي تحدثه — فيها بعد — عن الممرضة روزماري : « لم يطل كثيرا اقتناعي بأنها ممرضة ، فقد كانت تبالغ في الظهور كممرضة محترمة — في ألباسها الأولى — في كل شيء عدا عينيها » إذ لا سبيل في تمويهها بزي الممرضات . . والعينان نافذتان تطل منهما على قلب المرأة ، وقبلها نظرت فيهما دون أن أتقن من أن القلب الكامن في صدرها ، ملك باكملة — لولدى الحبوب . ولما عصبتها أيما لتعيش في الظلام من أجله ، أدركت عظمتها قلبها ، وأطمأنت إلى أنه في رعاية المرأة التي عجزت عن أن أعرف مزيدا ، إلى أن يقال لي ما

وهكذا ظفرت جين بطريقها إلى قلب العجوز بتفانيها ، ولم يبق من مصدر للخرج - في تلك الأيام السعيدة - سوى الدوقة ، إذ نساءت أن تتدخل في تعديل نظام القصر - وكان هذا مجالا لامحتملات بينها وبين مارجرى ، حدثت خلالها الدوقة - أكثر من مرة - بأن تبادر بالرحيل إلى الجنوب ، ولكن جين كانت تتدخل بحكمتها ولباقتها - فتغضض الإشكال الذي أدى إلى الفراغ ..



ومع ذلك نعتب انتهاء حفلة الزفاف استولى على مارجرى ارتياح بالغ ، إذ أيقنت بأن قصر « جلمنبش » لن يلبث أن يتحرر من نزوات دوقة ميلدرم !

وفي حفلة الغداء الذي اعد بعد الزفاف ، حدثت جملة تعديلات بسبب طائر « التوكان » .. إذ أن الدوقة شهدت آخر هذه النزوات ، إذ أجريت تعديلات في نظام المائدة ، بسبب الطائر « التوكان » ، فإن الدوقة أصرت على إخراجه من قفصه ووضعته على ظهر مقعد إلى يسارها . كان معدا لجلوس الدكتور « روب » ، واقتضى ذلك أن يتحول الدكتور روب إلى مقعد آخر يواجهه له .. وقد أتاح هذا التعديل نسلية كبرى للدكتور روب - حين شرع سمسون في تقديم صحاف الاطعمة الدوقة - إذ راح يشاهد ذراع سمسون وهي تمر بين الدوقة والطائر « حاملة صحاف الطعام » وكانت الدوقة - كما دعتنا - تضع منظارها فوق عينيها مثالة محتويات كل صحيفة من ناحيتها ، فيقفز الطائر ويميل برأسه إلى جانب « ويتأمل

الطعام من الناحية الأخرى . وكانت الدوقة إذا نظرت إلى سمسون مستفسرة عن نوع الطعام ، رفع « توكان » رأسه ناظرا إلى سمسون في صمت .. وكان لصمته على سمسون تأثير أشد رهبة من سؤال الدوقة المفاجيء - ولقد أمتقع وجه سمسون مرة ، والجم لسانه ، وغاب عنه ذكر اسم الطعام - كما عجز عن تركيب جملة يرد بها على سؤال الدوقة .. وأخذته الحيرة ، خشية أن يؤدي ارتياكه إلى إهمال سقوط الصحيفة من يده . وما في ذلك من خطورة إستقاط الطعام على ملابس دوقة .. فبادر الدكتور براند إلى إنقاذ الموقف - وقد كان جالسا إلى يمين الدوقة - فقدم لها قائمة الطعام - وشرح لها الصنف الذي كان يقدم لها .. وعند ذلك تناولت الدوقة غسطا من الصنف ، راعت فيه أن يكتبها ويكفي الطائر الذي كانت ترفع إليه قطع الطعام على طرف الشوكة ، فبادر إلى اختطافها بهارة - وبتعلمها بحلقومه الكبير .

وكان الدكتور روب مشغوقا - بسليقته - بكل غريب - فانصرف إلى مراقبة ما كان يجري أمامه ، وهو يكاد يصيح طربا . ولاحظت الدوقة سرور الدكتور روب بحركات الطائر ، فقالت له : « أراك محجبا به ! .. انه على جانب كبير من الذكاء ، فهو يدرك دوا ما يريد » ، وإذا حزم أمره على شيء رفض كل ما عداه مهما يكن أفضل منه .. انظر إليه الآن - انه يخلق في قطع الطعام الصغيرة المنبقة في إناء السلطة ، ولن يفتح حتى يحصل عليها .. انظر ! » . واتجهت أنظار كل من على المائدة ، ووضعت جين يدها على كتف حارة

وهمست له بما كان يجري ، وأمسكت الدوقة بقرن من الموز فازالت قشره ، وقدمت إلى الطائر طرفاً كان نضوجه قد تجاوز المقبول . فتناولته بمتقاره الكبير ، ثم لاح عليه الاستمزاز ، وسارع بإلقاء الموز فوق المقعد !

نصاحت الدوقة : « انظروا ! .. ماذا قلت لكم عنه ؟ » . ثم أمسكت بحبة عنب حمراء كبيرة ، وقدمتها للتوكان فاندى اغتباطاً ، حتى إذا هم باللقاطها : ردتها الدوقة . وقدمت له قطعة خبز . فاحتفظها منها وقذف بها الدكتور روب !

وأبرقت عينا الطبيب الزرقاوان تحت حاجبية الكثيفين ومال إلى الأمام في تأثر وقال : « بل أنه أكثر من ماهر .. فهو لا يقتصر على معرفة ما يريد .. وقليلون منا يفعلون ذلك .. بل يتجاوزها إلى معرفة كيف يحصل على ما يريد .. ان هذا الطير قد لتنتي درسا .. فلو أنني كنت مثله . لما اضطررت إلى شرب « الشيبانيا » على غير رغبتى . لأننى عندما جلست طلبت « ويسكى » و « وصودا » .. غير أن الشيبانيا قدمت لى ، فتقبلتها في تسامح وخجل . وقد علمنى هذا الطائر الحكيم ، ما كان ينبغي أن أفعل ! » .

وصاحت الدوقة وقد ناض بها السرور : « ها هو ذا رجل يصانف هوى من قالو ، فليعطه أحدكم ويسكى ! » .

وكان قد ثبت في ذهن سمسون أنه المقصود بكلمة الدوقة « أحدكم » كلمتا ثالثها « فسارع إلى قنينة الويسكى . ووضعها في متناول يد الدكتور روب ، بينما كانت الديدى براند تقول :

« إننى قلقة بشأن قطعة الموز التى سقطت على المقعد .. لتفترض ان احداً قد جلس فوقها غفوا ! » . فصاحت الدوقة : « ليرفعها أحدكم ! » . وسارع سمسون وفي يده معلقة وملئفة .

وصوب الدكتور روب كرة من الخبز إلى ناحية اشار للطائر نحوها . فإذا الطائر يلتقطها ، ثم يرفع بها منقاره ويبتلعها . فأفعم قلب الدوقة بالفرح لهذا المنظر .. وكانت قد اعتزمت - وهى فى الكنيسة - أن تدعو الدكتور روب إلى (أوغوردين) فى حفلاتها العادية ، ولكنها - بعد هذا العمل - قررت ترقيةه ودعوته إلى حفلاتها الممتازة . واخذ الجميع يلقون كرات الخبز والطائر يلقفها واحدة تلو الأخرى ، ثم ألقت جين إليه بحبة من العنب - وهى فى آخر المائدة - فلقفها وابتلعها .. ولم تكن « فلور » ماهرة فى الرماية . ولا كانت تميل لمثل هذه الألعاب ، ولكنها خشيت أن تقوم بالشذوذ ، وحاولت أن تلقى بدورها بحبه من العنب إلى الطائر . ولكنها للأسف أصابت بها الدوقة !

وكان لهذا الخطأ من الآثار ما أوقف اللعبة ، فشفل المدعوون بمسائل أخرى إلى حين ، كما شغل جارث وجين بالحديث إلى « فلور » عن « ديكى » الصفر . أبنا .. وهتف جارث : « آه ، ان ديكى هو أبغ صبي عرفته . وقد جمع أبغلم خصال والده وأجمل حسنات أمه فى شخص .. » . وبسرير الحديث مع ديكى أكثر منه مع أى شخص آخر من معارفه . ترك

أشعر باعتراز عندما يقول لم : « يا سيد دالمين وددت كثير
أن اتحدث إليك ! » .. وأبدع جاورث في تعبيره .. حتى توردت
وجنتا أم « ديكى » سرورا .. ورشقت مضيئها بابتسامة
أمنان .. ثم أدركت - مع الحسرة - أن الابتسامة لا تجدى في
إطلاعه على شعورها .. ولم تنته إلى أن جبن همست في أذنه :
« أن سرور غلاور قد بلغ غايته يا حبيبى ، وكان هذا جيلا
منك ! » .

وهنا راق للدوقة أن تتناصف حديثها مع الدكتور روب عن
« الحليور » فقالت له : « عندما تحضر إلى قصرى فى أوغردين ،
تسمع « نوى » .. وهو يصفانى الأحمر .. أنتصرو ما يقول
حينما أعبط درجات السلم وعلى رأسى قبعة الحدبة » ..
وهنا قال جاورث لجين متأسلا فى صورت خافت : « أنتعفين
قصة نوى عندما قيل له : يجب أن تقول يا صاحبة
الفخامة .. ؟ » ، وتذكرت « جين » المرة التى روى فيها
« جاورث » تلك القصة للممرضة روزمارى .. فبادرت قائلة :
« كلا .. وكلم أحب أن اسمعها ! » .. ففهم جاورث : « أما
أنا فارهض أن أقصها ! .. والآن هل لك أن تنظرى إلى ساعتك
وتخبرينى بالوقت تباهيا دون ما خطأ ؟ » .

وأجابت جين : « كلا يا عزيزى .. فلست أجزؤ على إحراج
ساعتى وإلا أخرجت الضيوت » .. فسألها : « ولماذا ساد هذا
الصمت ؟ » فقالت : « لقد انتهت قصة صاحبة الفخامة ..
وبدا الطائر يشرب جرعات من الشمبانيا التى تقدمها له الدوقة

فى كأسها ! » .. وهنا قالت ليدى براند : « أعتقد أن أكبر
خطيئة هى أن يعطى طائر برىء شبيها من الشمبانيا ..
فصاح جاورث : « أواه ، يا ليدى براند ! .. طائر برىء ؟
ليس بين طيور الدوقة أى طائر برىء » فان « نوى » - مثلا
- عجوز سليل .. هل سمعت عن ميزان الحرارة ! » .

وهنا كانت الشمبانيا قد أحدثت مفعولها فى الطائر ، فأخذ
يصرخ ويصيح فى ضوضاء .. ثم قفز على كتف الدوقة وأخذ
ينبش شعرها .. وراحت الدوقة تلطمه وتصدده عليها بمفطارها ،
فكان يتفادى لطماتها ، ثم يماود المحاملة ، حتى فك جميع
خصلات شعرها ، فتهدأت .. وصرخت الدوقة قائلة : « لياخذه
أحدكم ! » .. غير أن سهون تفاضل - فى هذه المرة - عن
الإنداء ، وتسلل خلف إحدى المسائر ليرقت ما كان يجرى ..
فنهض الدكتور دريك ، وجاء خلف الدوقة ، وقبض بيديه على
الطائر ، واجتهد فى تخليص شعر الدوقة من منقاره ، بأن وضع
أصبعه داخل فكي الطائر بحرص شديد ، ولكن الطائر اطلق
بفكيه على أصبع الدكتور ، مما دفع غلاور لأن ترسل صرخة
قوية .

وبينما كان الدكتور ينقل الطائر المحتاج إلى قصصه ، أخذ
يضحك وهو يقول : « لا ضرر .. فان هذا المنقار الكبير لا يلحق
ضررا إذا دغمت بأصبعك إلى الداخل .. أما إذا تركت الأصبع
عند حافة المنقار ، فهنا الخطر ! » .. وتذكرت « جين » إذ
ذاك أنها السيدة المشيئة ، فقالت : « أنتصرو ما تقول

على أن نقفل إلى الحديقة ، فلا تزال هناك ساعة : قبل إعداد العربات .. أما أنت يا فللور فأود أن أرافقك في نزهة قصيرة إلى الرابية العالية .. فهل ترغبين في تناول القهوة في الشرفة يا عمتي جينا ؟ .. وأنت يا دكتور روب ؟ .. أما أنت يا دريك فان جارش يود أن يتمتع بجولة معك ! ..

.....
.....

وبعد نصف ساعة ، كانت جين تجلس في الشرفة . خارج حجرة المكتبة - بين الدوقة وفلاور - وإذا بالدكتور يأتي باحثا عنها قائلا : « جانيت .. هل اطلع في ربع ساعة من وقتك ؟ » فنهضت جين لفورها قائلة : « نعم ايها العزيز ، لك أن تطلب ما تشاء ، لهذا اقل ما نملك لكى نونيك حقك ! »



الفصل التاسع والثلاثون

بدأ الفكتور براند حديثه مع جين قائلا : « تعالى نصعد إلى الممر المنحني ، لنبلغ البقعة العارية بين الأشجار ، حيث قضيت - منذ أيام - وقتا حرجا بأن اثنين لا يبصران ! » فنهضت جين : « آه - يا له من يوم ! .. ولكن هل سأرحته يا ديكى بملدى ما كنت تعلم من الحقيقة إذ ذاك ! » - أجل يا عزيزتى ، وقد برأنا من أن نكون خدعناه : وقال انه يذكر كل كلمة من كل حديث . ويرى اننا التزمنا جاده الصديق .. إن لم يكن في مرمى الكلام - ففى معناد الظاهرى . الشبه بينك وبين الوصف الذى كتبته للممرضة روزمارى : وإذا بلغا البقعة العارية ، جلسا على جذع الشجرة الذى كانت جين تجلس عليه معصوبة العينين ، عندهما وقع عود اثقاب على يدها . ثم سادهما الصمت .. كان لا بد للقهة المودة - اللتين ربطتا بينهما سنوات طويلة ، واللتين اجتازتا كثيرا من المحن والتجارب - أن تجتازا تجربة اليوم ، ففى - فى حساب الطبيب - اقصى وأمر مما كان يخال ! وكان لديه حديث لا بد من أن يفضى به إلى جين ، لكى يغارقها - فى هذه المناسبة - وهو يرتاح الفؤاد ! لذلك شرع يقول بصوت عميق ثابت النبرات : « جانيت .. هل تذكرين حالى فى الصباح التالى للحديث الذى دار بيني وبين دالمين ؟ .. كنت شرسا ، سريع الغضب ، فى حين أنك كنت - يا فتاتى المسكينة - معصوبة العينين ، تجلسين فى الظلام بلا حول ولا قوة ! »

وابتسمت جين ، وحاولت ان تخفف عنه ولكنه قال : « اننى لم اكن مطلق النزاهة معك ، حين جعلتك نظنين اننى كنت مهموما من اجل متاعبك ومتاعبه فحسب . ولكن دالمين ذكر شيئا عنك ، جعل عقالى يلتوى في غير الاتجاه الصحيح ، فافسد على يومى . . . ولم يكن بوسعى ان اذكر لك — إذ ذاك — ما قال . ولكننى — كذلك — لم استطع ان اتساه ! » . وغالبت جين عواطفها . وأفترتفسرها عن ابتسامه ، بينما تضرجت وجنتاها ، وقالت : « ما الذى قاله لك . . زوجى ، عنى ! » . فقد كانت هذه اول مرة تذكر فيها « جارت » بهذا اللقب . وتأمل الطبيب وجهها ، ثم قال :

« . . . كان يتكلم عنك بوصفك « المرأة الوحيدة » ، دون ان يفصح عن شخصيتك ، معتقدا اننى لا اعرف من التى كان يعتيها . وبدا كأنما كان يظن انه يعرف كل ما يمكن معرفته منك . وقال انه كان موقنا من أنك لم تعجبى حقا أو تعرفى فى الحب ، حتى تلك الاءدية التى ضمتكما فى شرفة قصر (شينستون) . . . ولكنه كان يعتقد ان نمة شايبا جعلت أنت منه مثلك الأعلى : ستين طويلة . . . جعلته معدلا تقيسين به الرجال . وان هذا المعدل كان خليقا بأن يفوز — كما فاز بك دالمين اليوم — لو لم يكن أعمى حقا ! . . . ولست اصدق هذا يا جانيت ، لأنه لو كان لمة رجل قد ظفر بحبك — على أى احتمال كان — لما تجاوزه دون ان يظن إليه !

ونقص العرق من جبينه ، فشحكت جين فجأة — فى انبساط صادق — ووضعت يدها اليسرى ، التى زانها خاتم الزواج من



بنا الدكتور (مراند) حبيبته مع (جين) قائلا : تعالى تصعد إلى الممر الخفى .

لبلع الشقة العارية بين الأشجار

جارت ، على يده ، وقالت : « آواه ، أيها العزيز ، السادج القلب ! .. لقد بدأت أرى النور ، وسأكون صريحة معك . حتى لا تعكر صفو صداقتنا غماة ، في السنوات المقبلة ، المشرقة بالهناء ! .. لقد كان جارث على حق ! .. كان نية رجل جعلته - ولا أزال - مثلاً أعلى - حتى إذا كان شرساً - وهو ما لم يحدث قط - وحتى إذا كان أحمق ، وهو ما لم يكنه سوى هذه المرة ، في كل حياته المنسية بالحكمة ! .. ولكنه لم يسبب لقلبي أوجاعاً قط ، اللهم إلا حين كنت أراه لم يبلغ من السعادة ما يستحق . ولو أنه سألني أن أتزوجه لفعلت : لا شيء إلا لأنني لم أفكر يوماً في أن أرفض له أمراً ، أو أتريب في رجاحة رأيه . .. فضلاً عن أنني لم أكن - إذ ذاك - أعرف شيئاً عن الحب الحقيقي . ولكن زواجنا لم يكن كقبلا بأن يمسعه ويسعدني ، لأننا كنا من النشابة في كل شيء ، بحيث لا يمكن أن يكمل أحدهما الآخر على الوجه الذي يعنيه الزواج ! .. وكنت خليقة بأن أقضى نصف الوقت أصر على أن يجعلني مسحة لقدميه ، ثم أقضى النصف الآخر في شجار معه ، لأنه جعلني كذلك ! .. ان المادة التي تخلق صداقة رائعة لا تصلح بالضرورة ، لأن تخلق زواجا ناجحاً ! .. آواه ، يا فتى ! لا تعبت رأسك العزيز في التفكير ، الحمقى السعيان الذين يحتمل أن يكونوا قد غفلوا عنى في الماضي ، فما غفل عنى أحد . ولكني أحمدهم إذ وهبني مثلاً أعلى للرجولة ، صانعي من كل رجل ناقص - وقادني - سليمة ، مرتاحة الضمير . لم يمسني بشر

- خلال سنين الصبا والمراهقة والشباب ، إلى المعجزة المحيية التي حظيت بها اليوم ! » .

فقابل الخاتم الذهبي ، الذي زان يدها القوية ، النبيلة - وقال : « شكراً لك ! » . ثم أردف فجأة : « ولو أنني كنت أننى لو أن صاحب المعجزة لم يكن أعمى ! » . فهتفت بصوت خافت : « آه ، صه ! انك تخطو على أرض مقدسة ، وقد سميت أن تخلع حذاءيك . ان من أحلى ما يربط بيني وبين زوجي اليوم ، أننا نعلمنا أن نلثم ذلك الصليب ! » . ونهضت صرحت بصرها خلال المروج والتلال ، ثم التفتت إلى الطبيب . ووضعت يديها في يديه قائلة : « وداعاً يا عزيزي ديكى ! لكم أحبك لأنك جعلتني أمسارك بها قلت ! انه الشيء الذي ما كان أحد سواك ليقدّم عليه . فلعل جارث يظلمنى يوماً على ما قاله لك ، ومن المحتمل أنني كنت سأقضى فترة تعسة ، خشية أن تكون قد أسأت فهم ما يعنى ! .. لذلك فاذكر دائماً أنك كنت طيلة هذه السنين الطويلة نعمة وعونا ، ولم تكن يوماً سبباً في أن يخفق قلبي بآلم وحسرة ! » .

وإذ اشرفا على القصر ، قال الطبيب : « هذا يوم زفافك يا جانيت ، وأنت لتعلمين ان على العروس - في هذه المناسبة - أن تجود بامتيازات كثيرة . .. فغل تسمحين لى - إذا ما اجتمعنا في اليوم مع فلور وزوجك - بأن أقبلك . .. قبلة الوداع ؟ ! » . فبتت جين : « ما أجمل ما تقضي ! ديكى العزيز ، ولكنى أؤثر أن لا تفعل » . إذا لم يسؤلها فلور : « أولاً

لأننى درجت طيلة عمرى على أن أكره التقيل .. وثانيا لأن هذا يغسد بهاء ما قلته لى فى غرفة الاستشارة بمبادتك - فى آخر مرد - من أنك لم ترنى أفعل طوال عمرى ما لا داعى له - وما لا جدوى منه . وثالثا .. « ، وهنا خفت صوتها وشاعت فيه رقة ، وهى تقول : « لا أرى بأسا من أن أقول لك اننى أريد أن أخبر جارتك صادقة - إذا سألتنى - بأنه ما من رجل فى الدنيا قبلنى .. سواه ! » .

وارتسمت على شففى الطبيب ابتسامة غريبة ، فلقد عرف كل ما كان يرجو ، بل وأكثر .. وألقى نظرة على السوردة البيضاء التى كانت تزين عروة سترته « فإذا هى لم تنبل ، بل اكتمل تفتحها وبهاؤها .. ومضى يبحث - وهو مرتاح القلب - عن زوجته الحبيبة « فلور » ، وانطلق معها مسافزين إلى لندن !

الفصل الأربعون

أشعة القمر تفيض على الشرفة ، فضية ، بيضاء ، صافية .. وقد خرج جارث وجين ليستمتا بضيائها وبهائهما .. كما استقطبا فى الليل دفاة وسكونه ، وجلسا مستمتعين بالراحة والانسجام !

كانت عزلتهما تامة ، والاستجمام والراحة كاملين . وما ليث جارث أن تناول إحدى وسائل مقعده ، فطرحها على أرض الشرفة ، وجلس تحت قدمى زوجته ، وأسند رأسه إلى ركبتيها ، بينما أخذت هى تربت شعره وجبينه فى نومة وحلب . وكان بين لحظة وأخرى يرفع يده ليقرب يدها إلى شفتيه ويلثم الخاتم الذى لم تتكحل برؤيته عيانه .. وطالت فترات من الصمت الحانى بينهما !

وبينما كانا يسمعان فى لجج الخيال والهيام ، إذا بلبل يفرد بين الأحراش ، وكأنه يردد : « نشوة .. عذبة ، عذبة ، عذبة ! » . فقالت جين : « يا حبيبى ، أن هذا التغريد يذكرنى بلحن أود لو تعبد غناؤه لى .. لست أدري اسم الأغنية ، ولكنى اعتقد أنك تذكرها .. فى ليلة الاثنين الماضى ، بعد أن رايت أنا الصورتين ، وشرعت الممرضة روزمارى فى وصفها لك .. كان قلينا - إذ ذاك - يتعذبان . وصعدت مبكرة إلى حجرنى ، لأكتب خطاب اعترافى لك ، بينما أمرت أنت بمسحور بالآ يوفانيك قبل الساعة الحالية .

اسطر اعترافى - فى الحجرة التى تملو المكتبة - تناهت إلى سمعى أنغام البيانو تحت أصابعك .. وبعد عدة مقطوعات مهروشة ، تسال إلى أذننى - فجأة - لحن لم أسمع من قبل .. وقد غاض السحر من أنغامه .. إذ ذاك وضعت قلمى ورحلت أنمت .. وأنت تكرر العزف مع بعض تعديلات بسيطة .. وكذلك كنت تستذكر اللحن .. وما زاد بهجتى وفرحى أنك بدأت تغنى الأنشودة ، ففتحت النافذة على مصراعها وانكابت على حافتها : ناستطمت أن النقط بوضوح بعض كلماتها .. وقد انطبع فى ذاكرتى كلمات قلائل فيها عاطفة وحزن ينفذان إلى الأعماق ، مما طاح بصوابى ، وكدت أهرع إليك ! ..

فلثم جارت راحتها فى حنان ، وقال : « وما هذه الكلمات ؟ »

فقلت : « أهدنا يا يسوع - حين ينقض عنا الجميع - إلى موطن الأمان ! » .. ثم أردفت : « أوام يا حبيبى ! أياه شجون أثارها عبارة : « حين ينقض عنا الجميع ! » .. لا بد أن مؤلف الأنشودة قاسى عذابا كذلك الذى قاسيناه .. ثم توالى اللحن والأنشودة .. فردا الأمل والقبلة إلى نفسى .. وجددت شجاعتى فعدت إلى قلمى .. وواصلت الكتابة .. ومرة أخرى انطبعت فى ذاكرتى هذه العبارة : « حيث أنت يا نور الأنوار الأزلى .. يا رب الجميع ! » .. فما هذه الأنشودة يا جارت ؟ وهل لك أن تشدها لى الآن يا حبيبى ؟ .. الآن .. وهنا .. فإن بى رغبة مبالغتة إلى سماعها منك ، ولمست أظبعى انتظارا ! .. »

واعتدل جارت فى جلسته ، وهو يطلق ضحكة قصيرة هائلة ثم قال : « يلذ لى يا جين أن أسمعك تقولين : « لست أطيق الانتظار ! » .. فما هذا من شيمك .. وأنت الوفورة الجلد والصبرة ! .. أما الأنشودة فقد عثرت على كلماتها فى كتاب ترانيم كاتدرائية اورسيستر ! فى مثل هذا الوقت من العام الماضى .. وشمرت بها فيها من جبال يفوق كل ما صادفت من قبل .. مكتبت كلماتها فى مذكرتى .. ثم حفظتها وطبعتها على صفحة ذاكرتى ، لحسن الحظ .. ولسوف انشدها لك الآن ، بلا شك ، ما دمت ترقعين .. ولكنى أخشى ألا يستقيم اللحن تماما بدون موسيقى .. غير أنه ما من قوة فى الأرض تستطيع أن تمرى بالتحرك من هنا فى الحال ! .. »

وهكذا جلس فى ضوء القمر وظهره نحو « جين » ، ووجهه إلى السماء : وبدأ تضمان ركبتيه .. وشرع يفتى .. وكان اللحن المتوالى قد زاد من رخامة صوته ومرونته ، فاستطاع أن يؤدى اللحن بدقة .. وأصغت إليه « جين » بقلب جنائى : « انقضى الصباح الوناء .. واستنفذ سربعا مكنونات سحر الذهبى .. »

« وبدأت ظلال النهار المرتحل .. تزحف من جديد .. »

« ما جباننا سوى فجر يولى الأديار .. »

« لا يلبث ضحاح ألوهاج أن ينقضى سراعا .. »

« ناهدنا يا يسوع - حين ينقض عنا الجميع - إلى موطن

الأمان .. أخيرا ،

« حيث يشعح الملائكة ببياض لا شائبة فيه ،

« ولا تهبط ظلال التعروب أبدا .. حيث أنت .

« يا نور الأنوار الأزلى .. يا رب الجميع ! » .

وسرى الخشوع الذى فى العبارة الأخيرة ، فى سكون الليل ، ثم تلاشى ورفع « جارت » يديه عن ركبتيه . وماز براسه إلى ركبة زوجته ، وهو يتهدد فى ارتياح بالغ .

وما لبثت « جين » ان هتفت : « جميل ! جميل ! يا جارثى ! .. لعل ذلك راجع إلى انك أتشدتها .. وفى هذه الليلة بالذات .. ولكنها تبدو أجمل ما سمعت ، آه .. ما أكثر ما نطبق على حالنا . فى هذا اليوم بالذات ! » . فبسط جارثى ساقيه ، وقال : « آه ، لست أدري ! .. حقا إننى أشعر باننى بلغت موطن الأمان » .. لا لأن الجميع انفصوا ، وإنما لأننى ظفرت بالجميع إذ ظفرت بك يا جين ! » .

فانحنيت جين والصقت وجنتها براسه ، وقالت : « يا فتاى .. لك منى كل ما أملك أن اعطى .. كل شئ ، ولكنك أذكر يا حبيبى أن كل شئ بدا فى تلك الأيام السوداء - التى ولت وانقضت - وقد انقض عنا - خيل لكننا بأن الجميع قد ذهبوا عنا نحن الاثنين « أهدنا يا يسوع ! » .. فهو الذى قادنا بسلام خلال الظلام - إلى ما نحن فيه الآن .. وأحب شئ إلى نفسى يا جارثى هو أن أدرك أنه رب الجميع .. رب مسراتنا ، رب حبنا ، رب حياتنا .. حياتنا الزوجية ، يا زوجى ! ..

نبا كنا لنصبع معا فى سلامة وهناء ، ما لم تكن قد غدونا واحدا .. فيه ، أشعر - أنت الآخر - بهذا الشعور يا جارثى ! » .

وتحسس جارثى يدها اليسرى حتى أمسك بها ، ورمعها إلى مستوى وجهه ، والصق وجنته بها . ثم لف الخاتم حول أصبعها ليقبل كل جزء منه .. وقال : « أجل يا زوجتى .. أحمد الله إذ أستطيع أن أقول فى كل الأمور : أنت يا نور الأنوار الأزلى ، رب الجميع ! » .

وما لبثت جين ان قالت : « آه ، والموسيقى يا جارثى .. من الذى وضعها ؟ » .

فضحك جارثى فى سرور واستحياء ، وقال : « ما أسعدنى إذ تبدين إعجابك بها يا جين .. وها انذا اعترف بإدانتى ! .. فان الموسيقى من وضعى ! ذلك لأننى لم أسمع ترنيمتها : فى حين أن كتاب القرائيم لم يحتو إلا على الكلمات .. وفى تلك الليلة القاسية « حين مسمت الصغرة روزمارى الجراح بقسوة ، بحديثها عن السيدة صاحبة الصورة » وعما يمكن أن يكون عليه حبها ، إذا الماضى يرتد إلى ذهنى وتمثلت .. « الزوجة » ، ثم « الـ .. » ، أعنى الصورة الثانية .. وشعرت عقب ذلك بأننى مهبط الجناح ، كسير القلب ، وحيد .. فلمعت فى ذاكرتى تلك الترنيمة المشجعة ، التى تقول : « أهدنا يا يسوع - حين ينقض عنا الجميع - إلى موطن الأمان » .. ولاج لى - فى تلك الليلة - بأن الجميع قد ذهبوا حقيقة عنا ، ولم استبقن أمامى موطناً أطلع الله فى هذه الدنيا .. » .

ثم نهض فعدل من جلسته « وألقى برأسه على صدرها .
وقال : « وأخيرا بلغنا موطن الأمان ! » .

ثم هذا ساكنا لفترة استأنف بنفسها الحديث : « وهكذا عادت تلك الكلمات إلى ذهني » فرحت أوددها لاتخلص من برائن اليأس ، وأنا امر بأصابعي على البيانو .. وخيل إلي - الكلمات والنغمات نتحول إلى صور كتلك التي كانت تطفو بذهني حين أهرم برسم لوحة .. وشغرت في أطراف أصابعي بذات الأخر الذي أحس به كلما هبط على إلهام الرسم .. وبدا من أن أمسك بالفرجون لأرسم . رحت أوقع على البيانو ، وكأنني أرفع صلاة جارة ، فإذا بكل مقطع من مقاطع الترنيم يبعث في نفسي ما اكتنفته كلماته من مشاعر . حتى جاء المقطع الأخير ، فإذا هو تعبير صادق لليقين والعبادة والأمان .. وهكذا ترين أنني لم أكن أكرر الأنشودة من قبيل التدريب . وإنما كنت أصور مقاطعها بالنغم ، ثم أربط بعضها إلى بعض .. لكم أنا متعطش لإعجابك بها يا جين .. آه . هل المطر ينأقظ ؟ .. لقد هبطت قطرة على وجهي . وأخرى على ندي .. » .

ولم تخر « جين » جوابا . ولكنه أحس بانفاسها المنهجة . فأدرك أنها تبكي . وقفز مسرعا على ركبتيه هائفا : « جين : ماذا جرى يا حبيبي ؟ .. لماذا ؟ .. يا الهي ! لماذا لا تأتي على رؤيتي ؟ » . وإذا ذاك سبطرت جين على عواطفها . ورفضت « جارث » فأجلسه إلى جانبها . وهي تمس : « صه يا حبيبي ! ليس بي من شيء سوى أنني بلغت أوج القبطة ! .. تلك وضعت لحنا من أروع الألحان ، ولا تصبو إلى ترديد »

زوجتك الغضرة وجدها ، بل كل امرأة على دراية بالغناء ! .. أتدرك يا جارثي قيمة ذلك ؟ .. أن ملكة الابتكار لديك قوية . فلما تعذر عليها أن تجد منفذاً خلال العين واليد - كما كان شأنها وأنت تبصر وتهارس الرسم - اتجهت إلى الأذن واليد .. آواه ، تأمل معنى هذا يا جارث ! .. أن العالم ينبسط أمامك من جديد ! .. » .

وطوقته بذراعها في طرب واعتزاز ، وقالت : « الحمد لله .. أنني أعرف ما يكفي لكي أسطر العلامات الموسيقية لأحانك .. تصور يا « جارث » أننا سنذهب يوما إلى الكاتدرائيات الغنية ونستمع إلى ترانيمك .. وأن أعظم الأصوات ستتنافس على غناء أحانك ! .. ونصور القلوب النابضة الخافقة والنفوس التي تبرزها الصور النفسية .. تماما كما كنت في الماضي توفق في نفوس الجميع - بصورك الرائعة الناطقة - ميسر التقدير والفهم الكامل للجمال » .

فرجع جارث رأسه « وقال : « أحمدا ما تقولين ، يا جين ؟ .. هل بلغ اللحن هذا الحد من الجمال ؟ » .. كم أنا مفتبط بذلك .. والآن دعينا نطرق حديثا آخر . آه « دميني أمضي إليك بسريرة نفسي .. أن الإحاضر أروع من أن يدع مجالا للتفكير في المستقبل .. فلنتحدث عن حاضرننا ! » .

وافتر شعر « جين » عن ابتسامه ، هي ابتسامه « الزوجة » .. عبيقة ، رحيبة ، رقيقة ، تحمل كل معاني الاستسلام . وأحدث نحوه . وأسندت وجنتها إلى رأسه ، وقالت : « نعم : يا حبيبي . لننتحدث عن الساعة الآن نحن غيبا ، إذا خلا لك ذلك . فإذا أنت ! » .

— تأملى دارنا يا جين « وصفيها لى كما تبدو لعينيك فى ضوء القمر »

— لونها رمادى ، هادى ، مريح للنظر .. يبحث الثمور بالوئل المريح يا جارثى . وانوار حجرة المكتبة ما تزال كما تركناها ، والنافذة الفرنسية مفتوحة على مصراعها .. والمصباح — الذى يعلو الحامل — يبدو من هنا بديع المنظر ، تحت ظلته القرمزية ، فهو يسكب أشعة دافئة حمراء فى الداخل .. كما انى ارى شمعة واحدة فى حجرة المائدة ، واعتقد ان سبسون ينهك فى إعادة الأدوات الفضية لماكنها .. ثم ، هناك نور فى الحجرة الوسطى . وأرى مارجرى رائحة غادية، تضع امتعتى فى صوانات الحجرة ، وتمنق العاديات والأواني الصغيرة بذوقها وعنايتها .. كما انى ارى ضوءا فى حجرك المجاورة لحجرتى .. ها هي ذى مارجرى قد ولجتها .. وها انلى أراها تتفقد كل شيء لتتأكد من انه فى مكانه الصحيح .. يا للمجوز المخلصة الطيبة القلب! جارثى، ما احلى ان تكون اليوم فى دارنا ، يحيط بنا — ويقوم على خدمتنا — أفراد يتفانون فى حبهم الصادق لنا !

فقال لها جارثى : « ما أعظم سعادتى إذ المس فيك هذا الشعور ، فقد كنت أخشى أن يتناك بعض الحسرة إذ تشتبهين أن تستنمى بشهر غسل ، كما يفعل سوانا .. ولكن حاشاك ، فانى لمؤتن من أن كل ما كانت تصبو إليه نفوسنا هو ان يضمننا سقفة واحد ، ونصبح جسما وروحا واحدة .. اليس كذلك يا زوجتى ! » . فأكدت « جين » قوله !

وسمعا ساعة داخل الدار تدق القاسعة ، فقال « جارثى » بصوت خافت : « يا للساعة القديمة العزيزة .. لقد اعتدت ان اسمعها تدق القاسعة ، منذ كنت طفلا فى مهدى .. حين كنت أجهد نفسى فى أن افهم مستيقظا حتى أرى أمى تسير فى ثوبها الفضفاض ، ذاهبة إلى حجرتها . وكان المتبع ان يترك الباب الذى يفصل بين حجرتنا مفتوحا على مصراعيه ، فكنفت الماع منه السمعة المضيئة فى حجرتها ، وهى ترسل شعاعا من نورها على سقف حجرتى .. وما ان ارى خط النور فوقى ، حتى كنت استغرق فى نوم عميق ، إذ كانت راحتى وسعادتى فى أن احس بوجودها بجوارى » . وأنها لن تعود إلى الدور السفلى . هل أعجبك الحجرة يا جين ؟ .. ما راك فيها ؟ .

— لكم أعجبتنى يا عزيزى .. انها حجرة جميلة ، ولها جلالها القدسى لأنها كانت حجرة تلك الروح الغالية .. امك ! هل علمت ان العمة « جورجينا » قد أصرت على أن تنفذها ، وأشارت بضرورة إعادة طلاؤها باللون الأبيض وكساء الجدران بالورق ؟ .. ولكنى لم اقر رغبتها ، وأبيت تنفيذها ، لان السقف القديم كان ثمينا .. كان منقوشا باليد ، وكذلك الجدران .. ولا بد أنك شغفت فى صفرك بالصور التى رسمت فيها .. إنك لا تزال تذكرها حتى الآن ..

— ان غنانا فرنسيا قضى هنا مدة طويلة ، فافرغ فيها فنه، إذ رسم مناظر المياه والأزهار والطيور المائية البديعة وقد وقفت وسيقاتها فى المياه .. يخيل لى يا جين اننى أستطيع التنقل فى الحجرة وأنا ممصوب العينين ..

الحاضرة ، وأن اشير بيدي - بكل دقة - إلى كل بقعة رسم فيها أحد تلك الطيور !

وقالت جين في حنان بالغ ، وقد اعتصر قلبها ما كانت تسمعه منه أحيانا من زلات اللسان التي تتم عن أنه كان يفسى أنه فاقد البصر : « سنفعل ذلك يا حبيبى .. ومع الوقت .. يجب أن تخبرنى بكل شيء كنت تفعله أو تحبه في سفرك .. فاني اود معرفتها كلها .. وهل احتفظت بذات الحجرة التي تجاوز حجرة أمك ؟ » . فاجابها جارث : « منذ وعت ذاكرتى .. فلا الباب الذي يصل الحجرتين مفتوحا دائما .. اما بعد موت امي فقد اغلقت ذلك الباب ، اللهم إلا في ليالي عيد ميلادي .. تكلمت اثركه مفتوحا ، حتى إذا ما استيقظت في ساعة مبكرة ولحت الباب ، ففرت من لراشئ مهرولا إلى حجرتها .. وكنت أنخيل دائما وجودها في الحجرة لأحظى من شخصها العزيز بالتحية والتهنئة بعيد ميلادي ! .. وبطريقة ما ، كشتفت مارجرى الأمر ، فلما كان عيد ميلادي التالي ، وضعت ورقة كبيرة على الوسادة ، كتبت فيها بخطها المنق : « أعاد الله عليك العيد في أحسن الأحوال يا سيد جارثى .. » وكانت هذه اللفتة مؤثرة جدا ، ولكنها أفسدت الخيال اللذيذ .. بقى الباب بعد ذلك موصدا ! » .

ثم سادها صمت طويل ، لم يكن يقطعه سوى بلبلان راحا يتناوبان الشدو ، بين الأشجار البعيدة .. وعاد جارث يلف الخاتم حول أصبع جين ، وسألها وفيه ملتصق به : « قلت أنك رأيت مارجرى تدخل من حجرة إلى أخرى ، فهل الباب مفتوح بينهما الليلة ؟ » .. فعقدت جين يديها خلف رأسه

.. يدان فويتان ثابتتان برغم ما اعتراهما في اللحظة من ارتجاف . ثم الصقت وجهه بوجهها ، كما فعلت ليلة الشرفة بقصر (شينستون) - منذ ثلاث سنوات ، وقالت : « نعم يا حبيبى .. إنهما متصلتان الليلة » .

فصاح جارث : « جين .. أواد يا جين ! .. ثم أغلت من يديها ، ورفع وجهه الولهان إلى وجهها ، فتداعى جلد حين ، وهتفت : « أواد يا حبيبى .. خذنى بعيدا عن ضياء القمر الرهيب ، فاني لم أعد أحتمل أن أراه .. أنه يذكرنى بشينستون » وبالنظر الذى الحقته بك .. كأنه حجاب يفصل بينك وبينى .. هذا الضياء المتألق الذى لا يمكنك أن تراه ! » . وانهمرت دموعها فوق وجهه المتجه لها .

عند ذلك نهض جارث واقفا ، وقد دبت فيه غريزة الرجولة والسيادة ، وحق السيطرة ، ومتعة التملك .. كل هذه المشاعر هبت في داخله ، فآذا به الطرف الأقوى - في الزواج - برغم عياد ! .. وكان على جين أن تركن إليه في كثير من الضروريات ، حتى وهو عديم الحيلة ! .. وما لبث أن جذبها بيديه - بكل حنان ورقة - فأوقفها وأحاطها بذراعيه . ووقف أمامها ونور حبه العارم يضيء وجهه بسناه الباهر ، ثم قال لها : « يا زوجتى المحبوبة .. يا أحلى شيء في الحياة ، لن يقوى نور ولا ظلام على التفريق بينك وبينى . وما كان نور القمر الهادئ ليقوى على انتزاعك ، ولكن شمورك بأنك لى سيزداد اكتمالا في الظلام الساكن أناسكم ليلتيه . حيث لا تملك أن تتقاسمه ! .. تعالى معى إلى حجرتي المكتبة .. حيث

تبعد الأضواء ونسدل الستائر . وستجلسين على المقعد المجاور للبيانو ، حيث كنت جالسة في تلك الليلة الرائعة التي وجدتكم فيها . . تعالى يا معبودتى ، وسأقوم - أنا الذى أرى فى الظلام بعين الوضوح الذى يرى به فى النور - بعزف « المسبحة » لك ، ثم ترنيمه « تعالى أيتها الروح الخالقة » ، وسأغنى لك الشطرة التى كانت موردا خفيا للسلام والطمأنينة ، وكانت توة صامت كل حياتى النفسية طوال سنين الفراق القاسية ! .
 وشد جارث يدها حول ذراعه ، وسارا معا وهما ينشدان فى خفوت :

« أتح بنورك الدائم الأزلى قوة لظلمة أبصارنا العمياء
 » وامسح بالزيت وجوهنا الملوثة . . واملأنا فرحا بفيض
 مجدك .

« وأبعد عنا أعدائنا ، وهب السلام وطننا
 » وحيث تكون مرشدنا ، علن يكون ثمة سوء » .

.....

وهكذا سارت جين معتمدة على ذراع زوجها ، بينما كانت تقوده وهى مستندة إليه . . سارت إلى المساعدة الدائمة ، الكاملة فى بيت الزوجية !

((تمت))

٤٣٧٩

رقم الإيداع

٩٧٧ - ١٦٣ - ٠٨٠ - ٦



Lodoo

www.lodoo.com

المطبعة العربية الحديثة

٨ و ١٠ شارع ١٧ المنطقة الصناعية بالعاصمة

٢٨٣٥٥٥١ - ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٢٣٧٩٢



مطبوعات كتابي إصدار جديد

عزيزى القارئ :

كان أول ما لفت نظري إلى هذه الرواية الصبغة المحلية التي اقتربت ببدايتها . إذ يبدأ الفصل الأول منها وبطلتها «جين شامبيون» جالسة تحتسى قهحاً من الشاي في شرفة فندق (ميناء هاوس) القديم المطل على أهرام الجيزة . وهي تطالع العدد الأخير من جريدة (الأحد) التي تصدر في لندن .. وفوجئت بخبر منشور في تلك الصحيفة يفيد أن الشاب الذي تعزم الزواج منه - وهو الفنان «جارت دالين» - قد فقد بصره نهائياً . فتسرع عائدة إلى لندن كي تقف إلى جواره في محنته .. وكان «جارت» يصغرها سناً . وكان باهر الجمال . ذائع الصيت . واسع الثراء . تنهاقت عليه أجمل حسان المجتمع الراقي . ويسمى دائماً إلى أن يحيط نفسه بكل جميل . فتدرك أن زواجهما لن يكتب له التوفيق . لأن طول المعاشرة لن يلبث أن يفتح عيني «جارت» على دماستها . لذلك ترفض يده . ولا تجد علة تبديها له سوى صغر سنه . وأنه في نظرها (مجرد غلام) . وتشتد بها الحسرة وتباريح الحب فلا تلبث أن تقوم برحلة حول العالم . وهي مصر تقرأ نبأ فقدانه البصر . فتسرع عائدة إليه كي تواسيه وتخفف عنه مأساته .. والآن .

تعال نقرأ معاً هذه الرواية المشوقة !

هاجى مراد